كتاب المفاهيم

أبو الفتح عبد العزيز الجعفي الشاذلي

كتاب المفاهيم
أبو الفتح عبد العزيز الجعفي الشاذلي

لقد عرضنا في هذا الكتاب لمفاهيم كثير من الظواهر المتقابلة و لم نأل جهدا في أن نجلي ما فهمناه من حقيقتها للناس، وما أدركناه من حكمته تعالى فيها وفي كثير من خلقه وقد أسمينا الكتاب في البدء: مجمع البحرين، ثم رأينا في هذه التسمية بعض المبالغة، فاطمأن قلبنا إلى تسميته: كتاب المفاهيم، فكان ذلك كذلك

كما التزمنا في كتابنا هذا بمنهجنا الشاذلي الجعفي في الدين الذي لا نزيد فيه شيئا عما جاء به الدين، وإنما ننقي الدين مما شابه من شوائب ما استطعنا ونلغي ما ابتدعه مبتدعة التشدد والتعنيف، ونخالف البعض فيما بدعوه وهو من البدعة براء بل له أصل في الدين مما يجازي الله تعالى على فعله. لم نكفر من كفره أهل التكفير وأخرجوه من الملة رغم أنه يشهد شهادة التوحيد، وامتثلنا للقرآن والسنة فلم ندع إلى شهر سيف على راع ولا على رعية، وإنما دعونا إلى الأخذ بالبيعة والطاعة لأهل الحكم في كل بلد من بلاد المسلمين حتى لا تكون فتنة، وحتى لا نقتل بعضنا بعضا ونخرب بيوتنا بأيدينا ونشرد أهلنا وأبناءنا بغير حق كما هو عليه الحال مما يحز في القلب في بعض الأقطار الإسلامية. عن مقدمة الكتاب

الثمن: 25 درهما

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وءاله وصحبه

كتاب

المفاهيم

أبو الفتح عبد العزيز الجعفي المغربي الشاذلي عفا الله عنه

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتاب: كتاب المفاهيم

الكاتب: أبو الفتح عبد العزيز الجعفي المغربي الشاذلي

الإيداع القانوني: 2018MO4894

ردمك: 978-9920-9724-2-0

تصميم الغلاف: أسماء لقبيبي

الإخراج: الحسن سميح

الإشراف على الطباعة والنشر: رضوان لعرج، خالد الزوين

تواصل خارجي: حمزة العرباوي

الطبع: مطبعة شمس برينت 1869 قطاع E حي الرحمة سلا المغرب الهاتف: 0537871341

الطبعة الأولى

2018ميلادي / 1440هجري

إهداء

إلى مَنْ تَمَنَّتْ أن تُجَاوِرَنَا وتُبَنِّيَنَا في دار الفناء

وسألت ربها ذلك بإلحاح

فاستجاب لها المولى عز وجل بِأَفْضَلَ مما سألت

توفاها إليه

فكانت جارة الله في دار البقاء

فعسى الله تعالى أن يَتَوَفَّانَا مسلمين

ويُلْحِقَنَا جِوَارَهُ وَجِوَارَ أحبابه

إلى الباقية في رحيلها . . الحية في موتها

إلى حياة بلحاج

أهدي هذه المفاهيم

إمضاء: الفتح الجعفي

تقديم

رَبَّاهُ وقد فَهَّمْتَنِي بعض ما عَلَّمْتَنِي مِمَّا أَبْدَعْتَهُ وَرَاعَنِي بإتقان صنعه وتكامل بنائه ووضعه، في اختلاف لولاه ما تَمَّ له هذا التكامل، وفي ائتلاف شِقَّاهُ في انسجام وتواصل، وفي تزاوج يَصْدُرُ عنه بقاؤه حتى حين، وَتَمَاسٍّ في ارْتِجَاجٍ، يَكُونُ منه بدؤه وانتهاؤه في الحين

مُتَقَابِلَاتٌ تناقضت في تقابلها، وتباعدت بعد تقاربها، وتمازجت بعد امتيازها، وامتازت بعد امتزاجها، وتواصلت بعد انفصالها، وانفصلت بعد اتصالها، وتوافقت بعد اختلافها، واختلفت بعد اتفاقها

تَسِيرُ على التخالف على الزمان والمكان، لا تَقْتَصِرُ على هذا ولا على ذاك بِالْمَرَّةِ، وِفْقَ مَا سَطَّرَتْهُ لها يَدُ القدرة، فَبِتَنَاوُبِهَا على الحلول تَتَنَوَّعُ الفصول، وَيَلْحَقُ المنقطع بالموصول، وإِلَّا لَخَتَمَ السكون على عين الحياة، وغارت في رمال الممات، ولحق الماضي بما هو آت. فلذلك أَجْرَيْتَ الكائنات غير ثابتة على حال، وَطَبَعْتَ المتقابلات على الانفصال والاتصال، وَوَهَبْتَ المختلفات حقيقة الرَّضَاعِ وَالْفِصَالِ، كل يوم هي على حال، كما شئت لها، سبحانك أنت الكريم المتعال

كما سَبَّعْتَ الْوَحَدَاتِ في واحدة، وأَبْدَعْتَ العوالم غير متتالية في الماضي والآتي، متحركات وهامدات، وجعلت الحياة لا تكون إلا بالممات، والضوء لا يكون إلا بالظلام، والعلم لا يكون إلا بالجهل، والقوة لا تكون إلا بِالْوَهَنِ، والغنى بالفقر، والخير بالشر، والنفع بالضر، والعبد لا يكون إلا بالرب، والرب في غنى عن غيره لكي يكون، بل هو كائن بالضرورة، لا بدء لكينونته، ولا انتهاء لبقائه وديمومته

هو الأول ليس لِأَوَّلِيَّتِهِ ابتداء، بل أَوَّلِيَّتُهُ استغراق أَوَّلِيٌّ في الْقِدَمِ، لا أَوَّلَ لِقِدَمِهِ

وهو الآخر ليس لِآخِرِيَّتِهِ آخر، بل آخِرِيَّتُهُ استغراق آخِرِيٌّ في البقاء، لا آخر لبقائه ولا انتهاء

الرَّبُّ الأعلى، لامتناعه عن إدراك الأسافل له من محدثات، وَتَنَزُّهِهِ عن أن يحيط به (لا بشيء منه، إذ ربنا لا يقبل التبعيض) الأسافل، عَالِمُهُمْ مهما تَعَلَّمَ، وَمُبْصِرُهُمْ مهما أَبْصَرَ، وَنَاظِرُهُمْ مهما نظر

لا مجال لمعرفة كيف هو، اللهم إلا ما عَرَّفَنَا من معرفته كيف شاء أن نعرفه، لا كما هو في حقيقته، وَمَنْ رَامَ معرفته بغير ما تَعَرَّفَ إليه به، غَوَى وَتَرَدَّى في مَهَاوِي السَّفَاسِفِ وَالْخَطَلِ

اَلْجَلِيُّ مَا حَاجَتُهُ لأن يُعَرِّفَنَا بنفسه، وهو الظاهر لا يراه من العباد إلا أولوا البصائر، يتجلى لهم حسب المناسبة، ويخاطبهم بما تقتضيه المخاطبة، ويكشف لهم أمورا كانت عنهم غائبة. فإذا ما أبصروا، لم يعودوا يبصرون غيره، وَاسْتَوْخَمُوا ما نَزَلُوا فيه قَسْراً من موضع وأوان، وضاقت عليهم الدنيا بما رَحُبَتْ، فَمَدَّ لَهُمْ في البقاء إلى ما لا نهاية، فَعَبَرُوا وَحَلَّقُوا دون هدف ولا غاية

ما اسْتَفْحَلَتْ غُرْبَتِي واشتقت إلى موطن لم أَعُدْ أذكره، وَحَنِينٌ تَمَلَّكَنِي لم أَعُدْ أُنْكِرُهُ، إلى ما هناك ومن هناك، مِمَّا يَشُدُّنِي به رباط المحبة، من مواضع ليست في المكان، وعهود ليست في الزمان، وأشخاص ليسوا من بني الإنسان.

ما كان مِنِّي ذلك، إلا وَمَلَلْتُ المقام في مواطن الأنام، ولم أَجِدْ مُتَّسَعاً أَبْسُطُ فيه جَنَاحَيَّ كي أطير، أو أَمُدُّ فيه خطواتي كي أسير، إلا وَتَدَارَكَنِي الودود بلطفه، وَطَوَّحَنِي في عوالم أسيح في أجوائها وحيدا، وأمشي على تِبْرِهَا سديدا، وَأَمْخُرُ عُبَابَ بحارها شريدا، فأنسى الضِّيْقَ بَعْدَ انْفِلاَتِي، وَأَتَنَاسَى الشوق وأنا هائم في انبعاثي

فلا تَحْسِبُونِي مَا أَدْهَشَنِي بِجَمِيلِ صُنْعِهِ إِلَّا مَشْدُوهاً، وَلَا تَحْبِسُونِي فيما تَعْبَثُونَ فيه من أكدار، فما عدت بكم شبيها، ولا تَعْجَبُوا لِأَمْرِي مَا تَخَصَّصْتُ عن خَوَاصِّكُمْ، فَمَهْمَا تَخَصَّصْتُ لَا أَكُونُ وَجِيهاً

وَاشْهَدُوا كَيْفَ انْطَلَى الماضي من أمره على اختياركم حتى محاه، واشهدوا على تلاعب الأقدار وهي جادة، لم تزغ عن جدها بالليل والنهار، منها ضاحك ومنها أَوَّاهٌ. يُدَبِّرُهَا، لم يُشْهِدْ على تدبيرها مِنْ أَحَدٍ، وَيُدَمِّرُهَا حتى لا يبقى منها أحد، ويبعثها مُتَبَدِّلَةً زَاهِيَةً بعد شُحُوبِهَا، لا يكاد يعرفها أحد

تَمَنْطَقْتُ بالشرع حتى لا أَنْسَبِلَ، وَتَعَلَّقْتُ بالعقل حتى لا أَسْتَقِلَّ، وَتَمَلَّقْتُ لنفسي كي تَحْسِبَنِي أَزِلُّ، وَتَرَفَّقْتُ بروحي من غير أن أَتَّصِلَ، وَانْفَلَقْتُ عن جُذُورِي، حتى إذا عَلَوْتُ مَا عَلَوْتُ لم أَنْزِلْ، وَتَنَقَّلْتُ خِلَالَ الضَّلَالِ من غير أن أَضِلَّ

ومهما قلت، ومهما فعلت، لا أَفْتَأُ أكون غير عبد الله الواحد الأحد، وَأَيُّ شيء أعظم أن يكون لشيء غير أن أكون لله الواحد الأحد

كفى بالمرء أن يعرفك أيها المولى بما خلقته على صورتك، ويدرك منك ما أدرك منه، متى ألهمته إلى ذلك ووفقته إليه

فلله كيف أنعمت علينا بنعمة الخلق ووهبتنا ما لا يحصى من أرزاق، فلو لم يكن منك لنا غير ذلك لكان فضلا عظيما، فكيف وقد شرفتنا بالخلافة ونفخت فينا من روحك، وَجَبَلْتَنَا على شيء من صفاتك حتى نهتدي باستشعار صفاتنا إلى صفاتك؟

فما جُودُنَا إذا جُدْنَا سوى أثر لجودك، وما عَفْوُنَا إذا عفونا سوى من إلهام عفوك، وما صَبْرُنَا إذا صبرنا سوى من فيض صبرك، وما شكرنا إذا شكرنا سوى من صدى شكرك

فأنت الجواد العفو الصبور الشكور

ونحن الفقراء المذنبون المصرون الجاحدون

فجد علينا بما عرفنا لك من أفضال، أيها المنعم المفضال

واعف عما اقترفنا في حق أنفسنا من أقوال وأفعال، فأنت العفو ذو العزة والجلال

واصبر على إصرارنا مهما أمعنا في التِّيْهِ والضلال

واهدنا لشكرك أيها الشكور، ولا تؤاخذنا على جهلنا بحال من الأحوال

سبحان من جعل معرفته رهينة بمعرفة عباده لأنفسهم، فمن عرف نفسه عرف ربه

إلا أن المولى عز وجل، رغم أنه أنعم على عباده ببعض صفاته، ونفخ فيهم الروح من روحه، إلا أن هذا الإنعام السامي يعد ابتلاء لا نظير له

هذا الابتلاء يكمن فيما ينتاب ابن آدم من إحساس بالرفعة والتميز، فيتعالى عن بني جنسه ويدعي ما ليس له، فيتوهم أنه والله واحد، بل يدعي الألوهية في بعض الأحوال

فندعو الله تعالى مخبتين، ونقول: اللهم كما شَرَّفْتَنَا عن باقي خلقك بما وهبتنا من أفضالك، وبما جَبَلْتَنَا عليه منك من سمات القدس، أن تهبنا معه تحقيق العبودية لك، وتجعله دافعا لنا إلى حسن تأليهك وتنزيهك وتوقيرك وتعظيمك، وداعيا إلى إحساسنا بِالصَّغَارِ أمام عظمتك، وبالذلة أمام عزك، وبالضعف والوهن أمام قوتك وجبروتك

وأنا عبدك أيها الرب العزيز، لا أأول عبوديتي بغير مفهوم العبودية، أسألك أن تهديني لما يعجبك من أقوال ويرضيك من أفعال، حتى لا أفتأ لا أقول ولا أفعل غير ما يعجبك ويرضيك

مولاي، إذا رضيت عني لا تسعني فرحة مهما فرحت، ولا تحتويني سعة مهما اتسعت، ولا يسعفني شكر مهما شكرت

إذا رَضِيَ عني المولى، فما يهمني والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه؟ ما يخيفني ومولاي القاهر فوق عباده؟ ما يزعجني وهو نصيري؟

دَعُونَا رَعَاكُمُ الله، مِمَّا ادَّعَيْتُمْ لأنفسكم من مَنَازِلَ وَدَرَجَاتٍ عند الله تعالى، يَغْبِطُكُمْ عَلَيْهَا الأنبياء والشهداء، دَعُونَا مِنَ التَّأَمُّرِ في الناس وَالتَّفَضُّلِ عليهم، دعونا من زَجْرِكُمْ للعباد أيها العباد، تلومونهم على تفريطهم في حَقِّ الله تعالى، فمتى أنبأكم الله تعالى بأنكم الفائزون وغيركم الخاسر؟

دَعُونَا من ادِّعَاءِ التَّشَبُّثِ بِسُنَّةِ خاتم المرسلين عليه الصلاة والسلام، ظَنّاً مِنْكُمْ أن السنة مقصورة على اللِّحَى والعمائم والسواك، وكأني بكم تحتالون على ربكم كي يَحْسِبَكُمْ أتقياء وأفئدتكم هواء

كتاب المفاهيم، ما سطرناه نَدَّعِي فيه لأنفسنا شيئا ليس للناس جميعا، ولا نُمَيِّزُ أنفسنا عن غيرنا من بني جنسنا، بل ما كتبناه كتبناه، وأما التَّفَاوُتُ في المراتب والأقدار فلا يعلم به سوى الواحد جلت قدرته

لقد عرضنا في هذا الكتاب لمفاهيم كثير من الظواهر المتقابلة، ولم نَأْلُ جُهْداً في أن نُجَلِّيَ ما فهمنا من حقيقتها للناس، وما أدركناه من حكمته تعالى فيها وفي كثير من خلقه

وقد أسمينا الكتاب في البدء: **مجمع البحرين**، ثم رأينا في هذه التسمية بعض المبالغة، فاطمأن قلبنا إلى تسميته: **كتاب المفاهيم**، فكان ذلك كذلك

كما التزمنا في كتابنا هذا بمنهجنا الشاذلي الجعفي في الدين، الذي لا نزيد فيه شيئا عما جاء به الدين، وإنما نُنَقِّي الدين مما شَابَهُ من شوائب ما استطعنا، ونلغي ما ابتدعه مبتدعة التشدد والتعنيف، ونخالف البعض فيما بَدَّعُوهُ وهو من البدعة براء، بل له أصل في الدين مما يجازي الله تعالى على فعله، ولم نكفر من كفره أهل التكفير وأخرجوه عن الملة رغم أنه يشهد شهادة التوحيد، وامتثلنا للقرآن والسنة، فلم نَدْعُ إلى شَهْرِ سيف على راع ولا على رعية، وإنما دعونا إلى الأخذ بالبيعة والطاعة لأهل الحكم في كل بلد من بلدان المسلمين، حتى لا تكون فتنة وحتى لا نقتل بعضنا بعضا، ونخرب بيوتنا بأيدينا، ونشرد أهلنا وأبناءنا بغير حق، كما هو عليه الحال مما يحز في القلب، في بعض الأقطار الإسلامية

كما دعونا في منهجنا الجعفي إلى عدم تسمية طائفة في الدين بنعت يخالف سواها، فليس في الدين سلفية وصوفية، وظاهرية وباطنية، وإنما الدين واحد، الدين الإسلام. قال سبحانه: "**هو اجتباكم، وما جعل عليكم في الدين من حرج، ملة أبيكم إبراهيم، هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس، فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة، واعتصموا بالله، هو مولاكم، فنعم المولى ونعم النصير**". الحج76

ولم نفرق بين الجماعات الإسلامية، بل حسبنا كل من يقول لا إله إلا الله، كيفما كان وأينما كان، مسلما ينتمي إلى جماعة واحدة، هي جماعة المسلمين، وهي الفرقة الناجية عند الله يوم القيامة

ولم ننصب أنفسنا حكاما ولا قضاة على الناس، ولم نتتبع عيوبهم ومثالبهم، بل اشتغلنا عنهم بعيوبنا ومثالبنا، وأمسكنا ألسنتنا عن الوقوع في المسلمين وغير المسلمين بغير ما يرضي الله تعالى

والداعي لوضع هذا الكتاب، أن كثيرا من الإخوة الذين لهم إلمام سابق ببعض مناهج الصوفية، بل منهم من اطلع على ما كتبوه من قبل في هذا المجال

قلت: كثير من هؤلاء الإخوة قرؤوا عند ابن عربي رحمه الله تعالى وغيره، ما سار على منواله كتابنا: **المفاهيم**، فلذلك خصصناه لهذا النمط من الكتابة، حتى لا يكون له في ما كتبناه خصاص يأخذه عنا بعض الدارسين من ذوي الخبرة والاختصاص.

ولولا ذلك ما كتبنا منه شيئا، إذ لا حاجة للناس في قراءته ليعرفوا ربهم ويتقربوا إليه، بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، فافهم ما قصدنا إليه

وقد وضعنا كتاب المفاهيم في سبعة مباحث، كل مبحث يتألف من بضعة فصول، وهي كالتالي:

المبحث الأول: في الظاهر والباطن

المبحث الثاني: في أحكام الروح والنفس فيما يتعلق بالماهية، وما يجري بينهما من تَخَاطُرٍ وَتَخَاطُبٍ، وكيف يعتبرهما الْمُكَلَّفُ في شريعة التكليف، وما تستوجبه النفس من حقوق عليه، فيما تَرْغَبُ وَتَأْمُرُ، وما يُخَالِفُ منه وَيَحْذَرُ

المبحث الثالث: في الحياة والموت

المبحث الرابع: في الرب والعبد

المبحث الخامس: في الذكر والأنثى

المبحث السادس: في الإنس والجان

المبحث السابع: فيما خَلَّفَ بعض العارفين مِنْ أسئلة يُعْجِزُونَ بها مَن ادَّعَى أنه مِنْ أَهْلِ الفتح والْمُكَاشَفَاتِ، وما خَاضَ فيه العارفون قَبْلَنَا مِنْ كَلَامٍ حَوْلَ الْمَوَاقِفِ وَالْمُخَاطَبَاتِ

فنرجو ممن قرأه أو شيئا منه، واستحسنه أن يدعو لنا ولأصحابنا بخير، ونسأل الله تعالى، أن يجعله لنا ولأهلينا ولمن حولنا من أصحاب، ممن ساهم في إخراجه من قريب أو من بعيد، أن يجعله لنا ولهم صدقة جارية تتنزل بها علينا جميعا الرحمات في مثوانا الأخير، وَأُنْساً في وحشة القبور ونورا في ظلمتها وسعة في ضيقها، ويكون لنا شفيعا يوم القيامة، ولوالدينا وأهلينا وأزواجنا وأصحابنا وأحبابنا جميعا.

المبحث الأول: في الظاهر والباطن

ظَهَرْتُمْ فِي الْوَرَى حَتَّى خَفِيتُمْ   وَغِبْتُمْ فِي الْخَفَاءِ وَمَا اخْتَفَيْتُمْ
مَتَى أَظْهَرْتُمُ بِدْعاً تَبَدَّى   بَطَنْتُمْ ظَاهِرِينَ بِمَا ابْتَدَعْتُمْ
فَمَا أَبْدَاكُمُ صُنْعٌ تَرَاءَى   ظَهَرْتُمْ فِي الْخَفَا فِيمَا صَنَعْتُمْ
فَحَيَّرْتُمْ نُفُوساً فِي تَفَانٍ   تَجَلَّيْتُمْ لَهَا فِيمَا خَلَقْتُمْ
فَإِنْ كَلِفَتْ بِمَا فِيكُمْ تَفَانَتْ   وَأَنْتُمْ فِي بَقَاءٍ مَا فَنِيْتُمْ
تُنَاجُونَ الْأَحِبَّا بِالْمَعَانِي   وَتُشْجُونَ الْقُلُوبَ بِمَا عَنِيتُمْ
حَيَارَى فِي اغْتِرَابٍ عَنْ ذَوِيهِمْ   سُكَارَى فِي اضْطِرَابٍ مَا سَقَيْتُمْ
فَإِنْ مَا يَظْهَرُونَ غَدَوْا خَفَايَا   وَإِنْ مَا يَخْتَفُونَ فَلَيْسَ عَنْكُمْ
وَإِنْ عَجَزُوا عَنِ الْإِدْرَاكِ مَاتُوا   إِلَيْكَ أَخَذْتَهُمْ بِالْمَوْتِ عَنْهُمْ .[1]

اِعلم رحمك الله، أن الظاهر من كل شيء ما بَدَا وَظَهَرَ لِلْعَيَانِ، كالسماء والأرض والجبال والشجر، وما ظهر لِلْجَنَانِ من الأفكار بالفهم والنظر من التصورات والمعاني، كمفهوم العقيدة لغة في قولهم: هي الْحُكْمُ الذي لا يُقْبَلُ الشَّكُّ فيه لدى مُعْتَقِدِهِ، وفي الاصطلاح: ما يُقْصَدُ به الاعتقاد دون العمل؛ كعقيدة وجود الله وبعث الرسل. انتهى

وقولهم في اصطلاح الاجتهاد: استفراغ الْجُهْدِ في دَرْكِ الأحكام الشرعية. انتهى وما إلى ذلك

والظاهر يحمل معنى الظُّهُورِ والْغَلَبَةِ، لغلبته وشيوعه في العرف، إذ هو الغالب الشائع لدى الناس، بل من الناس من لا يؤمن إلا به، ويكفر بما سواه مما لا تراه العيون ولا تدركه الأفهام

والظاهر صنفان من حيث ما يظهر به:

الأول ظاهر بنفسه والثاني ظاهر بغيره

فأما الظاهر بنفسه، فكل بَادٍ للأنظار بذاته، لا يجد المرء مشقة في رؤيته

وأما الظاهر بغيره، فإما أن يظهر بغيره من خصائصه أو من أعراضه أو من آثاره

فأما الذي يظهر بغيره من خصائصه، فمثاله القوة الجاذبة في الأرض، لا ترى بالعين المجردة، وإنما تظهر بخاصية الجذب وتعرف بها

وأما الظاهر بأعراضه، فمثاله علة الْحُمَّى تظهر بِعَرَضِ السخونة، الذي هو من أعراضها

---

[1] من نظم المؤلف في الوافر

وأما الظاهر بآثاره، فمثاله الرطوبة التي تصيب الجدران وتدل على تسرب الماء، إذ أن الرطوبة أثر من آثاره، وهكذا.

وينقسم الظاهر من المفاهيم والأفكار من حيث طرق إمكان ظهوره إلى قسمين: ظاهر بالضرورة وظاهر بالنظر.

فأما الظاهر بالضرورة: فهو الذي يظهر ظهورا جَلِياً لا يحتمل سواه أو يلتبس بغيره، بل لا يستلزم النَّظَرَ لظهوره.

وأما الظاهر بالنظر فهو بخلافه.

والله سبحانه وتعالى ظاهر بغيره، أي بالنظر إلى مخلوقاته تتجلى عظمته ويدرك علمه وجماله

وإن شئت: ظهر الله تعالى بكل ما خلق وذرأ في الكون من عاقل وبكماء وحجر وشجر

تِلْكَ آثَارَنَا تَدُلُّ عَلَيْنَا فَانْظُرُوا بَعْدَنَا إِلَى الْآثَارِ.[2]

وإن شئت: اللهُ ظاهر بِمُحْدَثَاتِهِ وحوادثه وبدائعه على أنه المحْدِثُ البديع، بل إن الله تعالى ظاهر في تدابيره وتصاريفه في الكون والبرية، على أنه فعال لما يريد

وأما الباطن، فكل ما بطن في الظاهر وغطى الظاهر ظهوره فأوهم بانعدامه، وفيه أن لكل ظاهر باطن

والباطن قسمان:

فالأول يسلم الناس بوجوده جملة دون أن يبصروه، مما أخبرت به الشريعة من مغيبات، كالروح والنفس، ولا يعرفون عنه شيئا خَلَا ما ذكره الشرع

والثاني لا يدركه إلا الأفذاذ، وهو باطن كل ظاهر مما لم تخبر الشريعة بماهيته وبما يتعلق به، ومثاله ما خلق الله تعالى من أرضين باطنة في أرض ظاهرة واحدة، وما يتعلق بهن مما لم يأت به قرآن ولا سنة

واعلم رعاك الله، أن الحق سبحانه وتعالى مَلَكَ الظواهر والبواطن، تَمَلَّكَ عليها بما ظهرت به عنه من مظاهر العلم وإبداع الصنع على أنه العليم المبدع، وما بدا من تدابيره وتصاريفه في الكون والبرية، على أنه الحكيم الْعَلَّامُ

وأما البواطن فقد تَمَلَّكَ عليها بما بطنت به عنه، من حقائق وأسرار لا يدركها سوى من هداه لذلك سبيلا. قال سبحانه: "هو الأول والآخر والظاهر والباطن، وهو بكل شيء عليم". الحديد3

ومن هنا كان لكل شيء ظاهر وباطن، وكان كل شيء مُقِرٌّ بالعبودية لمولاه بظهوره، مُفْضٍ إليه بالإذعان والخضوع ببطونه. وحتى يزاوج سبحانه دلالة الأشياء، جعل لكل شيء حَدَّيْنِ متضادين، لكنهما رغم تضادهما متوافقان غير متنافرين، ولو أن التَّنَافُرَ أول ما يُتَبَادَرُ إلى الأذهان، فلا يكون النور إلا بالظلمة، ولا تعرف الظلمة بغير معرفة النور

[2] البيت وجدته في حلية البشر لعبد الرزاق البيطار، نسبه المؤلف للشيخ حسن بن الشيخ علي بن قويدر الأزهري الخليلي

فكل شيء عرفت جدواه، فلا تقتصر منه على معرفة جدواه، فإنك إن فعلت أسأت التصرف فيه، ولكن أُسْبُرْ فَحْوَاهُ واعرف ضره، حتى لا تغيب عنك الحكمة في وجوده على ما هو عليه وتعرف كيف تتصرف فيه، وكل شيء عرفت ضره نقول فيه ما قلنا فيما عرفت نفعه

فالبحر يغذي الناس بما أودع فيه من دابة، ويحمل أثقالهم في أسفارهم إلى بلد لم يكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس، ولكنه يغرقهم ويَهِيمُ على دورهم ومداشرهم، ويهلك حرثهم ونسلهم

وقد كتب بعض الفقهاء رُقَاهُمْ بمداد صنعوه من ماء البحر، يرجون بذلك استجابة الباري عز وجل لما كتبوه، تيمنا بقوله تعالى في سورة الكهف: "قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا". 104

وقالوا: ما ضرب الله تعالى بالبحر مثلا لمداد كلماته عبثا، فالأولى بنا أن نجعله مدادا لهذه الرقى، حتى يزيد نفعها ويعم خيرها. وقس على هذا المثال تفهم ما قصدنا إليه

وقد خص سبحانه مخلوقات الدانية بهذا الازدواج والتناقض، وأما ما أعد لنا في الآخرة فلا ازدواجية فيه، وإنما هو باطن، أي أصل لا ينعكس عن سواه، وإن شئت هو حق قائم بذاته دَالٌّ على نفسه، لا يشوبه شائب، كيف وهو في دار الحق التي لا حق بعدها سوى الحق سبحانه

فإن قلت: فكيف تكون الأشياء في الآخرة كلها باطنة، وقد وعد الله تعالى أهل الجنة بامتلاكها وتداولها؟

قلت: أليس أهل الجنة بواطن، حتى لا يمتلكوا ويتداولوا ما هو من جنسهم؟

فبالبعث ينتفي عالم الظلال ليقوم عالم المثل

ألا ترى أن ثمار الجنة تتبدل حسب ما تتمنى من نوعها وتشتهي من طعمها إلى ما لا حدود له؟

ويجوز لك تسمية الظاهر شريعة والباطن حقيقة

وتسمية الأول مُلْكاً والثاني مَلَكُوتاً

وتسمية الأول نَاسُوتاً والثاني لَاهُوتاً

وتسمية الأول شهادة والثاني غيبا

وتسمية الأول عالم الأسباب والثاني عالم المعجزات والخوارق

وتسمية الأول واقعا والثاني خيالا

وتسمية الأول مَبْنىً والثاني مَعْنىً

وتسمية الأول عبارة والثاني إشارة

وتسمية الأول عقلا والثاني روحا

وتسمية الأول نطقا والثاني إفضاء

وتسمية الأول خارجا والثاني داخلا
وتسمية الأول مُذَاعاً والثاني مَكْنُوناً
فأما تسمية الشريعة والحقيقة، فشريعة الله تعالى شرعه الجاري على كونه في مكوناته وفق أسباب ومبادئ تسير عليها قَسْراً، ولا تخرج عنها سوى بإذنه، فلا ينبت زرع بغير حرث، ولا تدفع الأرحام بغير تزاوج، ولا يعيش بنو آدم دون أن يشربوا ويطعموا، وما إلى ذلك
هذا ما يخص شريعة الإنسان، أما شريعة الأديان فهي معتقداتها وأحكامها التي نزلها سبحانه في كتبه على الرسل والأنبياء
فلا يسوغ لرسول ولا نبي أن يحيد عنها بحال من الأحوال
والفرق بين شريعة الإنسان وشريعة الأديان، أن الأولى لا تتغير ولا تتبدل منذ أهبط الباري عز وجل آدم وزوجه الأرض إلى أن يأتي بأمره
وأما شريعة الأديان فتتبدل أحكامها من نبي إلى نبي، ولكن عقائدها تبقى على ما هي عليه، وما هي عليه التوحيد للواحد الأحد، فما من نبي ولا رسول إلا ودعا إلى توحيده سبحانه
وإذا سألت عن السر في تبدل الشرائع وثبوت العقائد، فالشرائع تبدلت لتعلقها بالحادث، فكلما تغير الحادث تغيرت لتغيره، حتى تُوَاتِيَهُ رحمة من الله تعالى، والحادث الزمان والمكان والإنسان
أما العقائد فهي لم تتغير ولم تتبدل وبقيت ثابتة، لتعلقها بالثابت الذي لا يتغير ولا يتبدل، وهو الواحد الأحد، سبحانه لا إله غيره. فإن قلت: فما قولك في قوله تعالى: "كل يوم هو في شان". الرحمن27
قلت: لا ينفي كونه تعالى كل يوم هو في شأن ثبوته على حال الألوهية وما تقتضيه من تنزه واستقلالية عن كل ما يؤثر فيها ويبدلها، بل يعني ذلك أنه سبحانه كل يوم هو في أمر من الأمور التي لا يعلمها إلا هو، وإنما يحتمل كونه كل يوم هو في شأن أنه تعالى لا يسعه شيء ولا يحكم عليه زمان ولا مكان، فهو مريد مختار يفعل ما يشاء مما يشاء كيف شاء متى شاء، ولا يلزمه فعل الأمر نفسه كل يوم، إذ ليس هناك ما يلزمه على الاستغراق فيه إن أراد تحولا عنه، ويدعو ذلك إلى الاعتقاد بأنه سبحانه لا يُدْرَكُ، فليس في وُسْعِ المخلوقات أن تدرك الخالق، بل إن من بعض خلقه ما لا يدرك، لقوله تعالى: "ويخلق ما لا تعلمون". النحل8
ولا سبيل إلى إدراك عوالمه وفهم الحكمة من خلقه وقضائه وقدره، وقد قيل: العجز عن الإدراك إدراك
والشريعة ميزان وَضَعَهُ الباري عز وجل، تسير بموجبه دفة الكون لا تخرج عنه، والشريعة قائمة على الأسباب، كما أن الشريعة منطق الأحكام المنزلة القائمة على الطاعة والعصيان والجزاء والعقاب
ومن حكمته تعالى أن واتى بين شريعة الإنسان وشريعة الأديان، ففرض الصلوات في أوقات شروق الشمس وغروبها، وكتب الصيام عند ظهور الهلال، وهكذا، ولعل انسجام الأحكام مع مظاهر الطبيعة دعوة للتفكر في

جميل إبداعه وصنعه، وآية من آياته تعالى تدل على أنه الواحد الذي أنشأ الأكوان وأنزل الأديان. وقد جعل سبحانه التَّفَكُّرَ أكبر من العبادة، فقد روى البيهقي في الشعب عن أبي الدرداء رضي الله عنه موقوفا عليه قوله: "تَفَكُّرُ ساعة خير من قيام ليلة". وبذلك اعتبر التفكر نفسه نوعا من العبادة، وفيه غاية تداخل الصنع مع الشرع، فإن الثاني لا يكون إلا بالأول، وإن الأول أي الصنع، لا يكون صالحا للتفكر في عظمة صانعه سوى بالأول

وأما الحقيقة فهي روح الشريعة، ولا بقاء للحقيقة بغير شريعة تدل عليها، ولا معنى لشريعة لا تعرف التحقيق ولا تصبو إليه؛ ومن هنا كان محل الشريعة الحواس والأعضاء، ومحل الحقيقة القلب، والحقيقة أصل الشريعة وغايتها ومطلوبها، لأن الشريعة إذعان وتسليم، والحقيقة تحقق ويقين؛ فلا شك أن المتحققين أعلى شأنا من المتشرعين، ما دام المتشرعون لا يجوزون الظاهر الذي ما هو سوى تمثل للباطن، الذي تدل عليه الحقيقة ويدل عليها

سؤال: ورد في قصة موسى مع الخضر عليهما السلام، في سورة الكهف ما يدل على أن الخضر أعلم من موسى، حتى أن هذا الأخير طلب منه التتلمذ عليه، رغم أن أستاذه ليس بنبي ولا رسول، فكيف يتتلمذ الرسول على غير الرسول؟

يجدر بنا قبل الجواب التفريق بين علم الخضر وعلم موسى عليهما السلام، فالأول علم الحقيقة، والثاني علم الشريعة، فإن كان الخضر أعلم من موسى بالحقيقة، فموسى أعلم منه بالشريعة، كيف وقد قال الله تعالى في حقه: "وكتبنا له في الالواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء". الأعراف145

ولهذا نقول: إن موسى لما طلب التتلمذ على الخضر في علم الحقيقة الذي لم يكن له به دراية، لولا فضوله لما احتاج إلى ذلك، اللهم إلا ليزداد يقينا على يقينه، ولو أن تكليمه الله تعالى وما صعق بعد أن طلب رؤية مولاه عز وجل يخوله أعلى درجات اليقين، فلم يكن له حاجة بعلم الحقيقة، لأنه رسول مبعوث إلى أمة بشريعة تصلح لها، أُمِرَ بتبليغها، شأنه في ذلك شأن جميع الرسل والأنبياء، ولم يؤمر بتبليغهم شيئا من الحقيقة، لأنها تخالف شريعتهم، ومن ذلك قتل الخضر للغلام، فقد فعله طاعة لله تعالى وامتثالا لأمره، وهو بفعله ذاك خرج عن شريعة موسى، بل خالف جميع الشرائع دون أن يعصي الله تعالى، ولو فعله وهو ملزم بشريعة موسى لاستحق القتل، ولو أنه كان غير آثم بقتله الغلام، وإنما لحفظ ظاهر الدين، وهذا ما لم يحتمله موسى واعترض عليه، وهو مما لا يجوز تبليغه على أنه شرع، حتى لا ينحو الناس نحوه، فيقتل بعضهم بعضا ويدعون أنهم أمروا بذلك

ولا يمكننا في هذه المقالة أن نتناول بالحديث قضية أفضلية هذا على ذاك، لأن موسى رسول الله تعالى وكليمه، ويستعصي علينا أن نفضل عليه سواه، اللهم إلا سيدنا محمد ﷺ خاتم الأنبياء ومكمل الدين وسيد ولد آدم أجمعين، أما الخضر فقد أضافه الله تعالى إليه، وسماه عبدا من عباده، ولا نعرف عنه غير ما أخبر به التنزيل،

ولذلك لا نجرؤ على تفضيله على موسى، وإنما نقر بعلو درجته، لأن علمه لَدُنِيٌّ يتلقاه من الباري عز وجل من غير واسطة، يتلقاه ويجري بمقتضاه، وهو متملص عن كل الشرائع ومخالف لها

ونرى أن الخضر عليه السلام، إذا بقي حيا إلى زمان بعثة رسول الله ﷺ، فلا شك يكون ملزما بشريعته، لأنه ﷺ أرسل إلى العالمين كافة، وسرى شرعه على العالمين الظاهر والباطن، بخلاف موسى عليه السلام وغيره من الأنبياء والمرسلين

وأما تسمية الظاهر بالملك والباطن بالملكوت، فلأن الظاهر ميدان الحكم، ولا بد للملك من رعية يتملكها ويتحكم فيها، ورعية المولى خلقه المكلفون وغير المكلفين، والتكليف لا يكون سوى في الظاهر، لذلك كان الظاهر ملكا يملكه الملك ويتحكم في مملكته ورعيته بالأمر والنهي

أما الملكوت فهو أوسع من ذلك، وزيادة مبناه تدل على زيادة معناه، وإذا كان عالم الملك معروفا بالأمانة والتكليف، فعالم الملكوت معروف بآيات الله تعالى التي لا تتاح رؤيتها لجميع المكلفين، وإنما لمن سبقت له من الله الحسنى

فمن أطلعه الله تعالى على ملكوته، فما فعل ذلك معه سوى ليقربه إليه ويزيده يقينا. قال سبحانه: "وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين". الأنعام76

والملكوت قسمان: الأول ما أخفاه الله تعالى في الباديات من عوالم لا يحتاج لمعرفتها العوام ضرورة لكي يقوموا بما يقتضيه منهم تحمل الأمانة، ومنه ملكوت السموات والأرض

والثاني ملكوت لا صلة له بالباديات مما ذرأ وبرأ مما لا تراه العيون كملكوت الكرسي والعرش

ولعل عالم الملكوت لا يدرك بالحواس نظرا وإصغاء ولمسا، وإنما يدرك بِالرَّوْعِ، وإن شئت: يدرك بالكلية، لأن كل مدرك بحاسة من الحواس يكون إدراكه جزئيا يشوبه التبعيض

ولا يمكن انفصال الْمُلْكِ عن الملكوت، كما لا يمكن انفصال الظاهر عن الباطن والشريعة عن الحقيقة، فكلاهما، أي الْمُلْكُ والملكوت، أقامه الباري عز وجل في كون الثقلين من أجل القيام بأعباء التكليف، ومن أجل التفكر في عظمته تعالى لمن أراد أن يتعرف عليه من عباده الصالحين؛ ومن نسب العماء إلى الملكوت فقد أوهم وضل ضلالا بعيدا، فإن العماء لا علاقة له بكون التكليف ولا طاقة للمكلفين بإدراكه، وإنما هو من خواصه تعالى، وهو من شأن الألوهية وخاصياتها، لا يَهُمُّ مخلوقاته بالمرة، فافهم

وأما تسمية اللّاهوت والناسوت، فاللاهوت نسبة إلى الله تعالى، والمراد عالم اللاهوتيات وملكوتها الذي لا يتسم بسمات الظاهر، واللاهوت أشمل من الملكوت، لأنه يعني كل ماله مُتَعَلَّقٌ بالله تعالى، حتى ما لا يمكن دركه، بل حتى ما لا يجوز التفكر فيه والتحدث عنه

أما الناسوت فَنِسْبَةً إلى الناس، وهو ما يشاهدون ويعرفون في عالمهم الصغير، لا يجاوزونه إلى سواه

وسمي الظاهر ناسوتا والباطن لاهوتا، لأن الظاهر خَصَّهُ سبحانه بالناس يتداولون فيه شؤونهم وأقضيتهم الدينية والدنيوية، ظاهرين بعقولهم وحواسهم وأعضائهم، وَيُهَيَّأ لهم فيه أنهم يختارون ويتحكمون في كثير مما يتداولون.

أما اللاهوت فلا اختيار فيه، وإنما يكون فيه الْمُكَلَّفُ مُسَيَّراً بالكلية، ولا مجال فيه للتكليف والأمر والنهي

وأما تسمية الظاهر بالشهادة والباطن بالغيب، فالشهادة من المشاهدة والشهود، لأن الظاهر يشاهده الناس بأنظارهم، وَيَشْهَدُونَ ما يُجْرِي فيه المولى من آيات وظواهر طبيعية.

أما الثاني فغيب، لأنهم لا يَدْرُونَ به ولا يدركونه بِمَلَكَاتِهِمْ التي فَطَرَهُمْ الله عليها مقصورة على الشهادة قاصرة عن إدراك الغيب، ويكون بدء كلامنا هنا على ماهية عالم الشهادة وأصل نشأته وتكوينه

فأما الماهية، فالكون حسب المتفلسفين، مادة مُرَكَّبَةٌ تتصل فيها العناصر الأربع وتنفصل لِتُكَوِّنَ عناصره، والمادة ما تدركه الحواس مما هو متجسد، فلا نختلف معهم في ذلك، ولكن نقول: تلك ماهية الشهادة حسب نظر الحوادث، وحسب ما تتصوره عقولهم وَيَتَهَيَّأُ لها، اعتمادا على ما عَهِدَتْهُ في شهادتها وَبَنَتْ بما عَهِدَتْ من قوانين تُؤَوِّلُ بها ما يحيط بها من مظاهر وانفعالات. وأهم قوانينها السببية، ولكن بتجردنا عن هذه القوانين الوضعية لا نرى ما رأوا، فما أطلقوا عليه اسم المادة في كوننا، ما هو إلا تَمَثُّلٌ لا حقيقة له إلا في أذهاننا، ودليل ذلك أن الرسل والأنبياء عليهم السلام خرقوا هذه القوانين بمعجزاتهم، بل إن من الأولياء من مشى على البحر، ومنهم من داوى المرض العضال الذي لا دواء له

فعالم الشهادة تَمَاثِيلُ تَتَمَثَّلُ لنا وصور تَتَهَيَّأُ لأذهاننا على أنها حقيقة بقدرة الخالق الوهاب، فمن المحال الذي لا يجوز في حقه تعالى أن ينشئ المادة كما ننشؤها، وهو قادر على أن يقول كن، فتتصور في تماثيل تغني عن إنشائها بطريقة الحوادث، ولذلك كان أساس خلقه الوهم والإيهام

فإن قلت: كيف تَدَّعِي أن المرئيات والمحسوسات وَهْمٌ، ونحن نراها ونحس بها وكأنها حقيقة؟

قلت: ليس كل ما تراه وتحسه موجودا حقيقة، ألا ترى أنك في منامك ترى أشياء وَتُحِسُّ بها وكأنها حقيقة وهي ليست كذلك؟ فأي العالمين يا ترى غيب وأيهما شهادة، منامك أم يقظتك؟

ألا يكفيك قوله تعالى: "يوم تبدل الارض غير الارض والسماوات". إبراهيم50 لتفهم أن ما هنالك إلا تبدل وتقمص بلا هدم ولا بناء؟

أما أصل عالم الشهادة فهو عندنا الماء، لقوله تعالى: "وجعلنا من الماء كل شيء حي". الأنبياء30

وروى ابن حبان وابن ماجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيّ ﷺ قال: "كلُّ شيء خُلقَ من الماء"، ولفظ ابن حبان أن أبا هريرة قال: قلت: يا رسول الله، إني إذا رأيتُك طابت نفسي وقرَّت عيني، فأنبئني عن كل شيء، قال: "إن اللهَ تعالى خلقَ كلّ شيء من الماء"، وفي لفظ: "كل شيء خلق من الماء"، وروى السديُّ بأسانيد متعددة عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال: "إن الله لم يخلق شيئا مما خلق قبل الماء".

فعن الماء انبثقت العناصر الثلاث الباقية، أعني النار والهواء والتراب، ومنها تكون الكون وتركبت المكونات

سؤال: قوله تعالى: "ما أشهدتهم خلق السماوات والارض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا". الكهف50

هل تدل هذه الاية بمفهومها الإشاري على أن هناك من أشهده الله تعالى سر خلقه وأطلعه على النشأة الأولى؟ وما المراد بقوله تعالى: ما أشهدتهم، أهو المشاهدة أم الشهود؟

والجواب: ينصرف سياق الآية الكريمة إلى التهوين من قدر المضلين، فإن الله لا يأبه لهم، ولا ينفعونه في شيء وهو الغني عن العالمين، حتى أنه سبحانه لم يشركهم في أمور خليقته ولم يطلعهم على سر نشأته، وليس من الضروري أن تدل الآية بإشارتها على أنه سبحانه أطلع غيرهم على ما أخفاه عنهم، ولكن يبقى احتمال ذلك واردا كما يقتضيه السياق، فإن الخلق والتكوين من مُغَيَّبَاتِ الله تعالى التي يمكن أن يُطْلِعَ عليها من يشاء من عباده

أما المقصود بقوله تعالى: ما أشهدتهم، فالشهود، لأنه أبلغ وأنجع من الشهادة، ولقوله تعالى بعدها: وما كنت متخذ المضلين عضدا. والمراد: ما أشهدتهم خلق السموات والارض شاهدين حاضرين بأسماعهم وأبصارهم لأنني غني عنهم

وبما أننا خلصنا في كلامنا عن عالم الشهادة إلى عالم الغيب نقول وبالله التوفيق لا إله سواه:

الغيب نوعان: غيب أصغر وغيب أكبر

فأما الغيب الأصغر، فما تعلق بالكون مما خفي عن الأنظار رغم وجوده في كوننا الذي نحن فيه، لا يجاوز سماءه وأراضيه الدنيا

ومنه عالم الجن وأرضه وما سواها من الأراضي غير أرضنا التي خلقها الباري عز وجل في واحدة. قال سبحانه: "الله الذي خلق سبع سموات ومن الأَرض مثلهن". الطلاق12

أما الغيب الأكبر، فما كان خلاف ذلك مما أخفاه سبحانه في السماوات من ملائكة ورسل وأنبياء ومما يتعلق بالكرسي والعرش والجنة والنار

والغيب الأكبر نوعان: غيب استأثر الله تعالى بعلمه، وغيب أطلع عليه بعض خلقه

فأما الذي استأثر بعلمه، فالروح وأجل الساعة. قال تعالى: "ويسالونك عن الروح، قل الروح من امر ربي وما اوتيتم من العلم الا قليلا". الإسراء85

وقال سبحانه: "إليه يرد علم الساعة". فصلت46

وأما الذي أطلع بعض خلقه عليه، فغير ذلك مما سواه لقوله تعالى: "عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا". الجن27

وقال غيرنا: قال الله تعالى: "وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو". الأنعام60

المراد بمفاتح الغيب ما اختص الله تعالى بعلمه، ولم يظهر عليه أحدا من خلقه، وهذه المفاتيح ذكرها الله سبحانه في قوله: "إن الله عنده علم الساعة، وينزل الغيث، ويعلم ما في الارحام، وما تدري نفس ماذا تكسب غدا، وما تدري نفس بأي أرض تموت، إن الله عليم خبير". لقمان33

قالوا: هذه الغيوب الخمس لا يعلمها إلا الله تعالى، أما غيرها فيمكن أن يظهر عليه من يشاء من عباده. انتهى ما قالوه

قلت: أما علم الساعة، فقد تقدم لدينا ضمن ما استأثر الله تعالى بعلمه، وأما ما سواه من الغيوب الواردة في الآية فليس منه، بل هو مما يمكن لله تعالى أن يطلع عليه بعض خلقه

ولا نرى أن الآية الثانية تفصل ما أجمل في الأولى فإن الله تعالى قال في الأولى: وعنده مفاتح الغيب، ومفاتح الغيب كما يدل عليه ظاهر المبنى أسرار معرفة الغيب، لأن مفتاح كل شيء ما يفتح بابه ويجعل الولوج إليه ممكنا

فإن قلت: وهل يمكن أن نَعُدَّ مفاتح الغيب فيما لا يعلمه غَيْرُهُ تعالى؟

قلت: ليس في سياق الآية ما يدل على ذلك، بل يبقى احتمال اطلاعه سبحانه عليها سواه من خلقه واردا لا يدفعه دافع

وقد حاول كثير ممن قبلنا بما ألهمهم الله تعالى من علم وحكمة، أن يسبروا طرق استخراج أخبار الغيب، فاعتمدوا على خط الرمل الذين نسبه بعضهم إلى سيدنا إدريس عليه السلام، ونسبه بعضهم إلى سيدنا دانيال عليه السلام، على خلاف بينهم، واعتمدوا على الجفر والزيارج، متخذين حروف المعجم أساسا لتراكيبهم فيها، يخضعونها لمراتب حسب رتبها في الأبتثي والأبجدي والأهطمي، ومراحل تتبدل فيها من حرف إلى حرف، انطلاقا من أحرف السؤال حتى تنتهي بأحرف الجواب. واعتمدوا كذلك على علم الفلك، فرصدوا بروج الشمس والقمر ومنازلهما وأولوا تقابل الأجرام وتوادها وعداوتها وتثليثها وتسديسها، وما إلى ذلك مما يعرفه أصحاب هذا الشأن.

ولا يمكننا أن ندعي بأنهم بذلك قد عرفوا مفاتح الغيب أو أخطأوها، بل العلم لله الواحد الأحد. قال سبحانه: "وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين". يوسف81

سؤال: ثمة أناس ينطقون بِالْمُغَيَّبَاتِ، فهل هم بذلك مُحَدَّثُونَ، أم يدخلون في سلك الكهنة والعرافين، أم أن الجن تخبرهم به؟

قلت: ورد في الأثر أن الكهنة والعرافين كانت تأتيهم الشياطين بخبر السماء فيزيدون فيه ما ليس منه ويخبرونه أولياءهم من الإنس، إلى أن بُعِثَ رسول الله ﷺ، ورجمت الشياطين وَحِيلَ بينها وبين استراق السمع، فلم تعد الشياطين تأتي بشيء

إلا أننا حتى في زماننا هذا، نجد من ينطق بالغيب، وكثيرا ما يصيب فيما قاله أو تنبأ به، فأنى يكون له ذلك بعد ما أسلفنا من انقطاع خبر السماء على من يتخطفونه ويلقونه إلى أوليائهم في الأرض؟

والسر في ذلك أن الله تعالى خَصَّ الإنسان عن غيره من المخلوقات بما نفخ فيه من روحه، والروح أثر من الله تعالى علام الغيوب، ولذلك تَحْمِلُ سِرَّ الألوهية، وتنكشف على بعض الْمُغَيَّبَاتِ، وسيأتي تفصيل الكلام عن الروح في مبحث الروح والنفس إن شاء الله تعالى فيما يستقبل من كلام

ودليل ما قلناه من أن الروح تنكشف على بعض المغيبات، أن المرء قد يرى في منامه أمرا قبل حدوثه ثم يكون كما رآه

وكثير من الناس يرون مشاهد وأشخاصا، أو يتصرفون تصرفات مختلفة في يقظتهم، فيهيأ لهم وكأن ذلك مَرَّ بهم مِنْ قبل، ولكن لا يستطيعون أن يستحضروه

والسر في ذلك أن المرء وهو نائم يتجرد عن عقله، فَيُتَاحُ المجال للروح تكشف له عن بعض المغيبات، أما في يقظته فيكون مُلْزَماً في أفكاره وتصرفاته بعقله، فَيَعْقِلُهُ العقل وَيَحُولُ بينه وبين معرفة الغيب

وقد وهب الله تعالى بعض الناس، رجالا ونساء وولدانا، اتسموا بصفاء نفوسهم، وهبهم كرامة النطق ببعض المغيبات، بل إن الجن لما يستعمر بدن الإنسان ويمتزج بنفسه ينطق عنه بهذه المغيبات، فيظن السامع أنها عن الجن وهي ليست كذلك

وأما تسمية عالم الأسباب وعالم المعجزات والكرامات

فالأول عالم الأسباب، لأن كل شيء فيه يقوم على السبب، وتلك سِمَةُ الظاهر كما تقدم ذكره، ومن شدة ترقي الإنسان في علومه، صار يخترع أشياء قائمة على الأسباب يظنها من لا يعرف بها كرامات وخوارق عادات، ومنه أن ترى وتسمع وأنت في غرفتك ما يقع في الْقُطْرِ البعيد، وأن تعلم بموعد هطول المطر ووقت كسوف الشمس وخسوف القمر

هكذا قامت جميع العلوم الوضعية على الأسباب من رياضيات وهندسة وفيزياء وكيمياء وغيرها

إلا أن علماء الأسباب، أَعْيَتْهُمْ أمور لم يعثروا لها على سبب، ومنها أمور الرؤى وما يُلْقَى فيها من غيب، ووَحْمُ الحامل وغيره

ولكن مع كل هذا، أرجع هؤلاء العلماء عجزهم عن تفسير ما خفي عنهم تفسيره إلى قصور علمهم، ولم ينسبوا علمه إلى الرحمن الرحيم

قال تعالى: "يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون". الروم6

ولعل هذا الإنكار، إنكارهم كل ما لا يعتمد على الأسباب، وَصَمَ علومهم بالعجز والقصور، فالأطباء منهم لا يعتمدون في مداواتهم للعلل سوى على السببية ولا يؤمنون بغيرها، ولو أنهم نهجوا نهج القدامى في مراعاتهم للروحانيات في أدويتهم وأمراضهم، لكان طبهم أنجع بكثير مما هو عليه اليوم

أليس الأطباء القدامى يعتقدون أن ثمة أعشاب لا تنفع للدواء سوى إن قلعت في وقت معين من السنة بشروط معينة، كأن تقلع باليد وليس بما هو معدني، أو تقلع بمدية من فضة وهكذا

وإن خولف وقت قلعها وشروطه لم تنفع في شيء

كما كانوا يعتقدون أن الطبيب مهما كان ملتزما بالعفة وأخلاق الإيمان، ومهما أخلص نيته في تَطْبِيبِهِ كان دواؤه نافعا

فلا عجب إذا حَارَ أطباء اليوم في كثير من الأمراض التي التبست عليهم، فلم يعرفوا لها سببا، ولم يعثروا لها على دواء، ككثير من أمراض الصرع والشلل، وما يصيب الصبيان مما يسمى عندنا في المغرب بالصرة، وما إلى ذلك

وقد خص سبحانه الأنبياء والمرسلين بالمعجزات، وبقيت الكرامات للأولياء من صالحي الأمة

وأصل المعجزة والكرامة خرق العادة، وإن شئت تصرف يخالف الأسباب ولا يعتمد عليها، وقد يأتي خرق العادة عن غير المسلم المتدين، كأن يأتي عن ساحر أو كاهن أو حبر أو راهب أو بوذي

وبهذا لا يكون خرق العادة مقتصرا على الموحدين الحنفاء دون غيرهم

وإن سألت عن السر في ذلك، فالجواب: ما خص الله تعالى بني آدم مِنْ قِوَى باطنية لا يعرفها سوى القليل، سيأتي الكلام عنها في موضعه إن شاء الله تعالى

وقد نسبنا المعجزات والكرامات إلى الغيب لأنها تبهر الظاهر وتخالف شرعه ولا يجد لها تفسيرا، ولا يؤمن بالمعجزات والكرامات سوى من يؤمن بالغيب

وأما تسمية الواقع والخيال، فقد تعارف الناس على تسمية عالم الشهادة بالواقع، بل أطلقوا الواقعي على كل ما هو منطقي لا خرافة فيه، وإن شئت: الواقع عندهم الحاضر المرئي من لدن الجميع، ليس بادعاء ولا تخمين وافتراض

أما الخيال فالغائب الذي لم يثبت وجوده وصحته عندهم، ومنه الأحلام والرؤى والحكايا والأحاديث غير الواقعية.

ولعل مَلَكَةَ التَّخَيُّلِ عند الإنسان لا تتخيل غير الصحيح فحسب، فيمكن أن تتخيل ما هو صحيح، لأن المخيلة تعني في الاصطلاح: مَلَكَةَ تَصَوُّرٍ وَتَلَقٍّ لكل المعارف والمشاهد غير الواقعية، ومهما رَقَّ الواقع وتَرَكَّبَ، رَقَّتِ الْمُخَيِّلَةُ وتَرَكَّبَتْ، فالواقع هو الذي يصور ما يتراءى في الخيال، هو أحرفه التي يكتب بها، بمعنى أن الواقع بمثابة الأحرف التي يجسد بها الخيال معنى ما يعبر عنه، بل هو ألوانه التي يرسم بها، فكل يتخيل حسب واقعه، أي مهما تعددت مشاهد المرء وتنوعت معارفه كان خياله أوسع

وهذا ما سميناه بالأفق، فعلى حسب آفاق الناس يكون خيالهم، فلو افترضنا أن رجلا لم يسبق له أن رأى البحر في حياته، وإنما سمع به وببعض أوصافه، فإنه إن رآه في منامه لا يراه كما هو في حقيقته، وإنما يتجلى له حسب ما سمعه عنه

وما قلناه في هذا الرجل نقوله في كثير من العارفين الذين رأوا في رؤاهم أشياء تتعلق بالدين كما قرؤوا عنها وسمعوا بها، لم يخرجوا عن ذلك قيد أنملة

ومهما تجرد المرء وتنصل عن واقعه كان ما يراه أقرب إلى الحقيقة، وإلا فمهما تجرد لا يستطيع أن يتجرد بالكلية، ولو كان له ذلك لما رأى شيئا بالمرة

وأما تسمية المبنى والمعنى، فيوحي بالنظر إلى معناه بالترابط والالتصاق، فلا مبنى بغير معنى، ولا معنى بغير مبنى، والمبنى جمع مبان، وفيه صفة التجسيد، فكل ما أنشأه الله في الكون يدخل في معناه، ومبنى الشيء لا يتعدد، فإن الشجرة لا تكون إلا شجرة، ولكن معنى المبنى يتعدد حسب استعداد المشاهد وحسب ما يتعلق بالمبنى نفسه، فمن رأى الضباب صباحا فَهِمَ منه صعوبة السير والمشاهدة في الطريق، وتوخى الحذر في السير حتى لا يصطدم بغيره، وقد يفهم غيره من الضباب أنه إعلام بأن اليوم سيكون شديد الحر، وقس على ذلك

ومن رأى هلال العيد في السماء من غير المسلمين أنبأه ذلك باستهلال شهر جديد، ومن رآه من المسلمين أنبأه بحلول يوم العيد، وهكذا

ومن هنا كان معنى المبنى متعددا حسب هيأته وما يرمز إليه ويوحي به، وحسب الناس ومعتقداتهم وأعرافهم ومعارفهم

وقد أطلق الناس أَسَامِيَ على كل ما يتراءى لهم من مبان، كل حسب لهجته منذ الزمن الأول، كما يطلق الصبي أسامي على أشياء لا يعي أسماءها بعد، يخترعها من نفسه حسب ما ترمز إليه في خاطره الساذج

إلا أن ما أطلقه الناس على هذه المباني، يعبر بشكل واضح بلفظه المنطوق على ذلك المبنى دون غيره، فتسميتهم الشجرة شجرة، فيه معنى الثبات والجمود، إذ توالت فيه الحركات فثبت نطقه وَقَرَّ، ثبوت الشجرة وقرارها

وأطلقوا لفظ السماء على السماء، وفي اللفظ يتجلى العلو غير المتناهي بامتداد الألف ووقوفها على الهمز في آخره.

وقد دأب كثير من مشايخ المتصوفة على نَهْيِ مريديهم عن التفقه في الدين، والاشتغال بعلوم العقائد والشريعة، اللهم إلا الضروري من الدين الذي يحتاجونه في عبادتهم، ورأوا في الاشتغال بهذه العلوم اشتغالا بالأواني عن المعاني، في حين نرى أن المرء كلما تفقه في الدين اتسع أُفُقُهُ، فترامت آفاق معرفته وزاد تقربه إلى مولاه عز وجل، وفي الأثر مرفوعا: "من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين". رواه البخاري

وقد نزل القرآن الكريم مبنى ومعنى، إلا أن مبناه يحمل أكثر من مفهوم المعنى الذي تعورف عليه في غيره من كلام، فإن القرآن الكريم، وأنت تتلوه ولو لم تفهم معناه، فهو يخاطب فيك روعك ويوحي إلى نفسك بما لا يسعه لفظ ولا يحتويه، من ألطاف نورانية وعنايات قدسية تزيدك يقينا واطمئنانا وسكينة. ولما سمع الوليد آخر سورة السجدة

من رسول الله ﷺ، وهو مشرك قال: والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لَمُثْمِرٌ وإن أسفله لَمُغْدِقٌ وإنه يعلو وما يُعْلَى. انتهى[3]

إن إعجاز القرآن، لا يكمن في بلاغة لفظه وروعة معناه، بقدر ما يكمن في شدة وطئه وقوة تأثيره، لأنه كلام الله تعالى الذي يستجيب له الوجود وتتفاعل له الموجودات. قال تعالى: "ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الارض أو كلم به الموتى، بل لله الامر جميعا". الرعد32

وأما تسمية العبارة والإشارة، فهو من قبيل تسمية المبنى والمعنى، إلا أن لفظ الإشارة أبلغ في التعبير وأدق من لفظ المعنى، فنقول: هذه الآية تدل بعبارتها على كذا، وتدل بإشارتها على كذا وكذا

فقوله تعالى: "إنما يخشى اللهَ من عباده العُلَمَاءُ". فاطر28 يدل معناه الذي ينصرف إلى الأذهان على أن العلماء هم الذين يخشون الله تعالى دون غيرهم، ولكن يدل بإشارته على أن العالم هو الذي يخشى الله تعالى، ومن لا يخشاه مهما بلغ علمه لا يسمى عالما

وقوله تعالى: "فما بكت عليهم السماء والارض وما كانوا منظرين". الدخان28

يدل بمعناه على أن السماء والأرض لَا تَحْفَلَانِ لشأن الكافرين ولا تبكيان عليهم إذا ما تُوُفُّوا، ويدل بإشارته على أن السماء والأرض تعرفان المؤمن من غير المؤمن، وتفرحان للمؤمنين وتَأْسَيَانِ إذا ما أصابهم مكروه

وأما تسمية العقل والروح، فالعقل عالم الظاهر، لأن وسيلة التفاعل مع الظاهرات العقل لا غير، ولعل العقل ليس هو الذي يتحكم في الظاهر، بل الظاهر هو الذي يتحكم في العقل، فكل قوانين العقل تعلمها العاقل من ظاهره، فَأَوَّلَ كُلَّ ما يجري حوله من ظواهر وأحداث اعتمادا على تلك القوانين، أي أول الظاهر بالظاهر، وبذلك يكون العقل صنيعة الظاهر. ولو أن العقل ينعكس بما عَلَّمَهُ الظاهر عليه فيؤثر فيه ويُغَيِّرُ بعض مظاهره وجزئياته

أما الروح، فهي عالم الباطن الذي يتسم بسماتها من خفاء وخفة ولطافة، فهو، أي الباطن، لا يخضع لقوانين الظاهر، وإنما يحس ويوجد بالروح، ولولا الروح نفخها الباري عز وجل من روحه في بني آدم ما استشعروا الخشوع وما ترقوا أعلى درجات القربى، وما فُتِحَ عليهم ما فُتِحَ من ميادين الغيب والكرامة

وأما تسمية النطق والإفضاء، فالنطق إقرار باللسان، والإفضاء إسرار بِالْجَنَانِ، والنطق يكون بما تَفُهَ من كلام لمن تَعْرِف ومَنْ لا تَعْرِفُ، والإفضاء يكون بما رَقَّ وخَفِيَ من أسرار للمقربين والخاصة والأحباب

فالباري عز وجل، نطق بعظمته بلسان ظاهر الموجودات للناس جميعا، كافرهم ومؤمنهم، وأفضى بهمس عجائب باطنه لأحبابه، بما لا يطيقه عقل ولا يحتمله جَنَانٌ على حسب الإمكان

ولذلك كان الباطن أعز وأشرف من الظاهر، إذ الأول للخواص والخاصة والثاني للعوام والعامة

---

[3] تفسير البغوي

وأما تسمية الخارج والداخل، فلأن الظاهر خارج إلى الوجود يراه الموجود، والثاني داخل عن الوجود بكل ما هو غير موجود، بل في عداد المفقود

وأما تسمية الْمُذَاعِ والمكنون، فلأن الأول ذاع وانتشر عند الخاص والعام ولم يعد يخفى على أحد، والثاني اكْتَنَّ واستتر لا يهتدي إليه سوى من هداه الحكيم الْعَلَّامُ

ولعل المكنون في عرف الناس أغلى من المذاع، فتقول: لؤلؤ مكنون، ولا تقول: تراب مكنون

قلت بعد هذا: ومن حكمة الله تعالى في كونه أنه قرب التَّوَافِهَ إلى الناس، وأبعد كل ما هو غال نفيس عنهم.

وقد يكون البعد والقرب بالجهد والمشقة، فأخفى الدُّرَّ في قَعْرِ البحر، وأَوْدَعَ الكنوز والذخائر في خبايا الأرض، وفرش الأرض بالْخَشَاشِ مِمَّا تأكله البهائم، وجعل حاجة الناس في الزرع الذي لا ينبت سنبله سوى بالحرث والحصاد والدرس، وهكذا

ولو شاء غير ذلك لرزقهم كل ماتنبت الأرض وجعل حاجتهم في الخشاش والرمل والتراب

وبهذا تفترق حياتنا الدنيا التي هي دار ضَنَكٍ ومشقة عن حياة الْجِنَانِ التي لا تَعَبَ فيها ولا نَصَبَ

ولما بطن القدير في الظواهر بمظاهر وجوده وقدرته، وأضفى عليها زينة الحياة وشابها بالتآكل والفناء، ظهر في البواطن بمظاهر بقائه وقيوميته، وأعزها بما لا ينتهي من حكمه وألطافه

فهو الظاهر لا يظهر معه غيره مهما ظهر، وهو الباطن لا يَبْطُنُ ضِمْنَهُ سواه مَهْمَا بَطَنَ، قد احتوى الحوادث فلا هروب لها عن احتوائه، وطوى الغيوب فلا ذيوع لها عن انطوائه. خفي في الظواهر في كل ما هو ظاهر، وتَجَلَّى في البواطن في كل ما هو باطن، فهو سبحانه بتخفيه في الأولى يبدي حسن صنعته، وهو سبحانه بتجليه في الثانية يخفي سِرَّ تدبيره ووضعه

لكن رغم اختفائه في الظواهر حَجَبَتْكَ عنه المظاهر، ورغم تجليه في البواطن أَخْفَتْكَ عنه البوادر

ما ظهر وبطن سوى ليعلمك بوحدته وغناه عن غيره، فلوكان ظاهرا وحسب لأعجزه البطنان، ولو كان باطنا وحسب لأعياه الإعلان. ولم يُظْهِرْكَ ولم يُبْطِنْكَ حتى تتلقى عنه الأوامر والنواهي، وحتى تجد منه نفحات السرائر من اللامتناهي. فهو بك رؤوف رحيم، بما هيأك للعالمين وأقامك للأمرين وهداك النَّجْدَيْنِ، فلا خوف من اختلاط الْوَجْهَيْنِ وتداخل الْوِجْهَتَيْنِ على السالك، ولا مجال لاتحاد الْقِبْلَتَيْنِ ما دام هو المالك، ومن ادعى غير ما ذكرنا في الثقلين فهو هالك

وإذا أَطْلَعَكَ شَاهِداً في الشهود، فما أراد سوى أن يُشْهِدَكَ، وما أخفاك عن الوجود سوى كي يُوجِدَكَ يُحْيِيكَ تَارَةً إذ لا زال فيك من الحياة بقية حتى لا تزول، ويميتك تارة ما تَهَيَّأَ لك الموت نهاية حتى تَؤُولَ. فأنت الحي الميت وهو المحيي المميت، ولو فهمت عنه ما يُحْيِي وَيُمِيتُ لما كنت من الأحياء ولما كنت من الموتى، هؤلاء وأولئك لا يدرون بأن بين الحياة والموت يقوم الشهداء يشهدون على بقائه

وأنت به شَمْسُ الظاهر تزيده نورا وضياء، وأنت علة ظهوره وغاية صدوره، وروعة الباطن تَغْمُرُ بُطُونَهُ بالاندهاش، وَتُقَدِّرُ شؤونه وتقول: أعلم أن الله على كل شيء قدير

قدير قدرته قامت على التدبير، كل شيء عنده بمقدار، اليسير والعسير، الليل والنهار، والشمس والقمر، كل بحسبان يسير، حسب ما سطره الواحد القهار في اللوح المحفوظ في سطور، من غير لفظ ولا تعبير، يوم يأتي لا إمهال ولا إنظار، إِنَّمَا يُمْضِيهِ مَنْ لا يستخير ولا يستشير، وإنما يُسْتَخَارُ وَيُسْتَشَارُ، ومن سواه الواحد القهار؟

ومن حكمته تعالى أن أذن لمعالم الباطن كي تَعْلَقَ في عوالم الظاهر، يَعْقِلُهَا مَنْ عَقَلَ بعض الْعَلَائِقِ، وأدرك ما توحي به النِّسَبُ إذا انتسبت لضدها، وما تنطق به الأمارات متى خَجِلَتْ لحاجة في نفس يعقوب، من أن تفضح آمريها

وَيَعِيهَا من عرف نفسه لا كما سَوَّلَتْ له معاني الانفراد، وأغوته بمفاهيم الْحِيَادِ، فلم يَأْبَهْ لِتَسْوِيلِهَا ولم يلتفت لإغوائها، واستقل بواضحة السداد، يلتئم على ما أخفى فيه مِنْ تَضَارُبٍ، وَيَتَّسِمُ بما شاء له من مآرب، حتى إذا تناهى صدوره عن التَّرَدُّدَاتِ، وتباهى ظهوره على الذات، حقيقة ليس الْتِبَاساً وَاشْتِبَاهاً في الْجَنَانِ لِمَا فات، صَاحَبَ مَا رَكَّبَهُ في الهيئات رَبُّهُ تَرَاكِيبَ تَرَاكِيبَ، لا تلتئم على شان، ولا تستقيم لأي إنسان، بل تُقْرَأُ بألسنة المواهب، إذا أَذِنَ الكاتب، وتَسِيحُ فِي أَرْوِقَةِ النِّسْيَانِ إذا ذَكَرَهَا مَنْ نَسِيَهَا قَبْلَ الأوان

كما أَعْوَزَ الباطنُ الظَّاهِرَ بِمَا تَحَجَّبَ عنه وَادَّثَرَ، فهو لا يفتأ يبحث عنه متى نطق أو نظر، لا يَعْيَى مِنْ تَفَقُّدِهِ، ولا يَعْيَى مِنْ تَحَجُّبِهِ وَادِّثَارِهِ، وهو، أي الظاهر، لو كف عن الطِّلَابِ، أرغمته الأسباب، ولو استطاع غيبة لغاب وانضوى تحت الحجاب، ولكن أوقفه الحكيم الوهاب، وقال: لا تَكْتَفِ بنفسك وأنت ظاهر، حتى لا تَغْمِطَ شِقَّكَ وَتُغَادِرَ، فإنك إن كنت له طالبا، فما كان عن طِلَابِكَ غائبا، وإن كنت له لائما، فما كان عن لومك ساهما، هكذا أنت، فلا تستغرق في الاستقلال، فإن انفصالك عنه من الْمُحَالِ، ولكن اجتهد في التواصل والوصال، ولا تَأْبَهْ لِمَا يقال، أليس الباطن بغير ظهورك في امِّحَاءٍ، كالليل بغير نهار، لَا تُدْرَكُ عَتَمَتُهُ فِي الْعِشَاءِ، ولا تنتاب سامره الأماني إلى النور والأضواء. فالظاهر أيها الباطن عُنْوَانُكَ، وهو حجابك وأمانك، فكيف يكون حالك بغير عنوان، وأنى لك إن افتضح أمرك بالسكينة والأمان؟

والظاهر ظلك في العالمين، وفضلك على الخلق أجمعين، والحوادث والْمُحْدَثِينَ، وهو الذي رفع شانك وأقامك طِلَابَ الطَّالِبِينَ، طلبوك حتى عَزَّ مَطْلَبُكَ، وهو الذي أجرى لسانك وَحَيَّرَ السامعين، سمعوك حتى أدركوا مغزاك ومَشْرَبَكَ

فَإِنْ كُنْتُ قُلْتُ: كُنْ، لِتَكُونَا، فما قلتها إلا مرة واحدة، فَكَأَنَّ أنتما الإثنان في واحد، ولو تعددت وتباينت المشاهد، فمن ظهر ظهر بي في الناس وظهرت به بغير التباس، ومن بطن بطن بي في الخفايا، وبطنت به في أرواع البرايا، فأنتما سر خليقتي الذي أقمته على التَّرَدُّدِ وَالْمُسَاجَلَةِ، وَأَجْرَيْتُهُ في سياق التَّوَدُّدِ بالمخالفة والمماثلة، ولو

قَدَّرْتُ بينكما مجرى الفصل، سَرَى في طباعكما نقصان الفضل، ولكن حكمت بينكما بالملازمة من غير تَعَدٍّ وَلَا خَطْلٍ

فمن عرف ما بينكما من انسجام وتوافق، أتاني راضيا هُوَيْنَى لا يتسابق، وأطلعته على سر المتخالف والمشتبه والمتناسق، فأضحى يموج بِالْبِعَادِ، وَيُجَبِّذُ الْقُعَادَ، لا يُعَاشَرُ وَلَا يُرَافَقُ، وعرف أن مولاه معه لا يَقْلِيهِ ولا ينساه، فإن قَلَاهُ فَفِي الْقِلَى ذِكْرَاهُ، وإن ذكره ففي الذكرى قلاه، فما عاد يفرح للوصال متى وصل، وماعاد ييتئس لِلْفِصَالِ متى فُصِلَ، وإنما يئس من التفاعل والانفعال، وبقي كما هو لا يتفاعل ولا ينفعل

وَمَنْ صَدَّقَ الظاهر في ظهوره، تمادى في عُجْبِهِ وَظُهُورِهِ، وظن نفسه أحاط بكل أموره، وهو لا يدري أن الظاهر غَرَّةُ صُدُورِهُ؛ فإن لم أَرْحَمْهُ تركته يُصَدِّقُ الكواذب، ولم أجعل عليه من لائم ولا عاتب، وإن رحمته كَوَيْتُهُ بما يظنه بَرَداً، وأفرحته بما يحسبه كَمَداً، حتى يَحَارَ في أمره ولا يجد لنفسه رَشَداً، فإن فَطِنَ تعاطى لأهل الذكر يهدونه السبيل، وَيُلَقِّنُونَهُ أحوال التبديل، وإن لم يفطن أَغْرَقَ في التَّمَثُّلِ والتماثيل، فأنسيناه نفسه بما تَذَكَّرَ من شرائع التنزيل

فصل في خفاء الظاهر مَتَى أَمْعَنَ فِي الظُّهُورِ، وَإِمْعَانِ الباطن في انْتِهَاكِ السُّفُورِ

اِعلم رحمك الله تعالى أن الظاهر إذا اشتد ظهوره اختفى عن الأنظار، ولم يعد يدرك في هذه الدار، ولذلك قالوا في مخاطبة العزيز الشكور: يا من ليس خفاه إلا شدة الظهور. فَمِنْ شِدَّةِ ما ظهر المولى على الحوادث برعايته وعنايته، وظهر فيها بعظمته وحسن إبداعه، اختفى عن أعين الناظرين، لأن أذهانهم فطرت على رؤية الحوادث بما هو حادث، وَقَصُرَتْ عن إدراك الْمُحْدِثِ، وحتى إن حاولت رؤيته فيها، فيكون ذلك بالنظر، وهي لا تعي أنه تعالى لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو السميع العليم. ولو حَاوَلَتْ بِتَجَرُّدِهَا عن فطرتها، لأدركت كيف تدركه.

سأل دعلب اليماني عليا بن أبي طالب كرم الله وجهه، قال: هل رأيت ربك يا أمير المؤمنين؟ فقال: أفأعبد ما لا أرى؟ فقال: وكيف تراه؟ قال: لا تدركه العيون بمشاهدة الْعَيَانِ، ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان. انتهى[4]

فإن ادعيت أنك لا تراه، فقد زعمت احتجابه بالحوادث، والله تعالى لا يحجبه شيء، فمن المحال أن يحجب الْحَادِثُ مُحْدِثَ الْحَوَادِثِ. وإنما ضللت سبيل رؤيته، واقتصرت على رؤية ما جُبِلْتَ على رؤيته

فإن قلت: فما بال موسى عليه السلام طلب رؤيته، ولم يقو عليها، ولو كان لرؤيته تعالى سبيل غير ما جُبِلْنَا عليه، لأطلعه الباري عز وجل عليه وهو رسوله وكليمه؟

قلت: قال موسى عليه السلام: أرني أنظر إليك، وفيه طلب رؤيته بالنظر، والله تعالى لا يسعه النظر ولا يدركه البصر، فسايره في طلبه وقال: انظر إلى الجبل. فتجلى للجبل تجليه للأنظار، فاندك الجبل وانهار، فصعق موسى من اندكاكه وانهياره. ولو تجلى سبحانه لموسى تجليه للأنظار، لصعق صعقة الموت. وقوله تعالى: فتجلى ربك للجبل. يحمل معنى التجلي وليس الظهور، والتجلي أخف من الظهور، وكأن الأول استعداد للثاني، فإذا اكتفى ربك بالتجلي فاندك الجبل، فما بالك لو ظهر، إذن لاندكت الأرض والسماوات وما فيهن

وقد تقول: إذا كان الله تعالى غير محجوب يُرَى بما هو أبلغ من النظر، بعد التجرد من ستائر الْجِبِلَّةِ وأوهام الكسب، فكيف لا يفهم ذلك موسى عليه السلام ويراه به، دون أن يطلب رؤيته بالنظر كَعَوَامِّ الناس؟

أقول: بالنظر إلى ذريعة موسى عليه السلام في طلب رؤية الله عز وجل، وهي طمأنة قلبه، فقد لبى الباري سبحانه طلبه، وزاد قلبه اطمئنانا إلى اطمئنانه، مما رأى من اندكاك الجبل. ولو تذرع عليه السلام في طلب رؤيته بالرغبة في مناجاته والشوق للتملي في طلعته البهية، لا كما تراه العين، لكان له ذلك بأبلغ من ذلك

فهذا رسول الله ﷺ رأى الله وكلمه كفاحا ليلة الإسراء والمعراج، لأنه لم يطلب رؤيته ليزداد اطمئنانا، وإنما أكرمه الله به من عنده، فلم يصعق ولم ينخلع قلبه هيبة وفزعا

---

[4] نهج البلاغة

كما أن الله تعالى أرسل موسى عليه السلام بشريعته إلى اليهود، فكان مُتَشَرِّعاً، لأن التشرع يلائم مُهِمَّةَ التبليغ ويواتيها؛ رغم أن موسى من شدة قرباه من مولاه كان فُضُولِياًّ، يطلب الكثير مما لا يجرؤ غيره من الأنبياء والمرسلين على طلبه

فقد سأل عَمَّنْ هو أعلم منه، فبعثه الله تعالى إلى عبد الله الخضر عليه السلام، واستأذنه في التتلمذ عليه، فما لبث أن اعترض عليه ورجع عنه؛ وسأل رؤية الله تعالى فجاراه سبحانه فيما طلب من أمر عظيم، حتى شعر بضعفه وأيقن بعجزه عن رؤيته؛ يفعل ذلك معه لشدة محبته له، ولو كان غيره لنهاه عن سؤال ما لا طاقة له به فانتهى ورجع

ولو فتح سبحانه لموسى باب الرؤية وأغرقه في المناجاة، لَأَثَّرَ ذلك على كلامه في تبليغ شريعة اليهود الذين لا حاجة لهم بتلك الحقائق اللدنية

إن الله تعالى لما ظهر في الأشياء، اقتضى ظهوره فيها إمكان النظر، فكان الناظرون صنفان:

الأول وهو الأغلب، يجتلي بنظره إليها، أي الأشياء، صفاته تعالى من وحدانية وحكمة وحسن تدبير

وأما الثاني: فلا ينظر إلى الأشياء مُمْعِناً ليرى ربه فيها، ولكن، سواء نظر أو طرف، لا يغيب عنه الباري تعالى طرفة عين، لأنه ظهر له كما شاء من حيث لا يؤذيه بما يحتمل ويطيق، يراه بِرَوْعِهِ، ولا يحيط به، يراه أشد مما يرى الرائي بعينيه من مرئيات ومشاهد عارضة

وقولنا في الظاهر أنه يختفي متى أمعن في الظهور، فهو من باب انقلاب الشيء إلى ضده إذا زاد عن حده وهي قاعدة لزم الباري سبحانه بها الموجودات، فجعل حر الشمس سببا للحياة، ولكن إذا زاد عن حده أهلك الناس، والمطر كذلك إذا زاد عن حده أغرقهم، وهكذا

إلا أن مُخَالِفَ الحوادث، لا يَتَقَيَّدُ بقواعدها ولا يخضع لناموسها، فإذا زاد ظهوره عن حده لم يهلك أحدا، وإنما اختفى عمن يريد أن ينظر إليه بعينيه، حتى يوقن أنه تعالى ليس من الحوادث، إذ لم تُسْعِفْهُ رؤيته بما أسعفه رؤية غيره. ودليل ذلك أن الله تعالى يظهر لأهل الجنان في الجنان يرونه كما يرون البدر التِّمَّ لا يُضَامُونَ في رؤيته. قال تعالى: "وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة". القيامة21-22 وسر ذلك كما أسلفنا، هو أن الآخرة كلها باطن، لا ظاهر فيها، لذلك فهو سبحانه يتجلى لأحبابه باطنا يرونه باطنين ما لم يتهيأ لهم ظاهرين في الظاهر، فافهم.

وأما إمعان الباطن في انتهاك السفور، فهو أن الباطن قد يعود عند من أحبه الله تعالى سافرا، أشد سفورا من الظاهر نفسه، وإن شئت: يغطي الباطن عندهم شدة سفوره، ومن عرف الجمال في الباطن رأى كل شيء جميلا في الظاهر قبيحا، فغض الطرف بما عرف النفائس عن التَّوَافِهِ، وصار باطنه ظاهرا وكأنه كونه، وصار وهو في ظاهره يَحْيَى مُدَّعِياً ما ليس عليه، حتى يشاطر الناس حياتهم وشرعهم وأعرافهم

فصل في قوله تعالى: "إن الساعة آتية أكاد أخفيها". طه14

اِسْتَشْكَلَ أمر هذه الآية على كثير من أولي الألباب، فلم يدركوا مراد الله تعالى من قوله: أكاد أخفيها، فكيف يكاد يخفيها وقد أخفاها من قبل ومن بعد؟ قال سبحانه: "يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل انما علمها عند ربي، لا يجليها لوقتها إلا هو، ثقلت في السماوات والارض، لا تاتيكم إلا بغتة، يسألونك كأنك حفي عنها، قل انما علمها عند الله، ولكن أكثر الناس لا يعلمون". الأعراف187

وقد حصل لي أن شَهِدْتُ درسا في التفسير للأستاذ الهلالي أخ الشيخ تقي الدين الهلالي المعروف رحمه الله تعالى، في مسجد الباشا بمدينة تطوان حفظها الله تعالى، وذلك في بداية الثمانينات بعد التسعمائة وألف ميلادي، وكنت وقتها يافعا

فأنصتت إليه وهو قاعد على منبر في صحن المسجد بين العشاءين، وكان الأخ أبو طاهر أحد تلامذته، وهو الذي دعاني لحلقة شيخه، يتلو القرآن بين يديه آية آية، والشيخ يفسر ما تلاه، حتى قرأ قول الله تعالى: إن الساعة آتية أكاد أخفيها. قال الشيخ: معناه أكاد أخفيها حتى عن نفسي. فلم أتقبل تأويله هذا، فما كان مني سوى أن طلبت الإذن بإشارة إلى أبي طاهر في استفساره عنه، وقد أشرت إلى أبي طاهر لأن الشيخ كان بصيرا لا يرى إشارتي، فاستأذن لي في الكلام، فأذن الشيخ على مَضَضٍ، فقلت: إذا قلتم أن الله يكاد يخفي الساعة حتى عن نفسه، وهو تعالى لا يخفى عنه شيء، فكيف يكون عالما بها وليس عالما بها في الآن نفسه.

لكن الشيخ لم يعجبه سؤالي، وتخطاه إلى تفسيره، فلم أعترض عليه في شيء، وإنما حكمت عليه بأنه تصرف بما لا يليق بالعلماء أمثاله، ولما أُذِّنَ للعشاء خرج الشيخ بأصحابه من المسجد، فاستغربت لذلك وسألت عنه الأخ أبا طاهر، فقال: نحن لا نصلي الجماعة في هذا المسجد لأن إمامه غير ملتح، والصلاة حسب ما أفتى به شيخنا لا تجوز وراءه. فما كان مني سوى أن امتنعت عن الخروج وبقيت في المسجد حتى صليت العشاء جماعة، ولم يعجبني تشدد الشيخ في فتواه، وَمِنْ ثَمَّ لم أعد أسأل عن دروسه وحلقاته في التفسير

قلت: أَوَّلَ أغلب المفسرين رحمهم الله تعالى قوله تعالى: أكاد أخفيها، بمعنى: أكاد أخفيها من نفسي

ولا نقبل كما فعله بعض من قبلنا هذا التأويل، لأنه لا يجوز أن يخفي علام الغيوب عن نفسه شيئا من مغيباته، فيصبح عالما به وجاهلا له في آن واحد

وإنما الأقرب إلى وجه الصواب من فسر قوله تعالى: أكاد أخفيها: بمعنى أظهرها، كما يحتمله لسان العرب

فقد وضعت كاد لمقاربة الشيء فُعِلَ أو لم يُفْعَلْ، كما قاله أصحاب اللغة، فإذا كانت مجردة أَنْبَأَتْ عن نفي الفعل، وإذا قرنت بالنفي أنبأت عن وقوعه

قال ابن سيده: كاد: هَمَّ وقارب ولم يفعل

وقد قال بعضهم في قوله تعالى: أكاد أخفيها. أي أريد أخفيها. قال: فكما جاز أن توضع أريد موضع أكاد، في قوله تعالى: جدارا يريد أن ينقض. فكذلك أكاد. وأنشد الأخفش:

كادت وكدت وتلك خير إرادة لو عاد لهو الصبابة ما مضى.[5]

ولا نرى لمن فسر أكاد بأريد، حجة تحتملها لغة الضاد، وقد نزل القرآن بالسلاسة والبلاغة التي لا تتماشى مع ما ذهبوا إليه

قال في لسان العرب: وخفا الشيء خفوا أظهره. وخفى الشيء خفيا وخفيا أظهره واستخرجه. يقال: خفى المطر الفنار، إذا أخرجهن من أنفاقهن، أي من جحرتهن. قال امرؤ القيس يصف فرسا:

خفاهن من أنفاقهن كأنما خفاهن ودق من سحاب مركب

وقال امرؤ القيس بن عابس الكندي أنشده اللحياني:

فإن تكتموا السر لا نخفه وإن تبعثوا الحرب لا نقعد

قوله: لا نخفي، أي لا نظهر. انتهى

قال ابن منظور: وخفيت الشيء أخفيه: كتمته. وخفيته أيضا: أظهرته. وهو من الأضداد. انتهى

وفي الحديث أنه ﷺ كان يخفي صوته بآمين. أي يظهرها ويجهر بها.

ونخلص بعد كل هذا إلى أن المراد من قوله تعالى: إن الساعة آتية أكاد أخفيه. أن الساعة من شدة قربها أكاد أظهرها. والله أعلم

ولنا قول في هذا، نزيده لمن شاء أن يستزيد، وإلا فنحن على أن المراد من أخفيها أظهرها، ونقول: قد يكون المعنى: إن الساعة آتية أكاد أخفيها. أي أسترها ولا أذكرها بالمرة حتى لا يعلم بها الناس، وحتى لا تكون للمذنبين تذكرة وإنذارا يدفعهم إلى التوبة والاستغفار قبل قيامها

ويؤيد ما ذهبنا إليه قوله تعالى بعده: لتجزى كل نفس بما كسبت. أي نكاد نخفيها عن المذنبين حتى لا يتوبوا مما جنوا من ذنوب وآثام

ويشهد لنا في ذلك ما قابله من قوله تعالى في سورة أخرى: "لا يجليها لوقتها إلا هو". الأعراف186

فإن قوله تعالى: أخفيها، يقابله قوله تعالى: يجليها. ومعنى يجليها: يكشفها ويظهرها. والله أعلم

---

[5] انظر لسان العرب

فصل في صِلَةِ الإنسان بالظاهر والباطن، وَبِمَ يَتَّصِلُ وَيَتَوَاصَلُ، وَتَرْتِيبُ مَا يَهُمُّ الظاهر والباطن من خَوَاصٍّ أَوْدَعَهَا الله سبحانه فيهما على حَسَبِ التَّخَصُّصِ والاِخْتِصَاص

اِعلم رحمك الله تعالى، أن الله خلق الانسان عبارة على هيكل ظاهر ينطوي على سريرة هي بَاطِنُهُ، ليجمع بين الأمرين، فَيُكَوِّنَانِ فيه واحدا يؤدي غاية الوجود وينوط بمتطلبات الأمانة والتكليف، وما أنشأ سبحانه الكون سوى لبني الإنسان، ولذلك جعلهم والكون في صلة وتواصل، لهم دخل في أحداثه، ولهم بتصاريفه تداخل، بل إن الكون ينتسب إليهم نسبة هيكلية وليس نسبة روحية، رغم أنه لم يخل منها، أما الروحية فلا يكون انتسابها لغير الله تعالى، وقد خَصَّ سبحانه ابن آدم بها بخلاف جميع مخلوقاته في السماوات والأرض، حتى يعلي من شأنه ويكرمه على جميع خلقه أيما إكرام، بما تلهمه، أي الروح، من رقائق العناية والسلام، ليس على التمام

ويتصل الإنسان بظاهره عن طريق الحواس، وحواس الظاهر خمس لا سادس لها:

فأما الحاسة الأولى فحاسة النظر التي تختص بها العين، ومهمتها الإبصار ثم الإرسال، فأما الإبصار فإبصار الموجودات الظاهرة، وأما الإرسال فإلى العقل الذي يجسده الدماغ، فهي تحمل الصور إليه كما هي، والعقل يُسَمِّيهَا ويحاول إدراك ماهياتها، ويحللها ويستنتج منها ما يتصرف به الهيكل الأرضي من أمور العيش والمعايشة

والعين مبصرة اختصت عن غيرها من الحواس بأنها تتلقى وَتُبَلِّغُ في آن واحد، في حين أن باقي الحواس تنحصر وظيفتها في التلقي دون التبليغ، كما سوف نراه إن شاء الله تعالى

فأما تلقيها، فهو لما أسلفناه من صور، وأما تبليغها، فما يقرأ فيها من معاني المودة والحزن والغضب. قال سبحانه: "وإن كاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون". القلم51

وأما الحاسة الثانية فالسمع، وهو من شأن الأذن، تتلقى الأصوات والأخبار وترسلها للدماغ يفعل بها مثل فعله بما يتلقاه عن المبصرة من مشاهد

وأما الثالثة فالشم، وهو خاصية الأنف يرسل الروائح إلى الدماغ

والرابعة حاسة الكلام ووسيلتها اللسان، يبلغ ولا يتلقى شيئا، ويكون تبليغه باللفظ وبرنة النطق ولحنه. قال سبحانه: "ولتعرفنهم في لحن القول". محمد31

وأما الخامسة فحاسة اللمس وموضعها الجلد، متلقية غير مبلغة، ترسل للعقل أحاسيس يفعل بها ما سبق في غيرها مما ترسله باقي الحواس

وبهذا تكون حاسة البصر قد اختصت عن غيرها، بأنها تتلقى من الخارج وتبلغ في آن واحد

وهكذا جعلها سبحانه وتعالى أشرف الحواس وأعزها

ولعل الحواس، ما عدا حاسة النطق، هي منافذ يُشْرِفُ منها العقل على عالمه الخارجي، فيتلقى عبرها جميع ما يجمعه من معارف وتصورات وعلوم، ويتسنى له عبر اللسان الذي لا يتلقى به شيئا، تبليغ ما عرف من معرفة وتصور وعلم إلى غيره

تلك كانت حواس الظاهر، أما حواس الباطن فلا تزيد على اثنتين:

فأما الأولى فالبصيرة، وظيفتها الإبصار مقابلة بخاصية بصر الحاسة الظاهرة، ووظيفتها السمع مقابلة بالسمع الظاهر، والشم كذلك، والإيجاد وهو أبلغ من اللمس لدى الظاهرة

تقوم البصيرة بكل ذلك في الباطن فيما ليس بلدني قدسي، واللدني القدسي عندنا ما يمت إلى الله تعالى بصلة، كوحيه وكلامه وكرسيه وعرشه وسدرته ومعموره، وهو ما لا يدرك سوى بالحاسة الثانية من حاسيتي الباطن، ألا وهي الروع، ومنه قوله ﷺ في الحديث القدسي، حاكيا عن جبريل عليه السلام: "إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل أجلها وتستوعب رزقها الحديث ". رواه أبو نعيم في الحلية

وإن شئت، فالفرق بين الظاهر والباطن في استعمال الحواس، هو أنها في الظاهر لا تستعمل بغير أدواتها العضوية، فلا سمع بغير أذن، ولا إبصار بغير عين، ولا نطق بغير لسان، أما في الباطن، فيمكن أن يسمع المرء بغير أذن حتى ولو كان أصم، ويمكن أن يبصر بغير عين حتى ولو كان أعمى، ويمكن أن ينطق بغير لسان حتى ولو كان أبكم.

وقد تتحكم في حواسك الظاهرة التي يُتَحَكَّمُ فيها بالكف والإرسال، فأما كف البصر فبإغماض العين، وأما كف السمع فبسد الأذن، وأما كف النطق فبإمساك اللسان، وأما كف اللمس فبالتباعد عن الملموس

ولذلك كان ابن آدم مسؤولا عن حواسه الظاهرة. قال تعالى: "ولا تقف ما ليس لك به علم، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا". الإسراء36

فإن قلت: إذا كان المرء يتحكم في حواسه الظاهرة في ظاهره، فكيف هو الحال في حواسه الباطنة في باطنه؟

قلت: لا تحكم في الباطن في شيء، لأن الله تعالى حكم على الباطن ومجرياته بالتسيير وليس بالتخيير، ابتداء من المنام إلى يوم البعث، أليس النائم في نومه يكون مُسَيَّراً لا سلطة له على أقواله وأفعاله كما هو عليه يوم البعث. قال سبحانه: "اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون، ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون". يس64-65

وإن شئت: فالتكليف قائم في الظاهر ساقط في الباطن، أي أن المرء وهو في الباطن لا حول له ولا قوة، ولا يؤاخذ على ما يقوله ويفعله، لأنه لا يقوله ولا يفعله من ذات نفسه، بل هو بأمر السميع العليم. فافهم

فصل في قوله تعالى في الحديث القدسي: "فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني لَأُعْطِيَنَّهُ ولئن استعاذني لَأُعِيذَنَّهُ".[6] انتهى

وفيه أن من أَحْبَبَهُ الله تعالى ورزقه محبته، سارت حواسه وجوارحه تبعا لرضاه ومرضاته، وظهرت على غيرها من الحواس والجوارح بما أودع فيها سبحانه من قوة الفعل وسداد التلقي والتبليغ

واعلم رحمك الله تعالى، أن العبد ما سعى في مرضاة مولاه بمخالفة نفسه وهواه، داعيا ربه إلى أن يُخْلِيَ باطنه مما سواه، فلم يعد يستشرف الفانيات ويتمنى الفائتات كما هو شأن بني جنسه، إلا حباه الله بما حباه من قوة باطنة تنعكس على حواسه وجوارحه بالحق والسداد، واستجاب دعاءه متى دعاه، ومتى تودد إليه في نيل مراد لم يحرمه إياه، ولذلك ثبت في الأثر عن بعض الأصحاب رضي الله عنهم أجمعين، وثبت عن الصالحين رحمهم الله تعالى، كثير من التَّفَرُّسِ الذي لا يُخْطِئُ، وكثير من خرق العادات الذي أَتَوْهُ ما لم يستطع غيرهم أن يأتيه

قال سبحانه: "وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى". الأنفال17

ومنه قول عمر رضي الله عنه وهو في المدينة يخطب الجمعة: يا سارية الجبل، الجبل، من استرعى الذئب الغنم فقد ظلم. انتهى[7]

وكان سارية بن زنيم الدؤلي الكناني أحد قادة جيوش المسلمين، يقاتل المشركين على أبواب نهاوند في بلاد فارس وقد أحدقوا به، فسمع نداءه من هناك ولاذ بالجبل فنجا بمن معه

أما من اتبع هواه، فإن ذلك يعود على حواسه بالصمم والعمى والبكم. قال تعالى: "ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم، وعلى أبصارهم غشاوة، ولهم عذاب عظيم". البقرة6

ونخرج مما قلناه بأن وضوح الرؤية والنظر في الدنيا وأمورها يتهيأ بطاعة الله تعالى ومحبته

فإن قلت: وكيف لي أن أَطَّلِعَ على محبة الله تعالى لي؟

قلت: اِعْرِفْ محبتك لله تعالى تعرف محبة الله لك

ومن أحب الله لم يحب شيئا سواه، فقد قيل: إذا دخلت الدنيا القلب خرجت الآخرة، وإذا دخلت الآخرة خرج الله تعالى. انتهى

فإن قلت: فما بالك بحب الوالد لولده، والزوج لزوجه والأخ لأخيه؟

---

[6] رواه البخاري

[7] رواه أحمد في فضائل الصحابة وأبو نعيم في دلائل النبوة والضياء في المنتقى من مسموعاته وابن عساكر في تاريخه البيهقي في دلائل النبوة وابن حجر في الإصابة وحسن إسناده، ومن قبله ابن كثير في تاريخه، قال: إسناد جيد حسن، والهيثمي في الصواعق المحرقة حسن إسناده أيضًا.

قلت: ذاك حُبٌّ واجب ومطلوب من العرف والشرع على السواء، أودعه الباري سبحانه فينا سليقة، حتى نتعايش على وجه البسيطة في ود ووئام، ولا يضر مع حب الله تعالى شيئا، إذا كان سبحانه أَحَبَّ إلى المؤمن من ذلك كله. وفي الصحيح: "ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما الحديث".

رواه البخاري

وأكدر الحب على القلوب، حب الأشخاص والصور، مما هو فسق وفجور، وحب الأموال والأولاد أشد مما يجب أن يكون، فإن ذلك يشغل الفؤاد عن مولاه، ويستجلب هواجس النفس واضطرابها، حتى لا يكون إلا فتنة تفتح أبواب غواية الشيطان لعنه الله تعالى، فيتسلل منها ويدفع المرء من أجل ما أحب إلى أن يفجر ويجور على غيره، لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا والعياذ بالله تعالى.

فصل في الكلام على شأن الفراغ وحضرة التَّفَرُّغِ في قوله تعالى: "سَنَفْرُغُ لكم أيها الثقلان". وما يستوجبه إخباره سبحانه به من استشعار الخشية ولزوم المراقبة

تَفَرُّغُ المولى للعبد، هل كان العبد له أَهْلاً؟ كيف ولم يَفْرَغْ لمولاه وانشغل عنه شُغْلاً؟

... وَحَلَّتْ ساعة انفراد الواحد بالخلق، بعد انسداد الأوابد في الرَّتْقِ، وتولي العوائد عن هجوم الحق، حين امَّحَى ذاك الحِبْرُ من صفحات نشرت للقارئين فلم يقرؤوها، ولو قرؤوها ما رغبوا في الرجوع ليقرؤوها. نحن لا نبسط ما طوينا متى طويناه، ولا نرجع ما أجرينا متى أجريناه، ولا نعيد ما بدأنا سوى كما بدأناه

قد حصرنا الانفراد عن جميع الأبعاد، بُعْداً بُعْداً، كُلُّ بُعْدٍ يحبس ما انتهى إليه مِنْ تَدَلُّلٍ وَعِنَادٍ، عبدا عبدا، كل عبد يقول: يا ليتني لم أكن في العباد

جئتنا من حيث لا تدري، وقد أخطرناك حتى لا تنخلع، ومع ذلك انخلعت، فماذا لو ما أخطرناك؟

وقفت وقوف الجاني، خَجَلاً مما أتيت وأتيت، عدمت الجواب أيها الْمُتَوَانِي في حضرة الوهاب، وندمت على الأماني أَيَّانَ كنت في مملكة التراب، فها أنت تعاني في موقف لا يهنأ فيه حتى الأحباب

حَسِبْتَنَا أوقفناك من أجل اللوم والعتاب، وهل صرت لنا نِداًّ حتى نلومك ونعاتبك على الأسباب. إنا ناظرون إليك بما أنظرناك حتى حضرت، وبما أنذرناك من قبل فما رجعت. نُبَادِرُ إليك بما يبكيك فتبكي حتى تَكُفَّ، ونبادر إليك بما يفرح، فتفرح حتى تَعِفَّ. ما فرغنا لك أيها المنشغل عنا سوى لنشعرك بصدك وجفاك، ما فرغنا إليك حتى عددنا لك شانا. فلا تبتئس حزنا على ما فات، فما يفوت لدي شيء، ولا ترتجف مما هو آت فلا يأتي إلي شيء

ولا تحفل بشيء، فما من شيء إلا سبح بحمدي، ألست رب كل شيء؟

أحسبت أننا نُوقِفُكَ عندنا لو ما قضينا بتسريحك؟ لو ما قضينا الغفران ما أوقفنا المذنبين في حضرة الديان، فإن خافنا المذنبون، فَمِنْ ظَنِّهِمْ أننا معذبوهم، وإن خشينا المحسنون فمن ظنهم أننا هاجروهم

أولئك عبيدنا، وهؤلاء أحبابنا، فأيهما نُكَافِي وأيهما نُصَافِي؟ وأيهما نقبل وأيهما نشمل؟ منهما شنيع ومنهما بديع، وفيهما خضوع وفيهما خشوع، ونحن لأولئك رجاهم، ونحن لهؤلاء مُنَاهُمْ، ونحن الغافرون ونحن الْمُقَرِّبُونَ، لا يعيينا تودد الأحباب للمحبوب، ولا يعيينا هذا الفراغ لأولئك وهؤلاء، أليس كلهم عبيد؟

ما تظنون أني فاعل بكم أيها المذنبون، أتظنون بي ظن السوء وأنا الرحمن الرحيم؟ أتظنون أنني خلقتكم وأكرمتكم كي أحرقكم في الجحيم؟ أنا الرب الغفور، فلا تعرفوني ليس كما أنا، فإني أعرفكم كما أنتم، ليس منكم سوى أفاك أثيم، يجترح عظام الذنوب، وأنا أغفر كل ذنب عظيم، ألست الغفور الرحيم؟

ما تظنون أني فاعل بكم أيها الأحباب؟ قد حان يوم اللقاء ونسينا اللوم والعتاب. لا يخفى وقوفكم علينا من وراء حجاب، لا تروننا ونراكم، ليس فيكم إلا أَوَّاهٌ أَوَّابٌ

ترغبون في القربى وقد قربتكم في الأولى، فكيف أبعدكم في الآخرة؟

ترغبون في الرضا وقد رضيت عنكم في الأولى، فكيف أسخط في الآخرة؟

ترغبون في رؤية وجهي، فكيف لا ترونه، وقد أريتموني من الإحسان ما اشتهر، وتواريتم عن الأقران بما وارى وستر؟

تعززتم بنا فاليوم نُعِزُّكُمْ على غيركم، واكتفيتم بما خَوَّلْنَاكُمْ، فاليوم نكفيكم ما طلبتم مما لا تَفْتُرُونَ عن طلبه.

هذي الجنان أَذِنْتُ لخلقي في دخولها، دخول الناجين، ادخلوها بسلام آمنين، وأنتم ادخلوها دخول المالكين، أنتم في الجنة ملوكها، وأنا جنتكم، وأنا في جنتكم الملك

لَا يَرُعْكُمْ تَفَرُّغُنَا، فقد عزمنا على الغفران حين ياتي الأوان، ومن فرغنا له أزعجناه، ومن أزعجناه أَمَّنَّاهُ من بني الإنسان

اختليت بكم لأسامحكم أحبابي، أليس متى سامحتكم خفقت قلوبكم بحبي ولهجت ألسنتكم بشكري، وما يرجو الحبيب من حبيبه غيرذلك

أما الْمُبْعَدُونَ فما لهم عندي من شيء

قال سبحانه: "أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم". آل عمران76

وإن سألتم عن إخوانكم من الجن، فما فراغنا للجن سوى حتى لا نفوته فيقول: رب أهانني، فرغ لبني آدم ونسيني.

وإلا فالجن لَمَّا كان في الأغوار، لم نمكنه من التقاط الأقدار، وإن كنا لَقَّنَّاهُ ما عليه من ذلة وانكسار

فإن جَنَّ فيكم فما جَنَّ سوى لتظهروا عليه بالقوة والاقتدار، وإن حَنَّ إليكم فلا تجاروه في حنانه، حتى لا يَغِيرَ عليكم بالأكدار

وإن ظهرتم فيه، فلا يكون إلا بإذن الله الواحد القهار، فإياكم إذا ما ظهرتم أن يلتبس عليكم الليل بالنهار، وإياكم أن ترجعوا ببعض الكبر والاغترار، فإنكم إذا ما تكبرتم انقلبتم صاغرين، وإنكم إذا ما اغتررتم أريناكم ما غفلتم عنه، ولم تعودوا لدينا في الآمنين

فصل في نِسْبَةِ الكون إلى الإنسان نِسْبَةَ تَضَمُّنِ الثاني للأول، وما يَدِينُ به الْمُتَضَمِّنُ بحر الميم، في تَتَبُّعِهِ من المعارف ما عليه عَوَّلَ

اِعلم رحمك الله ونور بصيرتك، أن الله تعالى جعل آدم عليه السلام خليفة في كون التكليف، وليس في أرض التكليف، حتى لا نستثني السموات وما فيهن من استخلافه. وقولنا: كون التكليف، لأن ليس لأحد الجزم بأنه تعالى لم يخلق غير كون واحد.

ومما يخوله شرف الخلافة لابن آدم أنه والكون واحد، فقد انضوى الأخير في الأول، ولو أن الأول تصرف في الثاني، فما من شيء إلا وابن آدم له وإياه تداخل وتمازج، بل ذلك حاصل بين الأرواح فيما بينها، فالأرواح روح واحد، والنفوس نفس واحدة. قال سبحانه: "ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة". لقمان27

إلا أن الناس غفلوا عن هذا التمازج والتداخل، ولم يُولُوهُ حَقَّهُ من التفكر والتدبر، بل لم يعيشوا كما يجب أن يعاش، واكتفوا بظاهرهم المجرد عن الباطن، وتصرفوا فيما بينهم بالأسباب، في معاشهم وتنقلهم وعلومهم، فَقَصَرُوا عن إدراكها كما يجب أن تدرك، وجهدوا في طلابها بالمشقة والعناء، ولو عرفوا ما قلت لما احتاجوا إلى الأسباب والوسائل من أجل تحقيق كل ذلك

فما دام الكون بما فيه قد انضوى في ابن آدم، فلا حاجة لهذا الأخير لكي يَطْرُقَ ما فيه، وما فيه فيه هو نفسه، فلا حاجة له في طلب السفر والنقلة، والكدح والتكسب، والعلة والتسبب. فهلا يسافر فيه منه إليه، وهلا يسأل ما شاء منه، وهلا يكسب من نفسه ويكتب عنها ويقرأ فيها؟

فما قد أضفى المولى عز وجل على ابن آدم سمات الملك والتملك، حين أوكل إليه التصرف في اللاغيات وكفاه تَرَقُّبَ الغائيات، ولم يحرمه الفائتات، فكانت خلافته في ملك سيده لاتقتصر على الحاضر ولا تكتفي بحاضرة، بل هو خليفته في الزمان والمكان، وفي خلقه من حجر ونبات وحيوان

فمهما هداه لِلتَّوَحُّدِ مع متصرفاته جرى بالمواتاة، لما جرى فيه من محاباة، في وقوفه وسيره وبسطه وانقباضه، وكأنها هو بالذات والصفات

فيكون بذاك لَبِسَ الْكَوْنَ أثوابا، فَدَانَ له اللباس في الحركات والسكنات، حضورا وغيابا، وطويت له الأرض وأجرى الرياح وأمطر السحاب، وهيج البحر أمواجا تتلاطم ما تلاطم الروع، وينساب ماؤها انسيابا

فمتى يكون له ذلك إذا عَقَّلَ نفسه بغير ذلك؟ ورام النجاة في هُوَّةِ المهالك، وقنع بالقعود وانتظار ما لا يدرك من المدارك؟

تعلقت الروح منه بالقدسيا، فلم تَعُدْ تَحْفَلُ لِمَا يُنَاوِشُهَا مِنْ شَغَفِ النفس بالملذات، وَأَفْتَتْ لَوْحَهَا على صاحبها آيات آيات، كلما نسي أعادت عليه ما قرأت مرات ومرات، وهو بلهو النفس مفتون، يُزَيِّنُ له الشيطان قبائح الفسق والمجون، وَيُمَنِّيهِ مُغْرِياً بما لا يشتهي مِمَّا لا يكون

فَلْيَكُنْ روحا ولا يُجَاوِزُ مَبْنَاهُ، يسيح في عوالم عرضها السموات والأرض، إذا كان ذلك ما يرضاه، ويستشعر جلال مولاه، ويحمده حق الحمد بِمَا مَكَّنَهُ فيما أَرَاهُ

حتى إذا عاد بَرِمَ بنفسه، إِذْ لم يعد يراها كما اعتاد، فإن هجرها بالمرة، التبس عليه الغيب بالشهادة، واحدا في الأشهاد، وتخلخل سلوكه، ورجحت كفة ما اختفى بكفة ما هو باد. فإن تداركه رحمة من ربه، قيده بالنفس، وانتفى عنه اللبس، وإن أوكله للروح لم يعد له قرار، وأمعن في النقلة والأسفار، فَتَاهَ عن نفسه بغير هدى، وَأَحَلَّ بشرعه سُدًى

فابدأ بنواياك أيها الطالب، واعرضها على الحق واحذر أن تُغَالِبَ، فإن آلت إلى الفاني فإياك أن تُوَاكِبَ، وإن أشرفت على الباقي، فأنت الغالب. وَصُنْ مِمَّا كَنَّ فيك بفضله من جواهر، واحجبها بالكتمان، واصبر على كل سائل مُجَاهِرٍ، ولا تعجبك جواهرك في العالمين، فما أودعك إياها لكي تَفْخَرَ وَتُكَاثِرَ

لَطَائِفُ ٱلْأَنَاةِ في رَوْعِ العارفين سِرُّ المواهب والتصاريف، يوتونها هِبَاتٍ تَسِمُهُمْ بِالرُّقِيِّ والبهاء في أرض التكليف، ولو عجلوا لكانوا كبني الإنسان، يزعجهم ما يُخِيفُ

فليستمسكوا بأولويات الولوج إلى ناموس المخصوصين، متى اختصوا بالتميز عن تنزلات لا تهمهم سوى إلى حين، ولاذوا بها عن أمثالهم في أرض من الأرضين

يسقيهم بألطافه حتى لا يَجْدِبُوا، وينفحهم بأنفاسه حتى لا يَجْذِبُوا، ويغريهم بنوره وبهائه، حتى إذا وحدوه لم يكذبوا.

الراوون أنباء القدس في حلقات الأخيار، يصغون لهم ساهمين، ويمدونهم من عِلِّيِّينَ، وإذا لم يفهمو كلامهم، كلموهم من غير أن يَكْلَمُوا بالزفرات والأنين

اِنْبَسَطُوا على المنبسطات فانطوت تحتهم طائعات، وهوت ببأسهم فيما فَضَلَ عنهم من التافهات، واستجدتهم فاستووا عنها مُصَعِّرِينَ أعناقهم، كي يحققوا عزة قعساء لا تستوي ولا تلين

يدبرون ما سبق في الألواح في ليل لا يعرف الصباح، يعمرون في لياليهم دهرا، ويربضون كالأسود في البطاح، يجارون أشباح القبض والانشراح، يَمُورُونَ خلالها مَوْراً، حتى إذا امَّحَوْا فيما كَتَبَ لهم البصير من بهائه، أُثْبِتُوا بعد محوهم في لقائه، ومشوا في الناس وهم لا زالوا لم يغادروا ما هيأ لهم المولى من قَبْلُ بِمَكْرِهِ وَدَهَائِهِ

يلجؤون المذنب إلى التوبة والإنابة، ولو ظن أنه تاب بغير استجابة، ويشغلون المجرم بنفسه عن أذى الخلق، ويبعدون القريب متى اغتر فتنة واستلابا

فصل في سِرِّ التَّرَدُّدِ في الموجودات، وَتَجَادُلِ الْمُسْتَخْلِفِ وَالْمُسْتَخْلَفِ فِيهِ في التَّأثر والتَّأثير، في الحياة قبل الممات

اِعلم أخي الكريم، فتح الله بصيرتك، أن الله تعالى ظهر بعظمته في الخلق بما خلقهم وسواهم، فقال: "وفي أنفسكم، أفلا تبصرون". الذاريات21 وظهر بعظمته في كونه، فقال: "سنريهم آياتنا في الافاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق". فصلت52

وما ظهر سبحانه بما ظهر، سوى ليتعرفوا إليه بما سرى فيهم وفي كونه من وحدانية في صفاته وأفعاله

وما زادت معرفة المؤمن بمولاه إلا وفتح عليه ما فوق ذلك من أسرار الخلق وعوالم الحق

فانظر رحمك الله، كيف أتاح سبحانه للأنبياء والمرسلين، وهم أعرف خلقه به وأحبهم إليه، كيف أتاح لهم ما لم يتح لغيرهم من معجزات وخوارق عادات، تطمئن به قلوبهم ويزيدهم يقينا إلى يقينهم

كما في قوله تعالى: "وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والارض وليكون من الموقنين". الأنعام76

فتعال نتدبر في بعض مخلوقاته، ونعرف سر خلقه وجميل صنعه

لما قضى ربك أَمْرَ كون التكليف دَبَّرَ الْمُنَاسَبَةَ بين الْمُكَلَّفِ وغير الْمُكَلَّفِ، وَالْمُكَلَّفُ في شرعنا الثقلان، وغير الْمُكَلَّفِ عندنا ثلاثة أصناف:

الأول غير العاقل حسب ما يعنيه التعقل لدى العاقل، ويشمل السماوات والأرض وما فيهن منه

والثاني العاقل ممن توقف عنه التكليف، وليس ممن رفع عنه التكليف، فإن الصبي والمجنون رفع عنهما التكليف، فأما الصبي فحتى يرشد، وأما المجنون فحتى يعقل إن عقل، ولكنني أعني بمن توقف عنه التكليف نفوس الموتى في البرزخ، ونفوس الأنبياء والشهداء في غيره

والثالث من خلا من التكليف وهم زمرة الملائكة المكرمين

والمناسبة عَنَيْتُ بها المداولة والتصرف بالسلب والإيجلب، بقدرة الحكيم الوهاب، من لدن المناسب والمناسب له على السواء

فَبَيْنَ المكلف وغيره، مِمَّا بَرَأَ سبحانه وَذَرَأَ تواصل واتصال، ويكون ذلك في ذاته جسدا ونفسا، ويكون ذلك في بيئته أرضا وَجَواً

فأما الذي في ذاته جسدا، فما تَرَكَّبَ منه من عناصر، مصدرها النار والهواء والماء والتراب

فيكون الجسد بذلك ترابي الخلقة

وأما الذي في ذاته نفسا، فنسبتها إلى الملذات والشهوات الترابية

فإن كان الجسد قد أخذ من التراب وضعه ومبناه، فقد أُشْرِبَتِ النفس منه طبعه ومعناه

وأما الذي في بيئته أرضا، فسيره فيها، وتعهدها بالحرث والزرع حتى يَطْعَمَ منها، ومباشرتها بالحفر والتشييد، حتى يسكن لما يؤويه من الحر والقر، وما إلى ذلك

وأما الذي في بيئته جوا، فاحتياجه إلى الهواء، وطيرانه في الفضاء

هذا تواصل المكلف مع ما يحيط به، فكيف يكون تواصل المحيط؟

قلنا: يتواصل المحيط مع المكلف إيجابا وسلبا، فيشبع ويقوى ويصح ويركب ما خلق له من بهيمة الأنعام. كما يجوع ويعيى ويمرض وتفترسه الكواسر

كما أوكل سبحانه الشارع بتدبير أمور التداول والتواصل ولم يتركها سدى، فَحَرَّمَ على المكلف ما يضر، وأحل له الطيبات

وبهذا يكون الله تعالى، لما أهبط المكلفين الأرض ما أهبطهم إياها، إلا وهي متناسبة معهم لِيَعْمُرُوهَا فَتَعْمُرَ بهم، إذ هم إليها منسوبون وهم لها نسبة

فما اختار الْمُكَلَّفُ أن يعيش في انفصال عن بيئته واعتزال عن بني جنسه إلا هلك، وما اختار أن يمارس شعائره التعبدية ويتقرب إلى ربه بغير شريعته إلا ضل وغوى

ولما خلق الباري عز وجل الخلق خلق معه الزمان والمكان، والماضي والآتي في وقت واحد، وعنيت بالماضي، مذ خلق آدم عليه السلام، وعنيت بالآتي، إلى خلود أهل الجنة في الجنان

وإن شئت، فالله تعالى خلق الخلقة خلقة واحدة

وإن استفسرت عن تَوَارُدِ الخلق وتتابع الأحداث وتوالي الحوادث، ورأيت أنه يدل على تعدد الخلق، تكون باستفسارك خلطت بين الخلق والتردد

فالخلق الإيجاد من عدم، وَالتَّرَدُّدُ تجادل الموجودات، وتواليها وتلاحقها وتسابقها وتناوبها على الظهور والحجاب، وتبادلها السلب والإيجاب. ومن فهم سِرَّ التَّرَدُّدِ تَرَدَّدَ بالضرورة، فلم يعرف لنفسه مقاما سوى إن التزم بالشرع، فأما إذا لم يلتفت إلى شرعه، فإنه يتلاشى فيما لا يقتضيه بطبعه، ولم يعرف كيف يتماشى وما يخالفه من صنعه.

ولعل الله تعالى أَمَّرَ الزمان على المكان، فما تبدلت المواضع إلا بتبدل الزمان، فعش زمانك واشهد تبدل مكانك، ولا تعش أزمنة غير زمانك، فإنك تأتي في غير أوانك، ولا تطيق تنوع الْمَشَاهِدِ، وأنت لا زلت غير شاهد

لا تتسرب عبر الشقوق وتتغرب في جيوب الفتوق، وأنت لا زلت غير مؤهل للغوص فيما لا تطيق

فسبحان من نشر المشاهد في بساط واحد، ورتبها في الأنظار لِلْمُشَاهِدِ، لا يبصر منها سوى ما هو وارد، ويستحيل عليه إدراك سر التوارد، مهما غالب وعاند

وسبحان من طوى ما بسط لكي يبسط ما طوى، فأما الذي كان مبسوطا فعنده في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى، وأما الذي بسط بعد الطي، فما كان في انطواء عن الإفك والغي، إن هو إلا الحق ولا شيء غير الحق، أحقه اكتساب المكلفين، وأبطل المبطلون فيه ما جَنَوْهُ غاوين

فيكون سبحانه بذاك قد آخى بين الدنيا والآخرة، فلا تنفك الأولى عن مناوشة الثانية، ولا تنفك الثانية عن مراجعة الأولى، ولا ينبغي لهذه أن تسبق تلك، بل كل في بَسْطِهِ أو طَيِّهِ يتفاعل بشؤون الخلق وفق ما قضاه التدبير.

وأنا تائه في تماس البسط والطي، أعاود البدأ متى ابتدأت، وأشرف على الانتهاء متى انتهى إلي، ولا من يأمرني ولا من ينهاني، فإن أُمِرْتُ ففي أي كون أطيع، والأكوان أطاعتني فيما ابتلاني، وإن نُهِيتُ لا أدري كيف أنتهي، وقد اختلط الحرام والحلال في أعرافي وأدياني

أُلَامِسُ بِحِسِّي ما أحسه ولا يحسني مِمَّا تَفُهَ في كون الأمانة، وأجد متى تواجدت في أكوان مكنونة لأهل التمكين والمكانة، أشخاصا تكاد تجدني إذا ما أطلعتها على أسراري ولم تفهم ما أقصد بما أقول، تسألني التبيان ولا أقوى على الإبانة

فانظر إلى نفسك أيها الأرضي، واعقل منك أمارات التراب، ليس فيها ما يرضي، فإياك أن تعدها في غير الأسباب، وافهم من نفسك أمارات الانسياب، وطالعها من غير أن تنساب، ولكن اعرف منها الغايات، ولا تسأل على أمر ليس له جواب

ومتى عرفت ما أشرت إليه من غايات، لم تعد تأبه لتدهور المكاتيب بالخيرات والمضرات، واحتميت بالعرفان عن تصاريف الرحمن، وأعاذك به منه أيها الإنسان.

فصل في قوله ﷺ: أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين.

وقد تتبعنا طرق سير الزمان فوجدناه يتفاوت في سيره من أرض إلى أخرى، بل من إنسان إلى إنسان، فلا تساوي في الأعمار رغم تساويها في الحساب، وقد يعيش المرء في عشرين سنة أكثر مما عاش غيره في سبعين، ولو أنهما في زمان واحد وبيئة واحدة، وهذا أمر يفهمه فقهاء الأوقات ويراعونه في سلوكهم أثناء الحضرات. قال سبحانه: "ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة". الروم54

ولذلك قال الناس أن الأوقات السعيدة تمر بسرعة. ففاوتوا سير الوقت بين سعيد وشقي. وما زاد الزمان أو تأخر إلا نقصت بركته، بل نقصت بركة كل شيء. روي مرفوعا: "لا تقوم الساعة حتى يتقارب الزمان فتكون السنة كالشهر، ويكون الشهر كالجمعة، وتكون الجمعة كاليوم، ويكون اليوم كالساعة، وتكون الساعة كاحتراق السعفة". رواه الإمام أحمد

وقد سألني بعض الإخوة عن اللغة التي يتفاهم بها أهل الباطن. فقلت: ليس لهم لغة. فقال: وكيف يتفاهمون؟

قلت: يتلقى بعضهم عن بعض طفرات من المعاني لا تحتاج إلى العبارات من أجل إبلاغها، ولا تحتاج الوقت من أجل سردها، مهما كانت كَماً هائلا يستلزم ساعات لتبليغه أو تلقيه. ولذلك أقول: إن السورة التي كانت تنزل عل سيدنا محمد ﷺ، وإن كانت تحتاج وقتا في قراءتها، فهي لا تستغرق كل ذلك لكي يتلقاها ﷺ عن جبريل عليه السلام، بل تنزل طَرَقَاتٍ وَطَفَرَاتٍ، فيجد الأمين المصطفى ﷺ ذلك في روعه، ويعيه ويقرؤه على الناس.

وَأَصْلُ الزمان انتفاؤه، أي أن الزمان كان منتفيا كما هودَأْبُ المكان، كلاهما حادث، إذ أن البارئ عز وجل، لا يحتويه مكان ولا يسري عليه زمان

إلا أنه سبحانه، مِنْ حكمته أنه جعل للعوالم زمانا وقسمه إلى أيام وليال، وربما إلى ساعات، كما هو واضح في ظاهر التنزيل

كما أنه تعالى فاوت بين أزمنة هذه العوالم، وجعل كُلاًّ منها يسير سيرا يخصه عن غيره

والأكثر من هذا، أنه تعالى وازى بين أزمنة هذه العوالم. ومنه قوله تعالى: "يدبر الامر من السماء إلى الارض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون". السجدة4

وقوله تعالى: "تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة". المعارج4

فإذا كانت الملائكة والروح يعرجون إلى ربهم بالليل والنهار، فيفهم من الآية الكريمة، أنهم بعروجهم لا ينقضي خمسون ألف سنة في عالمنا، وإنما في عالمهم، ولو كان الأمر كذلك، لفني الثقلان ومن سواهما من الخلائق قبل أن تتم الملائكة والروح عروجا واحدا، فافهم

والملاحظ، أن عامة الحوادث على وجه البسيطة تحسب حسابا للزمان، وتسير على ما تعرفه وما ورثته عن أسلافها من تداول الأيام والليالي، وهي واهمة في ذلك، إلا أنها بغير ذلك الوهم لا طاقة لها للعيش في الأرض وعمارتها بما ينفعها في دينها ودنياها

وحتى يؤكد المولى عز وجل لعباده وجود الزمان في عالمهم، وجريانه عليهم ماضيا وحاضرا ومستقبلا، حتى يؤكد لهم ذلك، جعل لهذا الزمان تأثيرا عليهم وعلى كونهم بالبلى والتقادم والفناء

أما ما يخص ما جاء في الأثر مما ذكرناه في صدر هذا الفصل من تقارب الزمان، فإننا نجد له تبريرين لا ثالث لهما:

أما الأول، فهو أن الله تعالى نَقَصَ من وقتنا وزماننا دون أن نلحظ ذلك وننتبه إليه

وأما الثاني: فهو أن ما ابْتُلِينَا به في زماننا الحاضر من مشقة الحياة وصعوبة العيش، مما تطلب منا كثرة الأسباب وزيادة الحركة، كل ذلك يجعل أيامنا وليالينا تمر بسرعة متناهية، بخلاف ما مضى من أزمنة كان الوقت يسير فيها بطيئا، والإنسان يعيش منعزلا في مسكنه في البادية أو عند سفوح الجبال، يرعى شيئا من ماشيته طوال النهار، ويروح لبيته قبل غروب الشمس، لكي يخلد إلى النوم بعد العشاء، ويستيقظ عند شروق الشمس أو قبله

وقد كان مني فيما مضى، أن لزمت الدار بضعة أيام مُخْتَلِياً وحدي بعيدا عن الأهل، فلا حظت أن الوقت يرجع إلى أصله ووقفت على طول الأيام والليالي، ففهت من ذلك أن زيادة الوقت ونقصانه، يكون بمدى اشتغال المرء فيه، وباجتهاده وخموله

ولعل الناس يتفاوتون في إحساسهم بسير الزمان من هذا إلى ذلك، على حسب تفاوت اعتقاداتهم وتصوراتهم وعلومهم وطبيعة عيشهم، وكذا انشغالهم وخلائهم. بل إن الزمان عند الصغير ليس هونفسه عند الفتى، وما عند الفتى ليس عند الكهل والشيخ

بل إن من مخلوقات الله تعالى من غير الثقلين من يعيش أياما قليلة يحسبها عمرا طويلا

ولعل المرء، ولو عمر ألف سنة يحسب نفسه لبث مليا، ولكنه لم يلبث شيئا؛ وَنُمَثِّلُ لذلك بالذبابة، التي لا يتجاوز متوسط عمرها أسبوعين، ولكنه يعتبر لديها عمرا كاملا مثل عمرنا.

قال سبحانه: "ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة، كذلك كانوا يوفكون". الروم54

ومن فَهِمَ سِرَّ تفاوت الوقت عبر العوالم، ابتداء من عالم اليقظة وعالم النوم، حيث يرى رؤيا يخيل إليه أنه لبث فيها شطر ليلة، في حين أنه لم يلبث سوى لحظة واحدة

قلت: من فهم سر هذا التفاوت، أدرك ما قصدنا إليه من تقارت الزمان بين يدي الساعة، والله أعلم بغيبه لا إله سواه

المبحث الثاني: في أحكام الروح والنفس فيما يتعلق بالماهية، وما يجري بينهما من تَخَاطُرٍ وَتَخَاطُب، وكيف يعتبرهما الْمُكَلَّفُ في شريعة التكليف، وما تستوجبه النفس من حقوق عليه، فيما تَرْغَبُ وَتَأْمُرُ، وما يُخَالِفُ منه وَيَحْذَرُ

أَتَانَا غَرِيبٌ فِي غِنًى عَنْ قِرَانَا أَضَفْنَاهُ قَسْرًا فِي الضُّلُوعِ زَمَاناً
حَيِيٌّ تَخَفَّى فِي النُّفُوسِ بِرِقَّةٍ بَرِيءٌ كَطِفْلٍ لَمْ يَجِدْ عَنْ حِمَانَا
يَضُوعُ بِأَنْسَامِ الْجَلَالِ بِأَنْفُسٍ سَعَتْ فِي ضَلَالٍ ثُمَّ ضَاقَتْ هَوَانَا
شَهِيدٌ عَلَيْنَا مَا أَصَبْنَا وَشَاهِدٌ عَلَى مَا رَمَانَا فِي الذُّنُوبِ هَوَانَا
بِرُوحِي وَجَدْتُ اللهَ يَوْماً بِخَاطِرِي وَأَلْطَافُهُ فِي الرَّوْعِ تَسْرِي عَيَانَا
وَبِالنَّفْسِ أَحْيَى فِي الشَّرِيعَةِ مُذْعِناً أُخَالِفُهَا فِي الْأَمْرِ لَا أَتَوَانَى
وَمَنْ لَمْ يُمَيِّزْ بَيْنَ تِلْكَ وَهَذِهِ غَدَا وَهْوَ لَا يَدْرِي لِنَفْسِهِ شَانَا.[8]

اِعلم رحمك الله تعالى، أن روحك ليست مَاهِيَّتَكَ، بل مَاهِيَّتُهَا أمر الله تعالى، ومَاهِيَّتُكَ عنصر خلقك، وهو التراب أو ماؤك الْمَهِينُ، وفي التراب بَخْسٌ ووضاعة، وفي مائك هوان ومهانة. قال سبحانه: "كلا، إنا خلقناهم مما يعلمون". المعارج39

فلا تَعُدَّ نفسك فوق ذلك، وإنما شرفك الله تعالى فضلا من عنده بما نفخ فيك من روحه، وبما أوكل إليك خلافته في أرضه، وهكذا سَمَوْتَ عن عنصرك بكونك بغيته في الهيكل، وعلوت عن معايشيك، بكونهم سُخِّرُوا ليكونوا في خدمتك

فَتَأَدَّبْ مع روحك بمراسيم القدس، وتأهب لنفسك وَأَعِدَّ لها عُدَدَ القوة والبأس. فَالْأُولَى ضيف وديع خفيف الظل، لا يكلف مضيفه شيئا من شراب أو طعام، لا يشرب ولا يطعم، وإنما يؤنسه في بيته، ويبغي له الخير والسكينة والسلام. والثانية غول مروع، لا يكتفي ولا يشبع، سفيه لا تنتهي رغباته، إن جاريته أبخسك وأفلسك وأذلك، فإذا أنت سِفْرُ اليدين خالي الوفاض من الدنيا والدين. قال سبحانه: "ولا توتوا السفهاء اموالكم التي جعل الله لكم قيما، وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا". النساء5

إلا أن الروح رغم سموها واستقلالها، ورغم وضاعة النفس وقصورها عن الرفعة والسمو، فأنت في حاجة ماسة إلى النفس بالضرورة، إذ هي أنت، أنت المناط بك مهمة التكليف ومسؤولية الأمانة، فلا تستطيع أن تؤدي مهمتك

[8] من نظم المؤلف في الطويل

وتضطلع بأمانتك بغيرها. ولهذا اقتضى ذلك أن تنصت إلى تحاور روحك مع نفسك، حتى تعتبر ما تقوله الروح، وتختبر ما توسوس به النفس

والروح والنفس في التلقي متباينتان من حيث مصدر تلقيهما

فالروح مصدر تلقيها القدس الروحاني وكل ما يتنزل منه، وكافة ما تتلقاه مصدره الرب، فهي لا تحتمل تلقي غير ماهو لطيف وجليل، فيكون بذلك ما تتلقاه يواتي لطافتها وجلالها، إذ هي أثر من اللطيف الجليل

أما النفس فتتلقى عن الهوى والشيطان، فأما ما يلقيه الهوى، فهو منها وإليها، لا دخل لأجنبي فيه، لا يُمْلِي عليها الهوى ما يُمْلِيهِ سوى إن كانت لها رغبة شديدة فيه، فالهوى لسانها واختلاج هواجسها، وهو أمانيها التي تَمُتُّ إلى التراب وتنتهي إليه

وأما ما يلقيه الشيطان لعنه الله تعالى، فلا يلقيه إلا وقد عرف أن الهوى سبق إليه بِالْكَلَفِ والشغف، وإن شئت: لولا ميل الهوى إلى الشهوات والملذات، ما استطاع الشيطان لعنه الله أن يغوي بإتيانها. ولا يكاد الشيطان يفتأ عن الوقوف على النفس وهواها لا يغادر. فإن عمل المؤمن معروفا، دعاه إلى الرياء وأشار عليه بِالْمَنِّ بما عمل حتى يبطل معروفه، وإن هَمَّ بفاحشة زينها له وَحَضَّهُ على إتيانها، وأوحى إليه بالتذرع بالتوبة بعد ارتكابها، لأن الله تعالى يغفر الذنوب جميعا. وهو ما أسميناه في غير هذا الكتاب، بالتوبة من الإثم قبل ارتكابه، قال سبحانه على لسان إخوة يوسف عليه السلام: "اقتلوا يوسف أو اطرحوه ارضا يخل لكم وجه ابيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين". يوسف9

وإذا رزقه الله تعالى ما قدر له من رزق، دعاه الشيطان لعنه الله تعالى، إلى عدم الرضا بما قدر له، وبلاه بحسد غيره من بني جنسه ممن قَدَّرَ لهم سبحانه خيرا منه، أو وصمه بالكبرياء والغرور على من هو أقل منه مالا وتراثا. وهكذا لا يكاد الشيطان لعنه الله تعالى، يرى من ابن آدم هَمّاً بقول أو بفعل، إلا وسوس له بما يضله ويغضب عليه مولاه

وإذا أغرقت النفس في المعاصي صارت لا تعرف معروفا ولا تنكر منكرا، لا تراعى لمولاها حرمة، وتنتهك حماه لتقع في المحارم. تلك النفس الخبيثة التي لا تسعى سوى وراء الخبائث بسبب هجونة طبعها وخبثه

أما النفس اللَّوَّامَةُ فهي التي تحاول أقصى جهدها أن تخالف هواها، فإذا حدثها بالمعاصي تذكرت فكانت من المبصرين، وإذا غلبها الهوى ندمت واستغفرت وأقسمت ألا تعود

فهي في صراع لا يفتر وفي جهد ومشقة، وهي تسعى إلى مخالفة هواها الذي ما هو سوى طبعها الذي فطرت عليه، وقد تكون نفوس المؤمنين من هذا القبيل، فلو حدثتهم أنفسهم بالمعاصي، لا يكادون يأتونها رغم رغبتهم فيها، خوفا من عذاب الله تعالى واتقاء لغضبه

أما أصحاب النفوس المطمئنة، وهم الأنبياء والمرسلون والصديقون والشهداء والصالحون، فالأمر عندهم بخلاف كل ذلك، فقد أكرمهم الله تعالى بأن كره إليهم المعاصي، فهم لا يهوونها ولا يرغبون في إتيانها ولو تهيأت لهم ظروف ذلك، ولا يصارعون هواهم لكي يثنوه عنها، لأن هواهم أضحى تبعا لما يرضي الله تعالى ورسوله ﷺ.

وَمَثَلُ النفس اللوامة والمطمئنة في تجنب المعاصي والمنكرات، كَمَثَلِ رجلين أحدهما يَضُرُّهُ شُرْبُ الشاي ويتسبب له في المرض، لا يشربه رغم رغبته في شربه، خوفا على نفسه من الهلاك

والثاني يكره الشاي، لا يشربه لأنه لا يرغب في شربه

فالشاي المعاصي والمنكرات، والرجل الأول النفس اللوامة، والثاني المطمئنة، فافهم مغزى ما قصدنا إليه، تعرف أفضلية الثاني على الأول

وأغلب الناس لا يَعُونَ تَلَقِّيَاتِ الروح القدسية، وإنما لا يعرفون غير ما يوسوس في نفوسهم، وحتى ما يوسوس في نفوسهم لا يميزون ما يكون منه من الهوى أو ما يكون من الشيطان لعنه الله تعالى، ولو ميزوا بينهما لكانوا أشد اتقاء للمعاصي مما هم عليه

ولو وعوا تلقيات الروح لفهموا ما يخاطرهم به الرحمن، وما توحي به الأملاك من بشارات الأمن والسلوان بإذن الواحد الديان، فكانوا أشد تقربا إلى مولاهم وأشد خشوعا وسكينة في كل آن.

فصل في قوله تعالى: "فتوبوا الى باريكم فاقتلوا أنفسكم، ذلكم خير لكم عند باريكم، فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم". البقرة53

كثير من الأولين فسروا قوله تعالى: فاقتلوا انفسكم، بالقتل حقيقة، أي القتل الفعلي، وهذا ما لا تقبله شرائع الرحمن في جميع الأديان، ولا يستسيغه عقل إنسان. ومنهم من فسره بقتل النفس، بمعنى دحضها ومحقها ومخالفتها فيما تدعو إليه من رفث وفسق وفجور، وهو أقرب إلى الصواب. إلا أننا في مقالتنا هذه، اقتضى منا الكلام توضيح المراد بالقتل في الآية الكريمة، حتى نبقى منسجمين مع ما يستلزمه المبحث مما قلناه في عنوانه: وما تستوجب النفس من حقوق عليه.

اعلم أخي الكريم، أن قتل النفس بمعنى محوها لا يُمَكِّنُنَا من عبادة الله تعالى وفق شريعة المصطفى ﷺ. فالشريعة سمحة في أحكامها، راعت حياة النفس ورغباتها، وخاطبتها بما يمنيها وبما يزعجها في آن واحد، فلولا حياة النفوس ما عمل الطامعون جاهدين يرجون الجنة ونعيمها وقصورها وحورها، ولولا حياة النفس ما عمل الخائفون دائبين، يتقون لفح جهنم وسعيرها. فلو خمدت النفوس ما طمعت في ذلك، ولا خافت من هذا، وماكان عمل أولئك وهؤلاء، وبطل التكليف واختل، وأصبحت الأحكام بلا جدوى، لا تحقق ما قصد منها لدى المكلَّف، إذ عادت تخاطب مُكَلَّفين بلا نفوس، لا يتفاعلون مع ما تغري به الأحكام مما يعجب، وما تحذر منه مما يروع، فافهم

وقد يقول القائل: نحن لا نعبد الله تعالى طمعا في جنته ولا خوفا من ناره، وإنما نعبده محبة وشكرا، فكيف يجري علينا ما يجري على غيرنا من الطامعين والخائفين؟

قلت: كيفما عبدتم الله تعالى، فما عبدتموه بغير نفوسكم، فما أحب الله تعالى من أحبه بغيرها، وما شكر له من شكر بسواها، ولو لم تجد نفوسكم مُنَاهَا في محبته وشكره ما أحببتم ولا شكرتم

فالنفوس حوافز القربى ومستودعات الخشية والخشوع، تلك النفوس المطمئنة

وَالْأَوْلَى أن نُقِرَّ بنفوسنا ولا نحرمها طيبات ما أُحِلَّ لها، وبذلك نتعهدها بما يصلح لها من طيبات، فإن الشرع دين ودنيا: وقد نُسِبَ إلى علي كرم الله وجهه قوله: اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، ولآخرتك كأنك تموت غدا. انتهى

وإنما نَرُدُّ مجاراة النفس في ارتكاب المحرمات والفواحش، وننصح بمواتاتها في إتيان الطيبات، حتى نجيء معها على قَدَرٍ، وفق ما يقتضيه الميزان الذي وضعه الباري عز وجل في السماوات والأرض

وقد يصير هوى المؤمن إذا أخلص قلبه لله تعالى مولعا بالطاعات والطيبات، متبرما بالمخالفات والخبائث، فيستريح صاحبه من مراقبته كلما مال إلى ما ينحرف به عن السلوك إلى الواحد الأحد. ومن تَنَكَّرَ للنفس وآذنها بالحرب حتى انطفأت شعلتها، وآوى إلى الروح وصاحبها ولم يعد له بنفسه صلة وتواصل، غلبت روحانيته على نفسانيته، فلم يستسغ أحكام الشريعة كما يجب أن تستساغ، إذ تعرض لها بشق واحد وهو الروح، وهي، أي الشريعة،

تخاطبه بشقيه الروح والنفس، فتزداد روحانيته وتلتبس عليه العقائد وتهجم عليه الحيرة في توجهه وخشوعه، ويخطئ معرفة مولاه بغير قصد. وذلك لأنه أساء التصرف مع نفسه وجحفها حقها بغير حق، فزاد في لبسه. ولو أنه اهتدى بهدي نبيه ﷺ لوازى بين الإثنتين، وواتى بين الأمرين، وركب البحرين، وما ذاق الأمرين

ما أحب المولى عز وجل شيئا أشد من حبه لمن نفخ فيه من روحه، فالروح منه وهو الباقي، والروح منه وهو النور، فكيف ينفخها في الإنسان وهو الفاني، ويودعها في هيكل ظلماني؟

ما غادرت الروح من نفخت منه، ولا النافخ غادر أصلها، وإنما هي أمر من أموره تعالى، هذا الأمر لا يتجزأ ولا يتبعض، وإنما ينتشر كالنور في ظلام الأرحام، ويسيح كالماء فيما دَبَّرَ من أوهام، ليست الروح الله، بل هي عنه في استقلال، وليس الله الروح، وإن كان بها في اتصال، فالوحدة فيهما محال، بل هو الواحد الأحد القديم عن الإحداث، الباقي عن الزوال

فالروح من الله موصولة بالغير، وهي وصل الوصلات وأغلاها بالنظر إلى الواصل، وهو الله، وبالنظر إلى الموصول، وهو خليفة الله تعالى في أرضه. وهي صلة الصلات من حيث شكلها ومن حيث كنهها ومن حيث ما تسري به بين الواصل والموصول. فالشكل عَزَّ عن الفهم وَقَصُرَ عنه الإدراك، إذ ليس لها شكل، أسمى من أن يُتَصَوَّرَ وأعلى من أن يُحَدَّ، بل هو أمر الله الذي استأثر بعلمه، لا يعلمه رسول ولا نبي ولا ملك من الأملاك.

وَالْكُنْهُ أَرَقُّ وألطف بأن يُقَابَلَ بأنواع صلات الحوادث فيما بينها. وما تسري به اللدنيات، ونفحات القدس المتعلقة بالذات، وما يخصها من صفات

وَسُمِّيَ جبريل عليه السلام روح القدس، لأنه رسول رب العالمين إلى الرسل والأنبياء أجمعين، يوحي بكلامه في روعهم، يتلقونه بأرواحهم وَتَعِيهِ نفوسهم، ولولا نفوسهم الصافية وأفئدتهم النقية، ما تهيأ لهم أن يَعُوا عن الروح ما تنزل من عنايات وألطاف، وذلك شأن نفوس العارفين، فما كانت كذلك إلا كان لها شيء من ذلك، وإلا فالأنبياء والمرسلون ليس سواهم هنالك

فأما تصفية الأرواح، فإنها، أي الأرواح، منزهة عن التصفية، لأنها نفخة من روح الله تعالى، وروحه نور وصفاء

وأما تصفية النفوس، فمما كدرها من أغيار، ولوثها من أقذار، فإذا تعهد العارف نفسه بما يليق لها من مطاوعة ومخالفة، حتى رَاضَهَا بعد جموحها، ودانت له بعد نشوزها، انفتحت على الروح تستمد منها الْحِكَمَ والألطاف، وتلهمها الكياسة والسكينة، بل مكنتها من التقاط بعض أنفاس الرحمن، فضاعت بعبير الإحسان، وزاد يقينها بالله، أليس الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك من حيث لا تراه؟

وهكذا يكون السلوك إلى المولى، لا يتعثر صاحبه ولا يتيه مغاليا في مجاراة روحه أو في التضييق على نفسه.

فما بالروح وحدها يعرف الله تعالى، وما بالنفس وحدها يدرك، بل بالروح والنفس، متى تَوَازَتَا في السير وتوافقتا في الحوار يعرف المؤمن ربه

وقد تجلى لنا هذا التوازي واضحا في هدي رسول الله ﷺ قولا وفعلا، فقد كان ﷺ يقوم الليل حتى تتفطر قدماه، ولكنه كان متزوجا يأكل ما لذ وطاب، ويلبس أحسن الثياب، إن توفر له ذلك، ولا يتقشف سوى إن عَدِمَ ما يتنعم به وألجأته الأسباب

وقد أخطأ عن غير قصد كثير من المشايخ الذين جاهدوا أنفسهم وبالغوا في جهادها، فحرموها ما أحل الشرع، فلم يحققوا معرفة الله تعالى كما يجب أن تحقق.

فصل في أن الروح عرشية نسبة إلى العرش، والنفس كرسية نسبة إلى الكرسي

قبل أن نعرض لهيأة النسبتين، ونوضح ما يقوم بينهما من بَيْنٍ، ليس في الآن وَالْأَيْنِ. نقول وبالله التوفيق لا إله غيره: العرش والكرسي كناية عن الحكم، فالأول أصل الثاني، ومنه مرجع الخلق والتكوين والقضاء والتدبير، والثاني محتوى كون التكليف، سماواته وأرضيه، وما فيهن ومن فيهن، وما يجري فيهما من تصاريف، وما يطرأ على عامريهما من أحداث وحوادث وتكاليف

فالعرش نظر الله تعالى إلى خلقه بما قضى في الأزل، والكرسي قبضته انضوت فيها الخلائق حسب ما انقضى ولم يزل

وإن شئت قلت: العرش اختص بما هو قدسي من التنزلات، والكرسي خُصَّ بما هو نفسي ليس من الذات

وإن شئت قلت: العرش وِدَادُ الْمُتَوَلِّهِينَ مَا تَوَلَّهُو، والكرسي سَدَادُ الْمُتَنَبِّهِينَ مَا تَنَبَّهُوا

وإن شئت قلت: العرش على غير المحارم حرام، والكرسي على القوائم قام

وإن شئت قلت: العرش هيام الهائمين بعد الفناء، والكرسي قيام الحاكمين على الهباء

وإن شئت قلت: العرش في أرواع رَاعَهَا سِرُّهُ وَكُنْهُهُ، والكرسي في أَتْبَاعٍ غَرَّهَا أَمْرُهُ وَنَهْيُهُ

وإن شئت قلت: العرش سَرَاحُ الأرواح مَا أَسْرَاهَا الصمد، والكرسي مملكة الأشباح ما أجراها إلى أَمَدٍ

وإن شئت قلت: العرش سكينة الملوك ما تَبَرَّمُوا بالرعايا، والكرسي ذريعة المملوك على البرايا

ولما جعل الملك العرش شعار ما قضى وقدر في الحوادث في كون التكليف، مبدأ ومنتهى، كل حادث حقيقة لا يشوبها تزييف، رَوَّحَهُ حتى لا يُشْتَهَى، وَنَفَحَهُ لِأُولِي النُّهَى، فاحتوى بأنفاسه جميع من قابله من أهله وناسه، يمدهم بالهمة في خفاء، ويلهمهم بالحكمة حتى لا يقتصروا على المكر والدهاء، فما هم بالشرع متى تَشَرَّعُوا يفهمون عنه، وما هم بالحكم متى تَحَكَّمُوا يحكمون به، عَرْشٌ ليس للأمر والنهي في الرعية، لا يدرك مغزاه سوى من نزهه سبحانه عن الحكم في البرية، واختاره من بين المالكين، ولم يجعل له سَمِياًّ، بَرّاً بعبيده ولم يجعله جبارا شقيا. ولما كان العرش روحا، كان جسده الكرسي، قوائمه على أفئدة عزمها إنسي، تعلقت بطبعه، وطبعه ينسي، واشتهت حكمه، واشتهاؤه نفسي

فالروح عرشية لا غرض لها في امتلاك شيء، والنفس كرسية ترغب في امتلاك كل شيء، فإن رغبت أيها الطالب عن الممتلكات بالمرة، انمحوت في العرش انمحاء العجز في القدرة، وإن رغبت في الممتلكات، تملكتك الممكنات ولم ترجع سوى بالندم والحسرة

14/01/2026 15:45 تنزيل كتاب - 1-50 صفحات - MAFAHIM

ثم شَرَعَ الباري عز وجل موضوع العرش في الأزل، فكان موضوعه الماء ولم يزل، فجعل الماء روحا تَوَلَّاهَا العرش فيما تَوَلَّى، وجسدا وَالَاهُ الكرسي فيما وَالَى. وأخرج الوجود من الماء، فجرى جريانه بأمره، بعد أن هاج وماج، واستقر على الأرض والسماء، تراه في كل الفجاج، جسدا في الأجساد لا تقوم بغيره

فمن عرف كُنْهَ الماء، لم ينظر من خلق الله غيره خلقا، وَفَهِمَ سِرَّ الفناء والبقاء، ولم يعد يَهُمُّهُ أن يفنى أو يبقى، ومن جهل معناه ووزعه بين العناصر، تاه ضمن من تاه، وطاف يُعَدِّدُ المصادر

وبما حررناه مما تقدم من أن كون التكليف رأسه عرش الرحمن سبحانه، أقامه على الماء، أي قضى بأن يكون الماء مصدر خلقه. وهكذا نفهم قوله تعالى: "وكان عرشه على الماء". هود7

بمعنى قضى بأن يكون الماء مصدر خلقه، ولا نساير من رأى أن الله تعالى وضع عرشه على الماء، إذ العرش ما هو إلا كناية عن الرعاية والحكم، وإلا فالله تعالى تَنَزَّهَ عن احتياجه لعرش وكرسي يستوي عليه لكي يرعى خلقه ويدبر أمور خليقته. ولا داعي لذكر ما قيل في صفة استوائه تعالى التي يخالف كيفها كيف الحوادث، فكل من رأى من المجسدة أنه سبحانه استوى بمعنى جلس جلوس الخلق، فقد لَغَى بما لا يقبله العقل السليم بغير حق. وقد سُوِّدَتِ الصحف هباء بما قاله المتكلمة مما لا داعي لقوله من لغو ولغط، بل طاف المتفلسفة يحملون معاني العقيدة ما لا تحتمل، ويؤولون النصوص بما يوافق مذاهبهم، قاصدين توفيق مبادئ الدين مع ادعاءات الفلسفة، في حين أن الفلسفة هي التي يجب أن تتوافق مع الدين، لأن الدين دين الله تعالى، أما الفلسفة فهي من عند الإنسان المجبول على الخطإ والنسيان

https://fliphtml5.com/xdxqb/fygr/basic 52/212

فصل فيما أَوْهَمَ فيه الناس من أن الروح عَيْنُ النفس، وبيان تمييز الأولى عن الثانية بغير لَبْسٍ، وما يَتَرَتَّبُ عن هذا التمييز من وظائف هذه وتلك في أجساد الإنس

اِعلم رحمك الله تعالى، كما أوضحناه في كتب غير هذا الذي بين أيدينا، أن كثيرا من الأولين جعلوا الروح والنفس واحدا، فخلطوا بين وظائفهما بوهمهم، حتى ظنوا أن الروح تُسْأَلُ في القبر، وتحشر وتجازى يوم القيامة بالجنة وتعذب في النار، في حين أن الروح خَلِيَّةٌ من التكليف مُنَزَّهَةٌ عن الحساب، وهذا ما يشير إليه صريح التنزيل، كما في قوله تعالى: "ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم، اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون". الأنعام94

وفي قوله تعالى: "الله يتوفى الانفس حين موتها". الزمر39

فالروح نفخت من روح الله تعالى طاهرة نقية، وسترجع إلى ربها كذلك لا يشوبها شائب، ولا سلطان لملك الموت عليها، لا يقبضها ولا يخرجها من الجسد، ولا بقاء للروح في البرزخ مع نفوس الموتى، بل تعود إلى مصدرها، أي إلى روح باريها كما صدرت عنه أول مرة

وبالنظر إلى مخلوقات الله تعالى من حيث صلتهم بالروح والنفس، نقول وبالله التوفيق:

الملائكة تعقل نوراني بلا روح ولا نفس، والجن تعقل نفساني بلا روح، وباقي الحيوان وجود نفساني بلا روح، كفاه التكليف انعدام العقل فيه. وأما الإنسان فهو تعقل نفساني له روح. إلا أن تعقل الإنس ليس هو تعقل الجان، إذ الأخير أقرب في خلقه إلى الحيوان، فيترتب في درجة بين الإنسان والحيوان، ولو أنه إلى الحيوان أقرب.

وإذا كانت النفس هي الْمَعْنِيَّةُ بالأمر والنهي دون الروح، فنخلص بذلك إلى أنها مناط التكليف، في حين أن الكثير يحقرها، ولا يعترف بفضلها، بل لا يرى فيها إلا واجهة الأمر بالسوء والتدرج في الفسوق والفجور، وقد تقدم لنا، أن النفس هي علة الإيمان ومصدر الإحسان، فلا يفوتنا في هذا الفصل أن نفصل بين مهمة الروح والنفس، حتى يتسنى لنا سبيل التعامل مع هذه وتلك بما تقتضيه المناسبة

فأما في عالم الشهادة، فقد جاء التَّنْزِيلُ بما يَصْلُحُ للنفس ويصلحها، فلا داعي لتحصيل الحاصل بذكره وبيانه.

وأما في عالم الغيب، فاعلم رحمك الله تعالى، أن النفس قد تخرج من هيكلها وتنتقل في عوالم غير عالم الشهادة، دون أن يموت صاحبها

وقد تغادر صاحبها في نومه لقوله تعالى: "الله يتوفى الانفس حين موتها والتي لم تمت في منامها، فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الاخرى الى اجل مسمى، ان في ذلك لايات لقوم يتفكرون". الزمر39

فالله تعالى يتوفى الأنفس إليه في منامها، حيث هو أعلم، لا يدري بذاك غيره. فالنوم موت أصغر كما لا يخفى على أحد

14/01/2026 15:45 تنزيل كتاب - 1-50 صفحات - MAFAHIM

وقد تَسِيحُ النفس في المنام، فيراها صاحبها أو لا يراها، فإن رآها لم تكن إلا هو، مع التفريق بين ما هو رؤيا صادقة لا تحتاج إلى تأويل، وما هو رؤيا صادقة تحتاج إلى تأويل، وما هو أضغاث أحلام

فأما ما هو رؤيا صادقة لا تحتاج إلى تأويل، فهو من قبيل سياحة النفس، فقد ترى نفسك في قطر غير قطرك وأرض غير أرضك، تُكَلِّمُ أناسا تَعْرِفُ منهم وَتُنْكِرُ، كالملائكة والجن وغيرهم

وفي هذا الصنف الأول من الرؤى الصادقة التي لا تحتاج إلى تأويل نُمَيِّزُ بين قسمين:

الأول لا يعقل صاحبه نفسه في رؤياه، وهو شأن عامة الناس

والثاني يعقل نفسه في رؤاه، ويبقى على علم بأنه مضطجع في بيته، رغم أنه يرى نفسه في غيره

ولكن كلا الفريقين لا يتصرف إلا حسب ما شاء ربه، أي لا يتصرف من ذات نفسه، بل هو في رؤاه مُسَيَّرٌ من طرف مولاه. وقد سبق أن ذكرنا في مبحث الظاهر والباطن، أن الباطن لا اختيار فيه

وأما ما هو رؤيا صادقة تحتاج إلى تأويل، فكأن ترى ما لا يفهم معناه، فتسأل عن تأويله، ومنه ما جاء في قوله تعالى: "وقال الملك اني ارى سبع بقرات سمان ياكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر واخر يابسات، يا أيها الملأ افتوني في رؤياي ان كنتم للرؤيا تعبرون". يوسف43

ولعل تأويل الرؤى معجزة نبي الله تعالى يعقوب وابنه يوسف عليهما السلام، لقوله سبحانه على لسان يعقوب عليه السلام: "وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تاويل الاحاديث الآية". يوسف6

وممن عرف بالتأويل من التابعين، أبو بكر محمد بن سيرين البصري رحمه الله تعالى، الذي توفي في السنة العاشرة من القرن الثاني للهجرة

وقد صار التأويل علما يعتمد قواعد وأساليب كغيره من العلوم، ومن قواعده تأويل الرؤى بالقرآن الكريم. ومثاله: وحكي أن رجلا أتى ابن سيرين فقال: رأيت كأني أؤذن، فقال: تحج. وأتاه آخر فقال: رأيت كأني أؤذن، فقال: تقطع يدك. قيل له: كيف فرقت بينهما؟ قال رأيت للأول سِيماً حسنة، فَأَوَّلْتُ: "وأذن في الناس بالحج". الحج25 ورأيت للثاني سِيماً غير صالحة فَأَوَّلْتُ: "ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون".يوسف70 انتهى[9]

وقد تؤول الرؤيا حسب ما اصطلح عليه العرف، أو حسب دلالة معاني الأسماء، فمن رآى في منامه رجلا اسمه حسن أو مبارك، ليس كمن رأى رجلا اسمه مرة وحنظلة، وهكذا

ولكن الذي يتوارد إلى الذهن من مفهوم التأويل، بالاطلاع على ما ورد في سورة يوسف من رؤى وعدها أربعة: رؤيا يوسف لما رأى النجوم والشمس والقمر له ساجدين، ورؤيتا صاحبي السجن الناجي والهالك، ورؤيا الملك

---

[9] منتخب الكلام في تفسير الأحلام

https://fliphtml5.com/xdxqb/fygr/basic 54/212

قلت: يُتَبَادَرُ إلى الذهن أن علم التأويل علم إلهامي، أي هو هبة من الباري عز وجل، يهبه لمن شاء من عباده، ودليل ذلك، أن يعقوب عليه السلام فَهِمَ من رؤيا يوسف ما لا يفهم باستعمال القواعد والأساليب التي يعتمد عليها هذا العلم عند أهله، فما أول به ليوسف، لا يقتضيه ما ورد في رؤياه بالاعتماد على ما سبق، ومنه قوله تعالى على لسانه: "قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا، إن الشيطان للانسان عدو مبين، وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تاويل الاحاديث، ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق، إن ربك عليم حكيم". يوسف5-6

وأما ما هو أضغاث أحلام، فهو الأخلاط التي تتهيأ للنفس في المنام، ولا حقيقة لها، ولا تؤول بشيء، وإنما مصدرها رغبات النفس ومخاوفها، وقد تكون هذه الأخلاط من صنع الشيطان لعنه الله تعالى، يفزع به بني آدم ويصور لهم مشاهد الفحشاء والرذيلة

وقد تكون الرؤيا وحيا من الله تعالى إلى عباده الصالحين، بل إلى الأنبياء والمرسلين، كرؤية إبراهيم عليه السلام يذبح ابنه، فقد فهم منه أنه أمر من ربه فأذعن له

وكرؤيا رسول الله ﷺ بشارة فتح مكة. في قوله تعالى: "لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين". الفتح27

ويمكن أن نَعُدَّ الرؤى الصادقة سبيلا يُطْلِعُ به الله تعالى بعض عبيده على الغيب، فيرون بعض عواقب أمورهم قبل حدوثها. وقد ثبت هذا وتواترت أخباره لدى الناس. وقد يَحَارُ المؤمن في بعض أموره، وَيُعْوِزُهُ التصرف فيها، فيسأل ربه أن يرشده في منامه ويدله على ما فيه خير له في دينه ودنياه، فيكون ذلك بإذن الله العليم.

روى الإمام البخاري عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: " لم يبق من النبوة إلا المبشرات"، قالوا: وما المبشرات؟ قال: "الرؤيا الصالحة".

ولما أخلفت النفس وعدها، ونكثت عهدها، هل كان بوسعها الصدق في الوعد والوفاء بالعهد، وقد عهد المولى إلى أبيها عليه السلام من قبل فنسي، ولم يجد الله له عزما؟

يحايد بين النفس والإذعان وطأة الزمان وأكدار المكان، تراودانها عنهما، فلا تقوى على أن تقول: معاذ الله، وتعاودانها بالمراودة فلا تستعصي، تجذبانها إلى المهاوي جذبا، فتستسلم تارة وتقاوم أخرى، لا تفتأ عن الاستسلام والمقاومة، ولو استسلمت بالمرة اندرجت في نفوس الأنعام، ولو قاومت بالمرة لم تعد في الأنام.

هو يَكِلُهَا لما شاء، ويكلؤها بما شاء، وَيُوَكِّلُهَا على ما تشاء ولا تشاء

هذه النفوس الحزينة خانها العزم الذي خلت منه بالسليقة، وتوارت فيما عَنَّ لها من تَوَافِهِ السراب تحسبه ماء، وتمرغت فيما ظنته من الطيبات من أوحال، وتبدل أمرها من حال إلى حال

هكذا شاء، وإلا لما أنشأها، ولو أنشأها ما ابتلاها، هكذا الإله، أرسل بعض خلقه بعد أن قيده قبل إرساله بالميثاق، رغبه وحذره، أعزه وأذله، هداه وأضله، نعمه وعذبه، أماته فأقبره ثم أحياه ونشره

يَا صَاحِبِي، تُرَاكَ فهمت تقاسيم البلاء على سحنة الشقاء، حتى لا تغتر إذا بَشَّتْ في وجوه الطيبين بأسارير الغواية، وأقسمت بالأزلام على الحق ولا شيء غير الحق، تمنيك بالتقوى والغواية؟

في غمرة الإيثار والاستئثار تتضارب الأخبار، ولا تدري ما لك وما ليس لك، ولا تدري من تكون في هذه الدار، وما تكون في تلك الدار

فإن رَكَنْتَ للفاني دعاك إلى أن تعاني، وإذا أوحشك بَهَاهُ، فما بيدك أن تنساه. وإن استأنست بالباقي فلست كالبواقي، وإن أوحشك نَوَاهُ، فلا تطمع بأن تُنْسِيَكَ وَحْشَتَكَ قُرْبَاهُ

في سِلْكِ الماضين قد اندرجت دون أن تدري، وفي موسم الباقين تَدَرَّجْتَ في الذل والقهر، وفي زمرة الأحلام بعثت من قبل النشر

في كل هذه الأمثال، تحيى على غير مثال، ولكن لا تعي إلا ما أنت عليه في الحال، حجب عنك أين أنت وأيان كنت ومتى تكون، لكي لا تروعك الظنون، فتسعى في شؤون وشؤون، لا تموت في الحياة ولا تحيى في المنون. أليس ربك نسبك إلى ما لا تكون نسبة أصل؟ وَصَرَّفَكَ فيما ترضى وتكره، وَتَصَرَّفَ بما ترضى وتكره تَصَرُّفَ فَضْلٍ؟ سَمَّاكَ خليفته في أرضه، وما اسْتَخْلَفَكَ إلا كما يريد أن تَخْلُفَهُ، وما شاء أن تكون كذلك، إلا لأنه أعلم، يضع الموازين بالقسط، فافهم ذلك

مهما تعللت بما جبلت عليه من استعجال، لم يقبل منك تَعَلُّلَكَ، ومهما تَذَرَّعْتَ بأنك لا تملك شيئا في الأقوال والأفعال، لم ينفعك تَذَرُّعُكَ، إن رغبت عن الحق وانضويت في الضلال، فما أدراك أنك لست بهالك

عبادي، وقد بَلَوْتُكُمْ بالخلق تتماوجون، وبَلَوْتُكُمْ بِالرِّقِّ، وَزَيَّنْتُ لكم الوجود بالفنون، حتى كَلِفْتُمْ بالبقاء وَتَبَرَّمْتُمْ بِالْمَنُونِ، وأشقيتكم ضَنَكاً في البقاء، لا تعرفون الأمن والسكون، حتى إن أحدكم ليقول: يا ليتني لا أكون

لا تعرفون ما رَمَيْتُ إليه منكم، وإنما تعرفون أني ما خلقتكم سدى، لا تدركون ما حجبته عنكم، وإنما أنتم مُسَيَّرُونَ بغير هدى، ماذا لو كنتم تعرفون غايتي من الخلق، إذن ما اتخذتكم من بعض خلقي

أرسينا هذا الأمر على التقابل حتى لا يتعاطى لوجهة، وأجريناه في سجال وتداول حتى لا يميل إلى جهة، لا يستقر على حال، يسير في طواعية وارتجال، دارت فيه الدائرات بأوجاع الأطماع، فاترات، في غير دارات، تتهاوى تحت العرش في ذلة وانصياع، إذا شبت سرعان ما تشيب، وإذا هبت سرعان ما تغيب، وإذا أعجبت سرعان ما تعيب هذه المعالم في المشاهد، ما أعددتها شاهدات على الشاهد، سوى لتعرفوا أنني سيد في كوني على كل سائد، لا أثبته سوى على الأوهام، ولا أبثه في غير الرؤى والأحلام، أفعل فيه ما أريد، وما أريده حيرة العبيد، كل مؤمن عن التوحيد لا يحيد، وكل مسرف جبار في الأرض متعال عنيد

فاصرفوا عنكم مُنَاكُمْ في معرفة ما نُدَبِّرُ، وَأَدْبِرُوا إلى الاقتصار على ما قضى ربكم وَقَدَّرَ، فيما ذرأ وبرأ، ليس منكم معاند متكبر

تعالوا أَشْمُلْكُمْ برعايتي إذا تَدَاعَى شملكم في غوايتي، فأنا أعلمكم بمشيئتي وإرادتي

القائمون على التَّوَارِي في الورى، لم يَتَوَانَوْا ساعة عن مناجاتي في الحضرات، خبأتهم في عليين لما تهاووا كالفراش المكلوم في غيابات الأنفاس والإشارات، ليس لهم عَنَّا مَنَاصٌ، لما بادلوني بالمحبة والشكر والإخلاص، ما لهم من قبضتي خلاص. أخلصتهم لذاتي، وَخَلَّصْتُهُمْ مِنْ تَوَارُدِ الْخَطَرَاتِ، وَخَصَّصْتُهُمْ في الحاضر، وَخَلَّصْتُهُمْ من هموم الآتي

هُمْ أَنْجُمٌ ساطعة في هذا السراب، لا يراهم المكفوفون، أبصارهم هاجعة، في مضاجع التراب، ما خلقتهم سوى لي، وما خلقتكم سوى لهم، فمالي مالي ومالهم مالهم

أنا وإياهم عن الكون والشرع في براح، يجبرون الكون على السير إذا استراح، ويلجؤون الشرع إلى الإسرار متى باح، لا يجري عليهم ليل ولا صباح، بل هم الغافون في سكينة وانشراح

يمدون ما تدلى من آياتي بما بدأتهم من تدابير، ويستمدون ما بدا لهم من علامات أخفيتها بالابتذال في التعبير، ويحسبون أنهم عندي أبادلهم الأشواق، وهم يمشون بين الناس ملوكا بأمر العلي القدير، يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق

فصل في سِرِّ تَوَاصُلِ النفوس دَارِيَةً وَغَيْرَ دَارِيَةٍ، وتواصل الأرواح وهي سَارِيَةٌ، وما يَرْسُو من حكمة بهذا التواصل في الجارية

اِعلم رحمك الله تعالى ونور بصيرتك، أن النفوس مذ خلقت كانت في تواصل، إذ النفس واحدة، وإنما تتطلع من وحدتها اطلاع تعدد، وتسعى في الأجساد سعي تمدد، ولا تتجزء في العباد ولا تتحدد، وإن كانت تستقل في الشعور، وتمتاز بالتقوى والفجور. أما امتزاجها فهو ما طبعت عليه، فليست بأقسام متباعدة عن بعضها البعض بعد تماس، ولا هي في انقسام متحايدة في القياس. ألا ترى أنها في رغباتها متشابهة، وفي ما تكره سواء، وإن عَدَدْتَهَا واحدة تعددت فيك بما تفرقت في الأنام، فإذا أنت الأنامي الذي لا ينتصر لنفسه، وإذا أنت الْهُلَامِيُّ فَاضَ في بني جنسه

فإذا كنت كذلك، تَيَسَّرَ لك الخروج في النفوس مهما كان العدد، وأمددتها بما تيسر من مدد، وإذا عَقَلْتَ نفسك عَقَلْتَ، ولم يعد لها عليك سبيل، وأخذت بِعِقَالِهَا فَانْعَقَلَتْ، لا تزيغ ولا تميل، وطفت في الآفاق راشدا لا تَفْتُرْ، وغبت عن الأحداق، وصرت غيبا لا تُتَخَيَّلُ وَلَا تُتَصَوَّرُ، وسامرت نفسك في ليال لا تزول، لا تغويك بما تقول، وأصغيت للشيطان لعنه الله عند إصغائها، وعرفت ما يقصد من إغوائها، واستهنت بما يوحي اللعين، وأمهلته إلى حين

فإذا الروح أصبحت خَلِيلَةً، تُظَاهِرُكَ على النفس الكليلة، وتسافر بك فيما لا تقوى النفس على السفر فيه، وتباشر فيك ما أودعه المولى من السر فيه

فالروح على النفس أقامها الله رقيبة، تتابع ما يعتريها، وليست إياها، وإن كانت منها جد قريبة

فإذا توفى الله النفس عادت الروح إلى حيث هي في الحين، تنتظر يوم الشهود لتكون في الشاهدين

والروح إن عقلتها تسرح في اللدنيات، فلا تَسْرَحْ معها حيث سَرَحَتْ، حتى لا تذوب في الذات، ولكن جُبْ عوالمها بالمعروف، حتى تزيد يقينا وتستزيد فتزداد

ولن ترافقها في الجولات، إن ما قطعت عقبة النفس وما لها من صلات، فالنفوس لا تَعْلُو إن ثَبَّطَهَا الغبار، وقيدتها الأكدار. ومن نفض غبار النفس علا في الأقطار، ومن أعجبه ما هو فيه من ذلة وصغار، لَبِثَ يُعَرْبِدُ في المستنقعات الآسنة، لا يحيد عنها في ليل أو نهار

وإذا تلاقت الأرواح، فلا يكون إلا بإذن الواحد القهار، ولا يكون لقاؤها بغير انزياح، عن شؤم النفوس متى خمدت عن المجون والاستهتار، لما يسرحها المولى في الملكوت، ترتاح من عالم الناسوت، ولو أنها لا تغادره سوى حين يقضي ويموت

وأنت أيها الفاني بالنفس إنسان، وأنت أيها الخالد بالروح خليفة الرحمن، وأنت بالروح والنفس بديعة الواحد الديان

فامش بينهما بالمعروف، ولا تمل كل الميل عن هذه الحروف، فإن ملت للروح، استصعبت الحياة، وإن ملت للنفس، أغرقت في الشهوات، وراعيت البدايات واستهنت بالنهايات، حتى إذا فاجأك المسطور، ناديت بالحسرة والثبور. فاستيقظ أيها المعجب بنفسه من غفلتك، وارجع أيها المتعاطي لروحه من غيبتك، فما الله بغيرهما يعرف، فاعدل بين الغريمتين إن كنت لا تعرف، واعط كل ذي حق حقه ولا تسرف

فصل في قوله تعالى: "ويسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا". الإسراء85

اِعلم رحمك الله تعالى أن الروح من أمر الله تعالى، لا يعلم بأمرها إلا هو، واعلم أن ما تداوله الخلق من علوم ظاهرة منذ خلق الله تعالى الأرض إلى فنائها، ما هو إلا النزر من علم الله تعالى

فَيَوْمَ قَدَّرَ الله تعالى مقدار علوم الخلق جعله بمقدار، حتى لا يعلموا سوى ما شاء أن يعلموا، فعلموا شيئا وغابت عنهم أشياء، ولكنه سبحانه، عَلَّمَ بعض عبيده من الأنبياء والمرسلين وصالحي الأمة من العلوم، ما ضَنَّ به على غيرهم، ومنه قوله تعالى في نبي الله يعقوب عليه السلام: "وإنه لذو علم لما علمناه، ولكن أكثر الناس لا يعلمون". يوسف68

ويفهم من سياق الآية الكريمة، أن الروح التي هي من الله تعالى، لا يدركها البشر، ليس لأنها لا تُدْرَكُ، ولكن لأن إدراكها يحتاج إلى العلم الكثير، ولا يجزئ في إدراكها علم البشر الموصوف بالضآلة والهزال؛ وهذا المعنى بَيِّنٌ في قوله تعالى: "وما أوتيتم من العلم إلا قليلا". ولو كانت الروح لا تُدْرَكُ بِالْمَرَّةِ لَعَقَّبَ سبحانه بغير ذلك، وقال ما قاله عند السؤال عن الساعة في قوله تعالى: "يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي". الأعراف187

وإذا كانت الروح لا ينفخها الباري عز وجل من ذاته مباشرة، بل ينفخها ممن أسماه بالروح، وهو عندنا الروح الأول، وعند غيرنا الروح الأكبر، كما في قوله تعالى: "فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا". مريم16 فإن القرآن والسنة، لم يرد فيهما ما يدل على أن الروح خلق من خلق الله تعالى، وإنما هو، أي الروح، منه وإليه، فلا يسعنا أن نجزم بأنه ينضوي تحت الماء الذي أسس الله به وعليه جميع خلقه في هذا الكون، سماواته وأرضيه

ولعل محاولة معرفة كُنْهِ الروح، هي من قبيل محاولة الخوض في أمور الْعَمَاءِ، الذي هو من خواص الألوهية وشؤونها، والروح أكبر شأنا من الملائكة من وجهين:

الأول: لأن الروح من الله تعالى بلا خلق ولا إنشاء، والملائكة عباد مكرمون من عباده

والثاني: لأن الملائكة أنوار بلا أرواح، أما الروح فهو ألطف من الأنوار وأنفس، بل وأبلغ في انتسابه إلى الله تعالى ورجعته إليه

ولا يمكننا أن نزيد على ما قلناه، حتى لا نتجاوز ما خَوَّلَهُ لنا ما أوتينا من معارف، ونخوض في أمر من أموره بلا علم

فصل في منزلة الماء في الخليقة، وَسَرَيَانِه في المكوِّنات ظاهرةً وباطنةً خيالا وحقيقة، يَسْرِي في الظاهرة في العناصر، ويَسْرِي في الباطنة في السرائر

اِعلم رحمك الله أنه ما خلا مخلوق، سواء كان عاقلا او غير عاقل، أو كان حيوانا أو شجرا أو حجرا، من الماء، إذ الماء أصل الوجود وعلة الحياة. ومن هنا كان للماء شأن الرئاسة على جميع العناصر، فهو يرى فيها جميعا بمقدار، إن زاد أو نقص تغيرت في حجمها أو في طبعها وخاصياتها

ومن استقلال الماء عن غيره، أنه لا لون له في الألوان، مع أن لونه، وهو لا لون، هو أصل الألوان جميعا، فإذا كان عدد الألوان سبعة، مع العلم أن الوحدة في الوجود والموجودات سباعية توحدت فيها على ما شاء الله تعالى لها أن تكون، فإن لونه وهو لا لون، واشتماله، على سبعة ألوان في الآن، يدل على هيمنته عليها، كما هيمن على العناصر في الخلق

وقد تبوأ الماء في شرائع الله تعالى منزلا لم يتبوأه غيره من العناصر في العبادة، إذ جعله الباري عز وجل مُطَهِّراً من الجَنَبَاتِ والْأَنْجَاسِ والْأَدْنَاسِ، ونَعَتْنَا إياه بالتطهير، لا نعني به التطهير الحسي فحسب، بل نعني كذلك التطهير المعنوي. فإن الجُنُبَ مَهْمَا غسل شعره وجلده، لا يُجْزِؤُهُ ذلك، سوى إن اغتسل الْغُسْلَ المشروع، والأكثر من ذلك، ما ورد في قوله تعالى: "وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الاقدام". الأنفال11

وأما سريان الماء في السرائر، فذاك ماء ليس هو الماء الساري في العناصر، إنه الماء على حقيقته، وليس الماء في خليقته، إنه الماء أول مرة، ذاك الذي قام عليه عرش الرحمن في هذا الكون، حسب ما اقتضته الإرادة وجاءت به القدرة

ماء لا لون له ولا حجم ولا وزن، وكأنه غير موجود، وكأنه روح الماء، لا تراه المبصرة رؤية الحوادث، ولا تنظر إليه نظرها للمشاهد، بل يدرك في السريرة بالبصيرة، ويوجد بالروع. فالملائكة أنوار ليس كما يتوهم البعض أنوارهم، وكأنها أنوار الضوء والشموع، بل أنوارهم مائية أَرَقَّ من النور الْمُتَوَهَّمِ وأشد وطأة على النفوس

وهذه الأنوار هي الماء نفسه، وهي من قبيل أنوار المؤمنين يوم القيامة. قال سبحانه: "ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن افيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله". الأعراف49

أما نور المؤمنين في الدنيا فهم في ذلك قسمان:

القسم الأول عامة المؤمنين: يشع من وجوههم نور الإيمان والخشوع والسكينة، قال الله تعالى: "سيماهم في وجوههم من اثر السجود". الفتح29

وهو نور يتولد عن النفس، وإن شئت هو نور دنيوي منبعث عن الحوادث

14/01/2026 15:45 MAFAHIM - تنزيل كتاب - 1-50 صفحات

والقسم الثاني عباد الله المقربون: تستنير وجوههم بالنور الأول المتولد عن الروح، لأن الله تعالى استخلصهم وميزهم عن عامة المؤمنين بذلك، ولا يكاد يهتدي لنورهم إلا من نوره الله تعالى بمثله، فترى وجوههم وكأنها مبللة بالماء، توحي لرائيها بالبشر والرحمة والسلام

ألا ترى إلى عيسى عليه السلام، كيف غلبت على جسده الروح، لأنه نفخة من روح الله تعالى لا والد له، حتى سماه الله تعالى روحا، فقال سبحانه: "إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته، ألقاها إلى مريم وروح منه". النساء170

ألا ترى كيف وصفه رسول الله ﷺ ليلة عرج به؟ ففي الصحيح أنه ﷺ قال: "وأما عيسى ابن مريم، فرجل أحمر، بين القصير والطويل، سبط الشعر، كثير خِيلان الوجه، كأنه خرج من ديماس، تخال رأسه يقطر ماء، وليس به ماء، أشبه رجالكم به عروة بن مسعود الثقفي". والديماس الحمام

أما نور الله تعالى فقد تنزه عن هذا وذاك، وإنما هو نور الله تعالى، ومن حكمته تعالى، أن وصف نوره في سورة النور، في قوله تعالى: "الله نور السموات والارض، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح، المصباح في زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، نور على نور، يهدي الله لنوره من يشاء، ويضرب الله الامثال للناس، والله بكل شيء عليم". النور35

فلا علاقة لنور الله تعالى بالماء، لأن الماء من حوادثه، والله تعالى ليس كمثله شيء، وقد اقتضت منا المناسبة تفسير هذه الآية العظيمة بما فتح الله تعالى به علينا من أفكار، فنقول وبالله التوفيق:

قوله تعالى: الله نور السموات والارض. المراد به أن كل مصادر النور المعروفة لدى الخلق ظاهرة وباطنة مصدرها نور الله تعالى، فقد بلغ نوره تعالى كُلَّ شيء، شاع في الظواهر في ظهورها، وسرى في البواطن في بطونها، فلولا نوره ما أشرقت شمس ولا أسرج قمر، ولولا نوره لاحتوت العتمة جميع الأرجاء وعمت الشجر والحجر والبشر

وقوله تعالى: مثل نوره كمشكاة فيها مصباح. المراد به: مثل نوره ليس في ذاته، كما يتوهم من ظاهره، بل في السماوات والأرض، لتقدمهما في السياق

قوله تعالى: كمشكاة فيها مصباح. والمشكاة كُوَّةٌ غَيْرُ نَافِذَةٍ يوضع عليها المصباح، يكون شكلها مقوسا في الغالب تقوس السماء، فلذلك مثلها بها، والمراد بالمصباح الشمس والقمر والدراري، لقوله تعالى: "وزينا السماء الدنيا بمصابيح". فصلت11

قوله تعالى: المصباح في زجاجة. هذه الزجاجة تحتوي المصباح وتعكس ضَوْءَهُ حين يَنْفُذُ من خلالها ويخرج مُشِعاً ساطعا

قوله تعالى: الزجاجة كأنها كوكب دري. والكوكب الدري نسبة إلى الدراري، الشديد الضوء والإنارة.

https://fliphtml5.com/xdxqb/fygr/basic 62/212

وَمَثَّلَ سبحانه الزجاجة بالكوكب الدري ليس في الماهية، ولكن في الصفة التي هي الضوء والإشعاع

أما قوله تعالى: يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية. فَفِعْلُ: يُوقَدُ، يرجع إلى المصباح وليس إلى الكوكب الدري الذي مُثِّلَتْ به الزجاجة كما حسبه البعض. هذا المصباح يوقد من شجرة مباركة زيتونة، وهي شجرة الزيتون المعروفة والتي ذكرها الله تعالى في قوله: "وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين". المومنون20

وهي شجرة باركها سبحانه في جميع ما أنزله من كتب سماوية

وقوله تعالى: لا شرقية ولا غربية. لا نقول فيه ما قاله غيرنا، من أن الشجرة ليست في شرقي بقعتها فلا تصل إليها الشمس من أول النهار، ولا في غربيها فيتقلّص عنها الفيء قبل الغروب، بل هي في مكان وسط، تَقْرَعه الشمس من أول النهار إلى آخره، فيجيء زيتها معتدلا صافيا مشرقا

أو أنها شجرة في الصحراء لا يظلها جبل ولا شجر ولا كهف، ولا يواريها شيء، وهو أجود لزيتها

بل نقول أنها شجرة زيتونة ليست كشجر الزيتون المعروف، بل هي شجرة زيتونة لا شرقية ولا غربية، أي ليس في شرق أرضكم ولا في غربها، لأن الله تعالى عبر في التنزيل في غير هذا الموضع بالشرق والغرب، والمشرقين والمغربين والمشارق والمغارب، يريد سبحانه جميع الأرض، كما في قوله تعالى: "رب المشرق والمغرب، لا إله إلا هو، فاتخذه وكيلا". المزمل8

ولا تقتضي تسميتها باسمها أنهما نفسها، ودليل ذلك تسميته تعالى سدرة المنتهى عند البيت المعمور بالسدرة وهي ليست كالسدرة في شيء، والنهران الباطنان في أصلها يقابلان نهري النيل والفرات، رغم اختلاف هذان عن ذينك.

عن مالك بن صعصعة رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: "ورفعت لي سدرة المنتهى، فإذا نبقها كأنه قلال هجر، وورقها كأنه آذان الفيول؛ في أصلها أربعة أنهار: نهران باطنان ونهران ظاهران؛ فسألت جبريل فقال: أما الباطنان ففي الجنة، وأما الظاهران النيل والفرات الحديث". رواه البخاري

فتكون الشجرة الزيتونة التي ذكرها الله تعالى في هذه الآية ليست في الأرض، وإنما هي عنده، حالها في ذلك حال سدرة المنتهى

وقوله تعالى: يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار. إشارة إلى نور ينبعث من الزيت بغير نار، نور لا يشبه الضوء، وهو نور الله تعالى في حقيقته، نوره الخفي الذي يمد السماوات والأرض بالنور عبر المصباح والزجاجة، وهو الضوء الذي نشاهده ينبعث من النَّيِّرَيْنِ وغيرهما، ذاك النور الظاهر الذي يراه المؤمن والكافر

فكان ثَمَّةَ نوران: نُورُ الله تعالى، وهو الأصلي الذي مثله سبحانه بالزيت الذي يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار، ونور النار الفرعي الذي يستمد مصباحه من الزيت. فالأول نور الله تعالى، والثاني نور حوادثه

فأما نور الحوادث فيراه كل الناس، وأما نور الله تعالى، فهو الذي لا يراه ولا يهتدي إليه إلا من شاء الله تعالى له ذلك، وهذا تفسير قوله تعالى: **نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء.**

وقد كان رهبان النصارى يعتقدون أن روح الرب، قد حل في زيت شجرة الزيتون، فكانوا يمسحون به الناس، ومن ذلك ما ورد في الإصحاح السادس عشر من سفر صموئيل الأول في الكتاب المقدس: **فأخذ صموئيل قرن الدهن ومسحه في وسط إخوته، وحل روح الرب على داود من ذلك اليوم فصاعدا.** انتهى

فصل في أن ابن آدم لا يكون تحت التكليف إلا وهو حي، وما يستوجبه معنى الحياة من تَرَكُّبِهِ من روح ونفس وجسد، وما يطرأ عليه إذا انتقص هذا التركيب

اِعلم رحمك الله تعالى، ان الله تعالى أنزل شريعته على بني آدم في الأرض وليس في السماء، ولا يكونون أَهْلاً لاحتمال ما تستلزمه هذه الشريعة، إلا وهم أحياء. ويقتضي الحكم بالحياة على ابن آدم جمعه بين ثلاثة: الروح والنفس والجسد، فهو بها جميعا يراعي أحكام الشرع ويتجاوب مع مبادئه بالفعل والترك

وَالْمَعْنِيُّ بالأمر كُلِّهِ النفس، أما الروح فما هي سوى مصاحبة إلى حين، وأما الجسد، فما هو سوى مسكن النفس ومأواها. وإن شئت: ما هو إلا آلتها التي تتصرف بها ووسيلتها التي بها تأتمر وتنتهي، فلا يُؤَاخَذُ بجرائرها، إذ الجسد يصاب ويسقم في الدنيا، ويعذب في الآخرة والنفس تعاني وتألم في هذه وتلك

وإذا مات ابن آدم بقي في البرزخ نفسا فحسب بلا روح ولا جسد، إلا أن تعلقه بهما لا ينتفي ألبتة. فالنفس وإن بقيت في البرزخ لا تغادر التطلع إلى جسدها ولو صار ترابا، وكأنها لازالت فيه، إلا أنها لم تَعُدْ تَقْوَ على التصرف فيه كما كانت في حياتها، وهي لا تفتأ تستشعر رفاته مهما اندثرت في أي موضع، وإن كان لها جدث أحست بمن زارها وفرحت بزيارته

أما الروح، وإن رجعت إلى باريها، فما رجعت إلا بسيرة النفس وطبعها في الحياة الدنيا، وما رجعت عنها على التأبيد، بل هي عائدة إليها يوم الحساب

ومتى بقيت النفس وحدها فقدت خاصيتين:

أما الأولى: فالتعقل، إذ لا تعقل بغير عقل، والعقل مبناه على الدماغ، وهو من الجسد الذي أعوزها، فلم تعد عاقلة كما كانت في حياتها

والثانية: حلاوة الخشوع وسكينة القربى، لأن ذلك كان يأتيها من الروح قبل موتها

فالنفوس في أرض البرزخ لم تعد تحت التكليف، بل هي تتفاعل فيما بينها دون تعقل، وتتجاوب مع ما يجري الله عليها من تصاريف، ولو أنها تكتسب خفة ولطافة لم تعهدهما وهي حية ترزق، لأنها بموتها انفلتت من جعبة التراب، وأفلتت مما يفرضه عليها من تثاقل ودناءة واكتئاب

وقد يكون ابن آدم نفسا فحسب وهو لا زال حيا، وذلك كما يقتضيه وجوده في الأرض الأصل، وهي الأرض الأولى التي تتحكم في أرضنا بالخير والشر. وكونه لا زال حيا، لا يجعل نفسه في استقلال عن جسده كما لو كان ميتا، بل إن وجود النفس الأول، لا يُمَكِّنُهَا من مغادرته، قبل أن يتوفاها المولى جلت قدرته. إلا أنها في الوجود الأول يطرأ عليها ما يطرأ في البرزخ من انتفاء التعقل

وقد سمى أرباب هذا الشأن أراضي أخرى غير ما ذكرناه، للنفس فيها مُتَعَلَّقٌ وَتَوَاجُدٌ، وحالها في هذه الأراضي هو حالها في غيرها

ولما يتوفى ربك النفوس في منامها، تبقى أو تسيح فيما سبق من مواضع وفي غيره، مما لا يعلمه سواه

أما البعث، فهو بخلاف ذلك، فإن النفوس لا تحشر من أرض البرزخ مباشرة إلى أرض المحشر، بل ترجع إلى أجسادها في الأرض، ولو صارت هباء، ينشر عليها سبحانه أجسادها التي ماتت عليها، وتنسل من الأرض وتحشر يوم الحساب، فتصبح بذلك نفسا وجسدا في آن واحد، قال سبحانه: "ونفخ في الصور فاذا هم من الاجداث الى ربهم ينسلون". يس50

وهو حُكْمُ يوم الحشر، أن يقف الورى أنفسا في أجسادها، فأما الذين شقوا فيدخلون النار وقد خلوا من أرواحهم، واما السعداء فيحيون في الجنة في ثلاثية الروح والنفس والجسد، إلا أن نفوسهم وأجسادهم لا تكون على ما كانت عليه في الدنيا

فالنفوس تكون راضية مطمئنة، وتكف عن عادتها في الأمر بالسوء والميل إلى الغرور والتباغض، والأجساد يطرأ عليها ما يطرأ مما يناسب حياتها في الجنان، فلا تعرف الدرن والنصب والهرم

وقد تتساءل أيها القارئ العزيز وتقول: إذا عرفنا أن النور في العوالم الغيبية هو أشبه ما يكون بالماء في صفائه وشفافيته، ناهيك عن أن الماء هو أصل الخليقة وهو علة الحياة، فها قد مثل الله تعالى في الآية التي تقدمت نوره في السماوات والأرض بزيت الشجرة المباركة الزيتونة، ولم يضرب مثلا لنوره بالماء؟

وأقول وبالله التوفيق: ما زاد الله تعالى بِالْمَثَلِ الذي ضربه لنوره في السماوات والأرض، إلا في تقديم الماء على غيره، والتوكيد على أنه أصل كل شيء، فإنه سبحانه بقوله: يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه. أثبت أفضلية الماء على الزيت، لأن الشجرة التي هي أصل الزيت لا تحيى إلا بالماء، ولا يعصر زيتها سوى إن رويت ثمارها بالماء، ولا زيت بغيره، وكمية الماء في الزيت غالبة

وفي العهد القديم: ابهتي أيتها السماوات من هذا واقشعري وتحيري جدًا، يقول الرب، لأن شعبي عمل شرين، تركوني أنا ينبوع المياه الحية، لينقروا لأنفسهم آبارا آبارا مشققة لا تضبط ماء. انتهى من سفر أرمياء الإصحاح الثاني

فصل في تصنيف الولايات حسب العناصر، وترتيب الآيات في كل صنف حسب المصادر، واختلاف أهلها في المقاصد والغايات، في الباطن والظاهر

اِعلم رحمك الله تعالى، أننا نظرنا إلى طبيعة الولاية وسلوك الأولياء وجذبهم منذ الزمن الغابر، فإذا هي، أي الولاية، متطبعة بطبائع العناصر، وإذا هم، سالكوهم ومجذوبوهم، سائرون على حسب ما يقتضيه طبع ولايتهم.

وقد دأب الفلاسفة وعلماء الفلك على نسبة الناس حسب طبائعهم إلى هذه العناصر التي تكونت منها جميع الموجودات، حكموا بذلك رجوعا إلى طبيعة البرج الذي ازداد فيه الإنسان، أو اعتمدوا على حساب اسمه واسم أمه بحساب الجمل الصغير أو الكبير وقسمة جملته على اثني عشر، فما فضل يمشي على البروج من أولها وهو برج الحمل، فحيثما وقف الحساب كان برجه، وكان طبعه من طبع برجه

ولما اقتضى انْتِسَابُ الإنسان إلى العناصر انْتِسَابَ خِلْقَةٍ اتِّصَافَهُ بصفاتها في حركاته وسكناته، بل في فكره ونفسيته، لم يكن اتصاف الولاية الإنسانية بصفات تلك العناصر بشكل أسمى وأرق من شكل اتصاف الحركات والسكنات والفكر والنفس

فالولاية عندنا إذن، أربع: نارية وهوائية ومائية وترابية

فأما الولاية النارية فتتصف بالانزعاج ويغلب عليها القبض، وتعتمد المجاهدة وقهر النفس بالتقشف والجوع. ويحتمل أهلها ما لا يحتمله البشر من الطقوس والعبادات، ويتهمون أنفسهم بالتقصير في أداء واجب الشريعة مهما أدوا، ويتسم مشايخ هذه الولاية بالتشدد في مخاطبة مريديهم وتابعيهم، ولا يتريثون قبل الدعاء بالهلاك على مخالفيهم ومن لا يسلم لهم ما هم فيه، ويتكلمون بلسان القدرة والاقتدار والقهر، من حيث ترتبهم في كنف القادر المقتدر القهار. وإن أوتوا التصريف صرفوه إلى خدمة التأديب، ولم يصرفوه إلى خدمة التأدب، فَأَلْقَوْهُ على الْمُصِرِّ حتى يتوب، وَأَتْبَعُوهُ قَاسِيَ القلب حتى يَرِقَّ ويذوب، وعلى المذنب في حق الخلق حتى يكف ويؤوب

وهم أقرب في سلوكهم، إن كانوا سالكين إلى الشريعة منه إلى الحقيقة، يتكلمون بها وَيُغْرِقُونَ في النَّذِيرِ، يأمرون وينهون، وَيَتَوَعَّدُونَ بالعذاب والسعير

تعرفهم بسيماهم لَا يَكُفُّونَ عن الْحِرَاكِ، ولا يَفْتُرُونَ من الْعِرَاكِ، وجوههم صارمة، وأعينهم حاسمة، وألسنتهم قاصمة

وإن كانوا مجاذيب، دار كلامهم على الإقلال من شأن الدنيا وأهلها، وَحَضُّوا على الزهد فيها بعد نيلها، واجتناب تمنيها متى أدبرت بخيلها ورجلها

تُعْوِزُهُمُ السكينة، وينتابهم الإضطراب بين الفينة والفينة، وما اضطربوا إلا لأنهم يحملون هموما لا تليق بما هم فيه وعليه في السفينة

14/01/2026 15:45 تنزيل كتاب - 1-50 صفحات - MAFAHIM

من اتبعهم خرجت الدنيا من قلبه بالمرة، وتكدر صفوه بين الناس من فترة إلى فترة، وتثاقل عن مسايرة الزمان على حين غرة. فلم يَحْلُ له طعام ولم يهنأ له منام. وهم الذين قال الله تعالى فيهم: "تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون". السجدة16

ومنهم سيدي الشيخ أبو يعزى يلنور بن ميمون الهسكوري رحمه الله تعالى، من صلحاء المغرب الأقصى في أواخر القرن السادس الهجري.

فقد كان هذا حاله، وكانت ولايته نارية يغلب عليها طبع النار من اضطراب وقدرة وقهر واقتدار، فكان رحمه الله تعالى يفضح المذنبين في الملإ، ممن قصده من الزوار، ويتصرف في الوحوش والكواسر بقوته واقتداره، ويقهر نفسه بالجوع والسهر في الليل والنهار

وهكذا تكون ولاية النار، حامية عتيدة متشددة، ويكون مشايخها أشداء لا يكاد يرضيهم شيء. وذلك لا يخرجهم عن سلك أولياء الله الصالحين نفعنا الله ببركاتهم، ما داموا يتسمون بسماتهم، يحقرون أنفسهم ويرحمون الخلق كافرهم ومؤمنهم، ولا يرون لأنفسهم فضلا على أحد

وأما الولاية الهوائية: فهي ولاية المجاذيب، فإن طبع الهواء فيهم، لا ينسجم مع السلوك، ولا يستقر على رتابة التشريع. وهؤلاء الأولياء، لا يُولُونَ الشرع حقه، بل يُفَرِّطُونَ عن غير قصد في بعض الفرائض، ولا يلامون على ذلك، إذ لا حول ولا قوة لهم في تفريطهم، فالمجذوب يكون أحيانا في حكم المجنون، لا يسري عليه التكليف، ولا يُؤَاخَذُ بما يقول ويفعل

كما أن أولياء هذا الصنف من الولاية لا يؤسسون لأنفسهم مذهبا، بل ولايتهم هواء، كل يوم هي في شان، يحكمها المزاج، وِلَايَتُهُمْ مِزَاجِيَّةٌ تَتَقَلَّبُ تَقَلُّبَ أمزجتهم. فمرة يخالطون الناس، ومرة يَخْتَلُونَ بأنفسهم ويشتكون من الضَّجَرِ من الخلطة، لا يكادون يستقرون على حال، لا يُرِيحُونَ ولا يستريحون، هم في نَقْلَةٍ وارتحال

يُخْطِؤُهُمْ من لا يعرفهم ويحسبهم ضالين، وهم قائمون على الحق، أو يحسبهم خَلَطُوا وهم أولو الألباب وأهل الفطن، لا تنال منهم الفتن، ولا تَفُتُّ عزمهم المحن، لأنهم لا يستوعبون المجريات، ولا يتأثرون بالأحداث والمحدثات

في ولايتهم فرح وانشراح، وفي تصرفاتهم خشية وجلال

والهوائيون أغلبهم يعرف مولاه بفطرته وطبعه، إذ أن نفوسهم يغلب عليها العفاف، وقلوبهم يسودها الألفة والإئتلاف

نزعوا للحرية في مواطن الرِّقِّ والتملك، لا يملكهم أحد ولا تَسْتَرِقُهُمْ شهوة، ولا يلتفتون للمال وما يغري به من نعيم في زوال. فيهم زمرة من السائحين، ساحوا لما اسْتَوْخَمُوا المقام، وسافروا ليس فيهم من استقر وأقام، كلما عَمَّرُوا حَضَراً غادروا إلى الجبال والآكام، وكلما عاشروا بشرا هجروا وتركوه في سلام

https://fliphtml5.com/xdxqb/fygr/basic 68/212

تعرفهم بسيماهم، تقتحمهم عين من لا يعرفهم، لِمَا يرى من هيأتهم ولباسهم، ويرفع من شأنهم عامة الناس، لما يُظْهِرُهُ الله تعالى عليهم من دلائل الولاية

دعاؤهم مستجاب، يدعون للناس وينسون أنفسهم، وكلامهم مستطاب، عند جهرهم وهمسهم، ليس عليهم من عتاب، ما تَفَلَّتُوا من قيدهم وحبسهم

هم الطلقاء لا يسعهم شيء، كالهواء ينتشرون في كل شيء، وينفذون من كل شيء، ولا يحجزهم شيء من الأشياء

وهم الذين قال رسول الله ﷺ فيهم: "رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره". رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه

إذا لقيتهم فسلم لهم ما هم فيه، وأكرمهم بما استطعت، يكافئك المولى بفضله ويغنك عن السؤال

ومنهم سيدي عبد الرحمن المجذوب ابن عياد بن يعقوب بن سلامة الصنهاجي الدكالي رحمه الله تعالى، من صلحاء المغرب الأقصى في النصف الأول من القرن العاشر الهجري

وأما ولاية التراب: فهي الأوضح في سلوكها، والأثبت في سيرها، وهي الأقرب في الولايات إلى مراعاة الشريعة في البدايات والنهايات، ولا أقصد أن غيرها لا يراعي الشريعة، وإنما المراد، أن هذه تقف على حروف الشريعة وقوف الظاهر، وتتعامل مع النَّقْلِ التعامل المباشر. وهي بمثابة مذهب أبي محمد علي بن حزم الأندلسي الظاهري عند الفقهاء، يستنبط الأحكام من ظواهر النصوص، ويطرح الأخذ بالرأي والقياس والاستحسان والمصالح المرسلة وسد الذرائع، وشرع من قبلنا وما إلى ذلك. أما باقي الولايات غير الترابية، فهي تعتبر النصوص اعتبارا، وتفهم مقصود الشرع بطريقة أرق وأذكى، حتى مِنْ طُرُقِ الفقهاء المجتهدين أنفسهم، ومن أمثلة ذلك: أنها لا تُكَفِّرُ كثيرا من الموحدين ممن حَكَمَ الفقهاء بكفرهم، بالنظر إلى ظاهر النص، وقد لا تُبَدِّعُ قوما رماهم الفقهاء بالضلال والابتداع، بل قد ترى في ابتداعهم تَقَرُّباً إلى المولى عز وجل. كما أن مشايخ الولاية الترابية، لا يَتَجَشَّمُ المريد عندهم مشقة للوصول إليهم والجلوس بين أيديهم، فهم لا يكادون يغادرون مواضعهم، وهم يباشرون ويتعهدون مريديهم في كل الأوقات، يجلسون في الحِلَقِ ويحدثونهم بما ينفعهم في دينهم ودنياهم

هم أهل تجمعات ووظائف وأحزاب، تكاد الولاية تكون عندهم محاكاة وإرثا يرثه الأبناء عن الآباء والأجداد. يندر كلامهم في الوجدانيات، لغلبة طبع التراب على سلوكهم، والتراب لا يناسب الوجدانيات، لأنه أسفل العناصر، ولا يلائم لطافتها لأنه أكثفها وأثقلها

كما أن هؤلاء الأولياء، لا يَسِيحُونَ في الأرض كغيرهم، بل هم أهل تفرغ إلى الله تعالى، وأهل تحنث واختلاء. يعتبرون الفتح الأكبر التزاما بأحكام الشريعة، وتحقيقا لمقامات السلوك، فتخلو فيهم المواهب والكرامات، وتكثر الرؤى والبشارات. يحبون الله تعالى ورسوله ﷺ، ويكثرون من الصلاة والتسليم على الحبيب، ويذكرون الله تعالى

آناء الليل وأطراف النهار لا يَفْتُرُونَ. وقد لا يوافقون غيرهم من أهل الولايات الأخرى، في كثير من أقوالهم وأفعالهم، ويرون ما يقولونه ويؤتونه خروجا عن هدي سيد المرسلين ﷺ

سيماهم في وجوههم، تعرفهم بالتزام السنة في المأكل والملبس والمنام، لا يستهينون بشيء منها، مُتَعَمِّمُونَ مُلْتَحُونَ مُسْتَاكُونَ، يحافظون على صلواتهم في المساجد ويمشون في الظلم، لا يُفَرِّطُونَ في نافلة من صلاة وصيام، يُفْشُونَ السلام ويطعمون الطعام ويصلون والناس نيام. وَمَنْ تَرَكَ فيهم شيئا من ذلك نَبَذُوهُ وَرَمَوْهُ بالزيغ والضلال. تجد فيهم تعصبا لطوائفهم وتفضيلا لنهجهم عن نهج غيرهم، ومنهم من يعتبرون أنفسهم الفرقة الناجية من بين الفرق التي ذكرها رسول الله ﷺ في حديث انقسام أمته إلى فرق

فإن قلت: فما يُخْرِجُ هؤلاء إذن عن المتشددين من فرق السلفية، وقد سميتهم أولياء ونسبتهم إلى إحدى طوائفهم؟

قلت: يفترقون عن السلفية بتمشيخهم على من يدلهم على طريق السلوك، ممن يراعون رقائقه، ويرفعون من شأنه ويتبركون به وبغيره من الأولياء موتى وأحياء. ويذكرون الله جماعة، وَيُولَعُونَ بِالسُّبَحِ، يذكرون الله بها في كل حين وآن. ويقرؤون كتب القوم مما لا يُعِيرُهُ السلفية اهتماما، كالرسالة القشيرية وقوت القلوب وإحياء علوم الدين

في وجوههم سمت الرحماء، وفي أفئدتهم أنوار البهاء، خشعوا في صلواتهم، وَصَدَقُوا في دَعَوَاتِهِمْ، وبكوا في خلواتهم.

ومنهم الشيخ سيدي أبو العباس أحمد بن محمد بن المختار بن أحمد الشريف التجاني رحمه الله تعالى، من صلحاء الجزائر في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري، إلا أن مذهبه أشع من المغرب إلى السودان وسائر جهات إفريقية.

وأما ولاية الماء، فهي أَعَزُّ الولايات وَأَرَقُّهَا في الإشارات وألطفها في العبارات، وأقربها إلى هدي سيدنا محمد ﷺ، وهي أصل الولايات التي نسبناها إلى العناصر، أصل الماء لكل العناصر

سلوكها عَذْبٌ سَلْسَبِيلٌ، وَنَهْجُهَا يقوم على الفهم والتَّاوِيلِ، رَقَّتْ حتى اختفت عن أُولِي الفهم القليل، وَحَقَّتْ حتى ظهرت بغير حرب ولا تقتيل

تسير بِمُقْتَضَيَاتِ التَّدْبِيرِ، لا تسير بذاتها، لا تختار متى عَرَضَ لها التَّخْيِيرُ، ولا تَتَفَضَّلُ على طائفة مهما جَازَ لها التَّفْضِيلُ

سَلِسَةٌ مَاوِيَّةٌ، وكأنها الزجاج تنفذ منه الأبصار، مُتَيَّمَةٌ هَاوِيَةٌ، أَضْنَاهَا الرِّبَاطُ على ماشَطَّ من رسوم وديار، مُحْجِمَةٌ مُنْطَوِيَةٌ، لا تَتَصَدَّرُ المجامع، ولا تَرْغَبُ في السمعة والاشتهار

أهلها هَيِّنُونَ رُفَقَاءُ كالماء سرى في الأودية سلسبيلا، أولئك أهل الصفاء، لا يُكَدِّرُهُمْ شيء وَتَصْفُو بهم الأكدار، لا يَقْبَلُونَ بصفائهم بديلا

في وجوههم تَمْوِيهٌ، من نظر إليهم غشيته السكينة والسلام، وفي نفوسهم عزة الاستسلام، وفي حركاتهم وسكناتهم تأدب الأمراء في العوام

هم الداعون إلى الله دون أن يَصْدَعُوا، السائحون في الآفاق هجعوا أو لم يهجعوا، الواقفون على المعارف والأسرار بما اسْتُوْدِعُوا

لا تحسبهم إذا رأيتهم إلا في السواد، لا يَتَمَيَّزُونَ بشيء عن العباد، ولا يعترضون في النوادي على كل قَوَّالٍ يعجبه الغرور والعناد

هُمْ كُبَرَاءُ في الناس ما اسْتُصْغِرُوا، عظماء في القياس ما احْتُقِرُوا، حكماء في الحيرة والالتباس ما اخْتُبِرُوا

نَفَحَهُمُ المولى بِسَيِّدِ البرية فهانوا، وَطَيَّبَهُمْ بعبير اللدنية فدانوا، وأرشدهم إلى السبيل السوية فما استكانوا

تعرفهم بسيماهم، في وجوههم فرح وسرور، وفي قلوبهم بشر وحبور، يحبون الخلق ويستغفرون لأهل الفسق والفجور، يرجون هدايتهم إلى ربهم الغفور الشكور

هُمْ أَمَانُ الأمة، بما تَيَسَّرُوا في الأحكام ويسروا على الأنام، وهم مصابيح هذه الظلمة، لِمَا أَنَارُوا سُبُلَ السالكين من صفوة الناس الكرام، وهم ذوو عزم وهمة، ما تَقَطَّعَتِ الأسباب توكلوا على الحكيم العلام، سكنوا في القمة، وادعوا أنهم يسكنون تحت الرغام

المارقون من دَوَالِبِ المقادير، يَتَّخِذُونَ لأنفسهم مفازات لا تَتَمَلْمَلُ ولا تسير، تَرُجُّهُمْ رَجاًّ، لا يُرَاعُونَ ما بَدَأَهُمْ من أمور يعجز عن إدراكها كل خَاسِئٍ حسير

اَلْمُتَبَدِّلُونَ في أعين الزاهين، حتى لا يَعُدُّونَهُمْ منهم فَيَفْتِنُونَهُمْ في سِجِّينٍ، وَيُقْبِلُونَ عليهم من حِينٍ إلى حِينٍ، وهم بالله عن كل ما يعليهم عالين، عن كل ما يعلو ويطير

أنشأهم زهورا تضوع في العالمين، لا يَتَنَسَّمُهَا إلا من شاء إن شاء، وَهَبَّاتٍ لا يتسلمها من أرخى أشرعة التباهي والخيلاء، وخبايا لا يهتدي إليها من تظاهر بالعلم من الجهلاء

يسقون عطش القلوب ما قَطَرُوا مِنْ مُزنِ الغيوب حتى تَرْتَوِيَ، وَتَيْنَعَ في الْمَسَرَّاتِ والخطوب، ويفيضون على القاسية قلوبهم من بحور الرَّحَمَاتِ، يَغْمُرُونَ تَعَنُّتَهُمْ واستكبارهم إذا ما صَدَرُوا عن الذات، ويقطعون أماني الزائغين ويهدمون اللذات، ما لهم بهم بغية، سوى أنهم يبغون لهم الهداية والنجاة

ومنهم: سيدي الشيخ أبو الحسن علي بن عبد الله بن عبد الجبار الشاذلي رحمه الله تعالى، من صلحاء المغرب في النصف الثاني من القرن السادس الهجري

وإننا والحمد لله على ما هدانا إليه وأقامنا فيه، ماويون شاذليون جعفيون، الأولى أصل الثانية، نَتَقَلَّبُ بين ثنايا الطوائف، ولا نعيب منها غير اللائق، بل نحن وإياها في اكتمال، وهي وإيانا في انحلال، والناس فيها مُسْتَوْحُونَ مما قلناه ومما يقال، نُبَلِّغُهُمْ شؤوننا من وراء حجاب، ونلقنهم فنوننا في ميادين الاكتآب، وَنُمِدُّهُمْ وليسوا دوننا مما أُمْدِدْنَا من أساليب الخطاب

نحن كالماء يسري في الشجر، والدم في عروق البشر، لا يبصرنا من فتنته مشاهد القدر، ولا يقدرنا إلا من انطفت في ناظريه كل الصور

نَتَلَوَّنُ بألوان قوس قزح، حتى إذا عَقَلَنَا الراؤون ولم نرض أن نفتضح، تموهنا بالماء فلم نتضح، فإذا نحن عظة لِلْمُنْتَصِحِ، أفصح عنا حالنا لمن شاء له مولاه أن ينفصح، لا يتضح أمرنا لمستفسر، مهما أَوَّلَنَا لم يَسْتَبِحْ

نضرب الأمثال للناس إذا قصروا عن الفهم، ونؤوي الرجال إذا عَبَرُوا من خيام الهم والغم، حتى إذا استأنسوا بالشجون، أسكناهم في سرادقات المنون، فَحَيَوْا في مَوَاتِهِمْ، واستوحشوا فيما كان وفيما يكون. فإن كان ذلك، أرجعناهم إلى البداية وحملناهم على جناح الهداية، وأمرناهم بالسير فاستحبوا المسير، وأخبرناهم أن سيرهم ماله من غاية، فإذا توجسوا مما صرفناهم فيه، بشرناهم بما صَرَّفَنَا فيه الْعَلِيُّ القدير، فأجهدوا أنفسهم في الوصول، وانبثوا يقطعون الأصول، لا يحققون فصلا من الفصول، فإن كان ذلك، لحقناهم على حين غرة، وَحَسَسْنَاهُمْ إلى الرجوع بقضيب القدرة، وَثَبَّطْنَا من خرجوا في أحلامهم وأمشينا أولي الهجرة

وقد أخذ بطريقنا الجعفي وثبت عليه إلى حين كتابة هذا الكتاب، أربعة أصحاب ممن ورد ذكرهم في كتابنا:

الاستبشار

وهم: حمزة بو الاعراف، الجيلاني، الملقب بالعبار؛ وحسن بو شعيب الجنوي، الملقب بمول البلاد؛ ورضوان بو جلايل الفخار، الملقب بالمصدق؛ وخالد بوضياف الساخي، الملقب بسيحون.

وقد شهدنا لهم شهادة وغيبا، دنيا وآخرة، بأنهم أخلصوا نواياهم في نصرة دين الله تعالى، وصفى الله تعالى سرائرهم، وتمت بهم ولهم هذه الطريق، واستحقوا أن يدعو الناس لهم بخير

ومن أراد أخذ الطريق الجعفي، الذي ما هو إلا تصحيح لما شاب الإسلام من بدع وترهات في الاعتقاد والسلوك، من أراد هذا الطريق، فليأخذه عن هؤلاء الأربعة، فإنا أجزنا لهم تبليغه في حياتنا وبعد مماتنا، فأن من شرب منهم، فإنما يشرب من معين سلسبيل لا يظمأ بعده أبدا

فجزاهم الله تعالى عنا وعن أمة المسلمين أحسن الجزاء، وبعثنا وإياهم يوم القيامة في زمرة خير الأنبياء ﷺ، وجعل ما أجراه على أيدينا وأيديهم مما فيه نفع للناس، صدقة جارية، إلى يوم الحساب. سبحانه لا إله غيره السميع القريب

فصل في قوله تعالى: "إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه". النساء170

اِعلم رحمك الله، أن الله تعالى مَيَّزَ عيسى عليه السلام في خلقه عن سائر العالمين، وليس المقصود بهذا التمييز في الخلق كونه أُنْشِئَ في خلق مغاير لغيره، وإنما يهم التمييز أنه خلق بنفخة روح الله تعالى في رحم أمه، أي أن أمه حملت به من غير أب، وإن شئت: خُلِقَ من غير نطفة، كما هو حال غيره من الناس. أما عنصر خلقه، فهو عليه السلام، لا يمتاز به عن غيره، لقول الله عز وجل: "إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم، خلقه من تراب ثم قال له كن، فيكون". آل عمران58

وكأن الله تعالى يَحَاجُّ به الذين اتخذوا عيسى عليه السلام ولدا لله تعالى، سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا، اتخذوه كذلك، بذريعة أنه لا أبا له، يَحْتَجُّ عليهم سبحانه بآدم الذي خلقه من تراب ثم قال له: كن، فيكون، من غير أب ولا أم، ومع ذلك لم يتخذه ولدا

ومن مظاهر هذا التميز، أن عيسى عليه السلام سبق النَّفْخُ فيه إلى رحم أمه، قبل الإنشاء، وإلا فالله تعالى يرسل الروح ينفخ في جميع أرحام النساء بعد تَكَوُّنِ الأجنة فيها، وليس قبل ذلك

قال سبحانه: "ومريم ابنت عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين". التحريم12

ولم تكن مريم عليها السلام، مؤهلة لحمله وهو كلمة الله تعالى وروح منه، لو لم يهيئها الله تعالى منذ صباها فقد نُذِرَتْ لله تعالى وهي لا زالت لم تَرَ النور بَعْدُ، وعكفت في المحراب، فغلب عليها الصفاء واتصفت بالطهارة والنقاء، حتى عَجِبَ نبي الله زكرياء عليه السلام، مما أوتيت من كرامات. قال سبحانه: "كلما دخل عليها زكرياء المحراب وجد عندها رزقا، قال يا مريم أنى لك هذا، قالت هو من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب". آل عمران37

وفي تَعَجُّبِ النبي من غير النبي اعتراف بالتفضل والمكانة، ولا نقول أنه اعتراف بالتقدم والأسبقية، لأن فضل الأنبياء عليهم السلام ومكانتهم لا يضاهيهم فيه غيرهم

وذلك أمارة الاصطفاء والتخصيص لمريم عليها السلام، فكأن الله تعالى ما اصطفاها وهيأها سوى ليوجد عيسى على ما هو عليه

قال سبحانه: "وإذ قالت الملائكة يامريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين، يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين". مريم43

وقد رَغَّبَ الله تعالى لها العبادة وَأَمَرَهَا بها، حتى تظهر روحانيتها على نفسانيتها، لأنه كما سبق ذكره، أن المؤمن لا تظهر روحانيته سوى عن قطع عقبة نفسه

وقد أوهم الكثير من أولي النهى حين حسبوا أن الروح الذي وهب لها الغلام هو جبريل عليه السلام، وذهبنا لغير ذلك كما بيناه في كتابنا: **السوانح**، في مبحث: الروح من روحه

وهو عندنا الروح الأكبر وليس جبريل عليه السلام، لأن جبريل مَلَكٌ، والملائكة لا تَهَبُ الولد وإنما تُبَشِّرُ به. كما في قوله تعالى: "**قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم**". الحجر53

أما الذي جاء مريم، فقد قال الله تعالى على لسانه: "**قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا**". مريم18

ولم يأت فِعْلُ الْوَهْبِ في التنزيل إلا منسوبا لله عز وجل. قال سبحانه: "**يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من ييشاء عقيما**". الشورى46-47

وقال سبحانه كذلك: "**ووهبنا له اسحاق ويعقوب**". العنكبوت26

كما أوهموا رحمهم الله تعالى، في عَدِّهِمُ الذي نادى مريم مِنْ تَحْتِهَا جبريل عليه السلام، في حين أنه عيسى عليه السلام، واستدللنا على ذلك بقرينتين:

الأولى قوله تعالى: "**فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سريا**". مريم23

فالذي كان تحتها هو عيسى عليه السلام وهو جنين في رحمها، لأن الرحم يكون من تحت المرأة، ومن غير المعقول أن ينحني الروح ويأتي من تحتها ليناديها، فيكفيه مناداتها وهو قائم قبالتها

والثانية: إشارة مريم إلى صَبِيِّهَا لما أتت به قومها تَحْمِلُهُ في قوله تعالى: "**فاشارت إليه، قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا**". مريم28

فالظاهر من سياق الآية أن مريم بإشارتها إليه، أوحت إليهم بأن يسألوه هو، ولم يَعْهَدُوا وَلِيداً من قَبْلُ ينطق ويجيب الناس عن تساؤلاتهم، اللهم إلا إذا كان هو الذي ناداها من تحتها، فعلمت بأنه يتكلم وأشارت إليه

وبهذا يكون عيسى عليه السلام ليس هو ممن تكلم وهو في المهد، بل هو أول من تكلم وهو جنين في رحم أمه لم يَرَ النور بَعْدُ. وكان أول ما قال: "**قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا**". مريم29

وفيه أمران: الأول أن ما نطق به عليه السلام في مهده اعتراف بالعبودية لمولاه، وكأنه كان يعلم أنهم سينسبون بُنُوَّتَهُ للواحد الأحد فَتَبَرَّأَ منه

والثاني: أنه عليه السلام بقوله ذلك، يكون نبيا منذ ولادته، بخلاف سائر الأنبياء والمرسلين الذين لم يوح لهم قبل بلوغهم الأربعين

ومن مظاهر تميزه عليه السلام عن باقي الرسل والأنبياء، أنه بكونه روح الله وكلمته، جاءت معجزاته ربانية لا تشبه غيرها من المعجزات. قال سبحانه: "**ورسولا إلى بني إسرائيل أني قد جيتكم بآية من ربكم، إني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طايرا بإذن الله، وأبرئ الاكمه والابرص وأحيي الموتى**

بإذن الله، وأنبئكم بما تاكلون وما تدخرون في بيوتكم، إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مومنين". آل عمران48

فمنها إحياء الموتى، والله تعالى هو الذي يحيي الموتى

وخلقه الطائر بكيفية خلق الله تعالى أبانا آدم عليه السلام. أي يخلقه من طين ثم ينفخ فيه، كما خلق الله تعالى آدم من طين ونفخ فيه من روحه

وإن قلت: فهذا خليل الله تعالى إبراهيم عليه السلام هو الآخر يُحْيِي الطير، أليس في ذلك انتفاء خصوصية المسيح في شكل معجزاته؟

قلت: إبراهيم عليه السلام لم يخلق شيئا، وإنما صَرَّ الطير حتى إذا ما ماتت دعاهن فَحَيِينَ وَأَتَيْنَهُ سَعْياً، أما عيسى عليه السلام فقد خلق الطير من طين بعد أن لم يكن، وأحياه بأن نفخ فيه، وذلك شأن الرحمن الرحيم في خلقه، وشتان بين هذا وذاك، فتدبر

ومعجزة إبراهيم عليه السلام في إحياء الموتى من معجزة الْعُزَيْرِ عليه السلام الذي ذكره الله تعالى قبل ذكر إبراهيم في الآية التي قبلها، والذي أماته مائة عام ثم بعثه، ونظر إلى حماره ينشر الله تعالى عظامه ويكسوها لحما، فالحمار كان ميتا فأحياه الله تعالى، ولم يكن منعدما فأوجده كما هو شأن عيسى مع الطير

ثم عن معجزة عيسى عليه السلام في إحياء الموتى بكيفية ما تقدم في الطير، أخبر قومه بأنه أوتيها وهو قادر على أن يجريها أمام أعينهم وهم شاهدون، أما إبراهيم عليه السلام فلم يكن إحياؤه الموتى معجزة على قومه، وإنما كان استجابة لسؤاله ربه الذي ورد في قوله تعالى: "وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى، قال أولم تومن، قال بلى ولكن ليطمين قلبي". آل عمران259

أما عيسى عليه السلام، فقد وهبه الله تعالى ما وهبه من غير سؤال، وإنما ليكون له حجة على قومه ودليلا على نبوته

وقد يقول القائل: إذا كان عيسى عليه السلام غَلَبَتْ روحانيته على نفسانيته، أليس ذلك إخلال بما تقتضيه الموازنة بينهما، وهو ما ذَكَرْتُهُ آنِفاً؟

فأقول: غلبة الروحانية في عيسى عليه السلام انطبع على شريعته، فجاءت رُوحَانِيَّةً هي الأخرى، تكاد تخلو من التشريع، ولا تعرف الحرب والجهاد، وقوي فيها الحلم والتسامح، ناهيك عن أنه لم يرث سوى طبع أمه الذي ليس من طبع الأب في شيء، الموصوف بالقوة والبأس، ولا يعارض ذلك ما ذهبنا إليه من قبل، لأن الدين لم يكمل إلا ببعثة البشير النذير ﷺ، أما الأديان السماوية السالفة فكان يشوبها النقص

ولعل غَلَبَةَ الروحانية في دين المسيح نَقْصٌ في الديانة، أما رسول الله ﷺ فقد وازى كما أسلفنا بين الأمرين، فكانت أمته أمة الوسط والاعتدال

وفي نهاية بعثة عيسى عليه السلام تميزت وفاته عن غيرها، كما تميز خلقه عن خلق سواه. فلم يمت كما يموت الناس، بل رفعه الله إليه، كما يدل عليه قوله تعالى: "إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا". آل عمران54

بل إنه علم الساعة، أي سينزل في آخر الزمان ليكون أمارة من أماراتها الكبرى. ولعل هذا التخصص في نبي الله عيسى عليه السلام، دفع النصارى إلى إطرائه بالتأليه والتقديس، وعده ابن الله تعالى، لأنه يفعل مثل بعض فعله، وما أَطْرَوْهُ وما أَلَّهُوهُ وَقَدَّسُوهُ إلا وهم يعلمون علم اليقين أن ربهم إله واحد أحد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد. "فتعالى الله الملك الحق، لا إله إلا هو، رب العرش الكريم". المومنون117

قال سبحانه: "وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم ءأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله، قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق، إن كنت قلته فقد علمته، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك، إنك أنت علام الغيوب، ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم، وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم، فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم، وأنت على كل شيء شهيد، إن تعذبهم فإنهم عبادك، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم". المائدة118-1120

وأما سيدنا محمد ﷺ فقد أَنْهَى به المولى ما بدأه منذ آدم، وأكمل به ما ابتدأه فكان الخاتم، فنسخ ما قبله من شرع غير لازم، وأثبت اللازم، فتجمع فيه من الخصال ما تفرق في الأنبياء، واجتمعت عليه وارفات الظلال من أفنان دوحة الشرفاء، يُقَلِّبُهُ في أصلاب الرجال كيف يشاء، حتى بُعِثَ في الناس على غير مثال، رحمة العاقل من أمته والبكماء

حَقَّقَ به ألوهيته بأن تَمَلَّكَ آداب العبودية لمولاه، وأفضى فيه بِالْهُوِيَّةِ، عبدا ليس كالعباد، ربه الله، وأجرى به الرواسي، من بعد أن أيقنت لا تقوم، وأرساها على المراسي، حتى تَنْتَشِرَ وتدوم

ظهر عليه من غير حجاب، لم يظهر على غيره ممن سواه، وأوحى إليه بما في الكتاب، وبعث له الروح الأمين يُقْرِؤُهُ حتى لا ينساه

قَدِمَ قبل قدوم التباشير، وأطلعه من علومه ما حَظَرَهُ على الكثير

البشير النذير، السراج المنير، أدبه ربه فأحسن الأدب، ودبره فأحسن التدبير، وحبره أيما تحبير، عبد الله من غير أرب، وشفيع في أمته من عذاب السعير

الرَّحْمَةُ المهداة، أَمِنَّا به ما جرحنا من آثام، وَشَرُفَتْ أمته ببعثته عن جميع الأنام، أن عَزَّ عليه ما نَشَبَ فيهم من شِجَارٍ، واستغفر لهم بالليل والنهار، حتى لا يشقوا وتمسهم النار

الرُّوحَانِيُّ ما فَتِأَتْ روحه من روح الله جارية، والنفساني دانت نفسه وأصبحت بالله راضية مرضية، فهو بين الروح والنفس عبد الله، لم يؤت بالأولى غير ما يواتي العبيد، وهو بالثانية نفس من أنفاس مولاه. يمتزج في حِيَادٍ عن الممتزجات، ويلتحم دون اتحاد بالوحدات، يفرق المجتمعات، متى اجتمعت عليه متفرقات، ويجمعها متى تفرقت

عليه مجتمعات. تحقق بشرع الميزان، وحقق التوازي بين الكفتين بعد رجحانها في جميع الأديان، واتخذ الوسط وهو سَارِبٌ قي المكان سَارٍ في الزمان

فإذا أمته خير الأمم على الإطلاق، حَوَارِيُّوهُ أولو هِمَمٍ، ليس منهم من يحتمل عنه الفراق، وَالْمُحَدَّثُونَ والأولياء يرجون رفقته يوم الجمع والتلاق

نشر الباري لنا بفضله طاويات الغيوب، وأذاقنا نفحات القدس لما تركنا الذنوب، وألبسنا لباس الْعِزِّ القشيب، وَأَذَابَنَا في محبته ذوبان الحبيب في المحبوب

صلى عليه الله ما انبعثت النفوس من القبور، وحشر الناس ليوم النشور، وما خطرت الساكنات فيما انتهى، وسطعت الفاتنات من سدرة المنتهى، وَسُخِّرتِ الكائنات لأولي النهى. أن كنا بمحبته مهتدين اجزه عنا خير جزاء المجازين، واحشرنا في أتباعه يوم الدين، واكتبه في عليين، وأته الوسيلة والفضيلة كما وعدته، واجعل كتابه في عليين

فصل في أن من تَلَبَّسَ بالروح تَزَامَنَ لَدَيْهِ الْمُجْرَيَاتُ بالماضيات والآتيات، وعلم من الغيب نصيبا على حسب استعداده لتلقي اللَّدُنيَّاتِ، وتصرف في بعض عوالم الملك والملكوت بما أذن له الرحمن مما قَدَّرَ وقضى في الحاضر والماضي والآت

ولا يستقيم له ذلك إذا استهان بنفسه واقتصر على الروح، إذ المعارف والغيوب على حسب التوازن تلوح، وبالتوازي يُحَصِّلُهَا صاحبها، وهو يغدو ويرزح بين النفس والروح

اِعلم رحمك الله تعالى، أن من اكتفى بالاستمداد من روحه تعلق بالقدسيات وخلا كشفه مما يلي الفضول، إذ الفضول وليد النفس، ولا يكون له بغية به إذا كان إليه لا يميل، فإن خانته نفسه ذاب في الفيوض النورانية، وَتَوَلَّهَ بمحبة الوهاب محبة لدنية، ولم تتعلق معارفه بالأرضيات، فقصر نفعها عن السفليات، وفاته فهم التاويل، ولم يعرف للتفرس من سبيل

وكأنه روح تتجاوب في الأنفاس، مع خالق الناس، بما يقاس وما لا يقاس، في شريعة العقل والاجتهاد والقياس، فما نفع الروحاني في العباد، وما جدوى الرباني في توخي السداد، وهو لا يعاني مشقة النفس ويترامى فيما بسطه الهوى من أبعاد؟

فالعارف النفسي يدل النفوس على ما يسعدها، وينهاها عما يفسدها، إذ تَعَرَّفَ من نفسه على السعادة والفساد، فهو في كلامه يراعي ضعف النفوس، وهو في مَلَامِهِ لا يراعي ما جبلت عليه من طمع وذلة وبؤس

وإذا نال نصيبه من الروح وهو نفسي، وكشف حجب الملكوت لم يَنْسَ سوى إن أُنْسِيَ، وما أُنْسِيَ، إلا لكي يميل إلى العرش ولا يبقى مع الكرسي

حتى إذا رجع من سَفْرَتِهِ عَاوَدَ ما رأى بِفِكْرَتِهِ، واعتبر وهو ذاكر، ما أشهد في غفلته، فخاطب الناس، وهو يقابل السفليات بالعلويات، وَتَبَيَّنَ له قِلَّةُ شأن الأولى، وعلم أيهما بالاتباع أولى

وَالْمُخْتَلُونَ، برفع اللام دون تشديد، ثلاثة أصناف:

صنف انقطع عن الناس واختلى بنفسه يقصد تأديبها وكبح جماحها، حتى لا توقعه في الموبقات. فَضَيَّقَ عليها وهو في خلوته، بِحِرْمَانِهَا ما تشتهي من مخالطة الناس واللغو فيهم باللغط والسفاهة من الكلام

أظمأ نهاره وأسهر ليله، وواضب على فرائضه في أوقاتها، وتلا آي القرآن، وذكر الله آناء الليل وأطراف النهار، يريد بذلك التقرب إلى مولاه، إلا أنه وهو في خلوته، لم يَدْرِ أن مجاهدة نفسه شغلته عن مولاه، فهو يكابد الجوع والسهر، ومشقة الحرمان من جميع اللذات، حتى ما أحل الله له من طيبات. وبذلك لا يذوق طعم القربى ولا يجد نفحات الأنس، وتبقى عباداته وأذكاره مُجَرَّدَ واجبات أوجبها على نفسه، يجهد وينصب في أدائها

وهذا الصنف من الْمُخْتَلِينَ تَرَدَّدَتْ أخباره في كتب القوم، إذ قام سلوكه على المجاهدة والتقشف، فلا تجده إلا باكيا حزينا على تفريطه في حق الله تعالى، فَيَغْلُبُ عليه الخوف على الرجاء، فيخطئ معرفة الله تعالى كما أَمَرَ أن يُعْرَفَ، فالله سبحانه يعبد بالخشية والرجاء، وليس بالخوف، فإنما عبادة الخوف شأن العبيد الذين يخدمون أسيادهم خوفا من السوط والتعزير. وَتَعَالَى الْبَرُّ الْمُنْعِمُ سبحانه أن يُعْبَدَ كذلك، ولله تعالى المثل الأعلى

وإن شئت: أهل المجاهدة يَتَّصِفُ سلوكهم بالقبض، فيكون دينهم متشددا منقبضا، ولو راجعوا ما أنزل الله تعالى في كتابه العزيز، لعلموا أنه تعالى لا يريد من عباده أن يَشْقَوْا في الأرض وينقبضوا، بل يريد لهم السعادة والانبساط. قال سبحانه: "ما أنزلنا عليك القران لتشقى". طه1

وَصِنْفٌ اخْتَلَوْا عن الناس لكي يُفْسِحُوا المجال لأرواحهم لمناجاة الواحد القهار، وَيُخَلِّصُوا نفوسهم مِنْ دَرَنِ الأكدار، حتى يستمدوا من مولاهم من الأنفاس واللطائف ما يَنْتَشُونَ به وَيَسْكُنُونَ إليه، في سكينة ووقار

فَتَرَاهُمْ في خلواتهم ساهمين في ملكوت المولى، يتفكرون في حكمته ويناجونه بالليل والناس نيام، ويبثون إليه الشكوى، ليس من ضيق الدنيا، وإنما هي شكوى الحبيب إلى المحبوب

وأكثر عبادتهم الذِّكْرُ وَالتَّفَكُّرُ، ولا يكادون يُجْهِدُونَ أنفسهم في خلواتهم، لأنهم اختلوا اختلاء فِكْرٍ وَتَدَبُّرٍ، وليس اختلاء صَبْرٍ وَتَصَبُّرٍ. فيغلب على كلامهم مواجيد الأحباب، وشكوى البعد والاقتراب، لا يكادون يفارقون التَّوَلُّهَ والمحبة، والبث والشكوى

وهو سلوك مطبوع بالأنين، معروف بما رَقَمُوهُ في كتبهم من رقائق الْوِدِّ والحنين، وأوردوه في تحقيقاتهم في شرائع الأحباب والمحبين. وهم بذلك بَقَوْا مع المحبة وَقَصُرُوا عن المعارف، والمحبة إحساس بلذة في القلب لدى العارف، أما المعارف فلا تأتي سوى بمكابدة شؤون يعرفها أهل الاعتدال والتآلف

وصنف اختلى اختلاء اعتدال، عَبَدَ وَتَفَكَّرَ في إدبار وإقبال، هَجَعَ وَاضْطَجَعَ حسب ما تقتضيه الأحوال، حتى إذا توجه لذي العزة والجلال، أسعفه استعداد جسمه بالراحة في طلب القربى والوصال، حتى إذا سجد لله تعالى متلذذا بأنعمه أجاد وأطال، وإذا حمده، حمده وهو يتمتع بآلائه مرتاح البال. فعرف كيف يعرف مولاه، واشتاق في خلوته وجلوته للقاه، لم يشغله عنه شاغل، ولم يأبه لما أصابه مما ابتلاه. فكانت معرفته من معرفة رسول الله ﷺ حين اهتدى بهديه، فعبد الله بالروح والنفس سيان، أراح واستراح، لا يشغل نفسه بفردوس أو جحيم، مُنْبَسِطاً في وحدته، مستبشرا بعفو مولاه الغفور الكريم

تلك عبادة أهل الاعتدال، وإخوة العشق والوصال، لا يَبْرَمُونَ بِخِلْطَةِ الناس، وهم واصلون بالله من غير اتصال، في انفصال عن الناس وهم بهم في اتصال. لم يترك حُبُّ الباقي سبحانه في قلوبهم موضعا لِحُبِّ الفاني، ولم يُلْجِئْهُمْ عِظَمُ شأنهم عند المولى إلى التعظم على بني الإنسان، كُفَّتْ نفوسهم عن الطمع لَمَّا كَفَاهُمْ بفضله عمن سواه، وَتَابَتْ عن الغرور والجشع، لما أعزها المولى بِعِزِّهِ وَوَهَبَهَا بَهَاهُ

المبحث الثالث: في الحياة والموت

أَأَحْيَى دُونَكُمْ وَحْدِي غَرِيبَا تُرَابِي بَعْدَكُمْ أَلْقَى حَبِيبَا؟
فَمَا الْمَحْيَا وَقَدْ أَفَلَتْ شُمُوسٌ مَتَى طَلَعَتْ أَبَتْ عَنَّا غُرُوبَا
لَبِثْنَا عِنْدَ لَحْدِكُمُ بُكِياًّ وَهَلْ يَشْفِي الْبُكَا هَذِي الْقُلُوبَا؟
لَعَمْرِي مَا نَسِينَاكُمْ بِحَيٍّ غَدَا مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمُ رَهِيبَا
فَعُودُوا مَا عَدَدْنَاكُمْ مَوَاتاً فَبَعْدَ الْمَوْتِ نَلْقَاكُمْ قَرِيبَا
فَإِنَّا إِنْ أَتَانَا لَا نُبَالِي فَبَرْدُ الْمَوْتِ قَدْ يُطْفِي اللَّهِيبَا
خُلُودٌ لَيْسَ مِنَّا ثَمَّ بَاقٍ شَبَاباً مَا حَيِينَا لَيْسَ شِيباً .[10]

تتقابل الحياة والموت، تقابل تضاد فيما بينهما: فالحياة البداية والموت النهاية، والحياة السيرورة والموت التوقف، والحياة البقاء والموت الفناء، والحياة الحضور والموت الغياب، والحياة الحركة والموت الجمود، والحياة التعاطي والموت الْكَفُّ.

وقد وصف الله تعالى نفسه بالحي، ومعناه عند أهل العقائد: الباقي حيا بذاته أزلا وأبدا، والأزل هو دوام الوجود في الماضي، والأبد هو دوام الوجود في المستقبل.

كما قرن سبحانه اسمه الحي باسمه القيوم في كثير من المواطن، إذ بحياة الله تعالى تقوم الأكوان، بما فيها ومن فيها. فهو حي قيوم، وهي مبالغة من قائم، والمراد شديد القيومية، دون نَصَبٍ، أي لا ينتابه في القيام والسهر على سير الأكوان تعب ولا مشقة، كيف وهو الله القائل: "ولقد خلقنا السموات والارض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب". ق38

ولو غفل سبحانه عن الكون، لتحطم بما فيه ومن فيه، ولكنه لا يغفل ولا ينام. فانظر إلى قوله تعالى: "الله لا إله إلا هو، الحي القيوم، لا تاخذه سنة ولا نوم". البقرة253-254

ومن مظاهر قيوميته تعالى في الكون، وُقُوفُهُ على المتقابلات المتضادة، حتى لا تتداخل وتختلط، فإنها متى كان منها ذلك، وقع خَلَلٌ في ميزان الاعتدال الذي وضعه الباري عز وجل يوم خلق السماوات والأرض، هذا الْخَلَلُ سيترتب عنه زَيْغُ أُمُورٍ عن مسارها الصحيح، وفي ذلك هلاك للأحياء من الحوادث واندثار لغير الأحياء

ومن هذه المتقابلات المتضادة، ما يدور عليه مبحثنا هذا، أي الحياة والموت

---

[10] من نظم المؤلف في الوافر

فإن الحياة والموت لا تداخل بينهما، والحي لا يعرف الموت، إلا ما يسمعه من الناس، وإما برؤيته الأموات في حياته

ولا يذوق المرء طعم الموت إلا وهو يحتضر

وكل حي مآله إلى الممات، وكل ميت لا أمل له في أن يحيى من جديد، ومن أحياه المولى عز وجل أماته، ومن أماته لم يحيه تارة أخرى

وقولنا، كل حي مآله إلى الممات، قد يُحْتَجُّ به علينا بعيسى كلمة الله تعالى عليه السلام، فهو لا يزال حيا لم يمت، منذ رفعه الله تعالى إليه

قلت: في هذا التساؤل جواب على من احتج علينا به، فإن عيسى عليه السلام لم يَمُتْ، ولو مات لما كان له أن يعود في أشراط الساعة، فقد قال تعالى في حقه: "وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم". النساء156

وقال سبحانه: "وإن من اهل الكتاب إلا ليومنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا". النساء158

وقال كذلك: "وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها، واتبعون هذا صراط مستقيم". الزخرف61

إلا أنه عليه السلام، متى نزل في آخر الزمان، لا يلبث إلا قليلا حتى يموت، لأن الله تعالى صانه عن الموت عنده، حيث لا تآكل ولا تقادم، ولما أعاده إلى الأرض جرى عليه التآكل والتقادم والفناء، فافهم

وإن قال قائل: فما بال عبد الله الخضر عليه السلام، ادعى كثير من العلماء أنه ما زال حيا، وقد أَسْلَفْتَ أن الله تعالى لم يجعل لبشر الخلد؟

قلت: أعجبني جواب ابن عطاء الله السكندري رحمه الله تعالى، على ذلك، فقد قال رحمة الله تعالى عليه: وَالْمُنْكِرُ لوجود الخضر معترِف على نفسه بأن مِنَّةَ الله عليه بلقاء الخضر لم تُوَاجِهْهُ، وَلَيْتَهُ إذا فاته الوصول إليها لا يفوته الإيمان بها. ولا تَفْتَرِ بما عساك أن تَقِفَ عليه من كلام أبي الفرج بن الجوزي في كتاب سماه: **عُجالة المنتظر في شرح حال الخضر**، أَنْكَرَ فيه وجود الخضر وقال: من قال إنه موجود فإنما قال ذلك لهواجس ووساوس وهوس قائم به. وَيَسْتَدِلُّ على عدم وجوده بقوله سبحانه: "وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد". الأنبياء34

فَعَجَبٌ لهذا الرجل كيف استدل بهذه الآية، ولا دليل فيها؟ لأنَّ الْخُلْدَ هو بَقَاءٌ لا موت معه، وليس هو الْمُدَّعَى في الخضر، إنما الْمُدَّعَى طُولُ إِقَامَةٍ يَكُونُ الموت بعدها، فاعجبوا رحمكم الله لرجل يصدق ببقاء إبليس وينكر طول بقاء الخضر. انتهى[11]

[11] لطائف المنن

فأما قولنا: الحياة بداية والموت نهاية. فيقتضي منا التساؤل حوله، فنقول: الحياة بداية ماذا؟ والموت نهاية ماذا؟

فاعلم أخي الكريم، أن الحياة بداية الوجود، والمراد بالوجود الكينونة

إلا أن وجود الأحياء ليس هو وجود الجماد

وإلا لكان الميت موجودا، رغم خلائه من الروح والنفس، ما دام جسده موجودا

وإنما المراد بالوجود عندنا لدى الأحياء، الحركة والإدراك، فكل مُدْرِكٍ حَيٌّ موجود، مهما كان، عاقلا أو بكماء، أو نخلة أو نحلة أو ما دون ذلك، ولو كان مِمَّا لا تراه العين المجردة

ومنه الإنسان، فهو حي موجود مُدْرِكٌ مُتَحَرِّكٌ، بثلاثيته التي يتركب منها وجوده، وأعني بالثلاثية: الروح والنفس والجسد

فلا تستلزم حياة الإنسان تَعَقُّلاً وَرُشْداً، أو خَلَاءً من العيب والنقص، بل كل ذلك يَنْعَتُهُ بالحي ما دام فيه نَفَسٌ، وما أشبه حياة الإنسان بغيره من المخلوقات الحية، حتى غير العاقلة منها، والذي فرض هذا التشابه، هو ذلك التوافق الكبير في الْخِلْقَةِ

فإن الإنسان، يأكل ويشرب ويتنفس الهواء، ويتزاوج ويتوالد، ويعيش فردا أو على شكل تجمعات، ويتقاتل فيما بينه؛ وكذلك حال باقي مخلوقات الله تعالى

فإن قيل: وما الفرق بينهما؟

قلت: بخلاف تميزه عنها بالعقل والروح التي لم تنفخ في سواه

فهو يتميز عنها بأن قَبِلَ الأمانة التي أشفقت منها السماوات والأرض

واستخلاف الله تعالى له في أرضه، والاستخلاف يستلزم من الْمُسْتَخْلِفِ، بجر اللام، أن يُمَكِّنَ الْمُسْتَخْلَفَ، بنصبها، من أسباب الاستخلاف. ولذلك وهب الله تعالى ابن آدم كل ما يخول له التحكم فيما خلق له من موجودات، حتى ظهر عليها جميعا

بل وأرسل إليه رسله وأنبياءه، حتى يُعَرِّفَهُ به فيعبده وَيُرَاعِيَ شرعه في السِّرِّ وَالْعَلَنِ، إذ بتلك المعرفة والمراعاة، سيحيى حياة طيبة، وهي حياة الأمن والسلام

وأما قولنا: الحياة السيرورة والموت التوقف، فالمراد بالسيرورة للحياة، سيرها كما أراد لها المولى عز وجل أن تسير، أي كما سبق ذكره، خضوع الحي لما يفرضه مضي الزمان من مُكْثٍ وَتَقَادُمٍ

وسير حياة البشر عامة يتبدل بتبدل الأوقات والأيام والشهور والفصول، وتفاعل الأحياء فيما بينهم، إما بالخير مما يعود عليهم بالنفع، وإما بالشر مما يعود عليهم بالضرر، ومما يعود عليهم بالنفع التزاوج والتكاثر، ومما يعود عليهم بالضرر الحروب والتقاتل. أما الموت فهو تَوَقُّفُ كُلِّ ما هو سائر مما ذكرناه في شأن الحياة، فإن المرء مهما مات انقطع وجوده في الحياة الدنيا، وتوقف عمله، ما تعلق منه بالدين وما تعلق بالدنيا، بل حتى الْمَلَكُ لا يعود يكتب

عليه شيئا، لأنه توقف عن الكسب والاكتساب عامة، اللهم إلا ما يجري عليه من صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له، وما يجري عليه مِمَّا خَلَّفَهُ مِنْ سُنَّةٍ حسنة له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، أو خلف من أذى لم ينقطع بموته، أو سنة سيئة عليه وِزْرُهَا وَوِزْرُ من عمل بها إلى يوم القيامة، لأن الجزاء من جنس العمل كما هو معلوم، فاللهم اجعل خير أعمالنا خواتمها وخير أيامنا يوم لقائك

وقصدنا بالتوقف انْتِفَاءَ الحركة في أرض التكليف، وإلا فنفوس الأموات في أرض البرزخ لا تفتأ عن الحركة إلى أن يبعثها الباري عز وجل ليوم الحساب

وأما قولنا الحياة البقاء والموت الفناء، فلم نَعْنِ بالبقاء بالنسبة للحياة، ما يُعْتَبَرُ بالنسبة للواحد الباقي عز وجل من ديمومة غير ملحوقة بعدم، وإنما عَنَيْنَا به الْمُكْثَ إلى أجل مسمى

والموت فناء وانقضاء، لأنه متى هجم على حي انقطع أجله وفني نصيبه في الدنيا بانقضاء عمره

وأما قولنا الحياة الحضور والموت الغياب، فالحضور المعايشة لسيرورة الحياة وشهودها، والغياب الانقطاع عن ذلك والانتقال إلى حياة البرزخ

وأما قولنا الحياة الحركة والموت الجمود، فالحركة بالنسبة للأحياء مهما ضئلت، كانت سببا للحياة ودليلا عليها، بل ومظهرا من مظاهرها، وأما الجمود، فَيَهُمُّ الميت الذي خرجت روحه وَسُلَّتْ نفسه منه، فبقي جامدا لا يتحرك ولو قَيْدَ أُنْمُلَةٍ

وأما قولنا الحياة الجريان والموت الركود، فهو من باب الحركة والجمود، إلا أن الجريان من صفات الماء، وكأن الحياة نهر جار لا يفتر عن الجريان، فإذا ركد فسد

وأما قولنا الحياة التَّعَاطِي والموت الْكَفُّ، فالمقصود بِالتَّعَاطِي تعامل الحي مع ما حوله من حوادث مكلفة وغير مكلفة، عاقلة أو غير عاقلة، كيفما كان هذا التعامل، ولو كان لا شأن له، وَالْكَفُّ انتفاء التَّعَاطِي

فصل في حقيقة الموت والحياة، وبقاء الحي الذي لا يموت وزوال سائر المخلوقات، سبحانه لا إله إلا هو، واحد في الذات والأفعال والصفات

اعلم رحمك الله أن الموت في التنزيل موتتان، فالأولى موات، لم يكن الإنسان فيها شيئا مذكورا، حتى أخرجه ربه وأحياه، والثانية وفاة، يتوفاه إليه ما أحياه دهرا أو دهورا، ويرجعه بعدما أخرجه.

ثم يحييه حياة لا موت بعدها، ولو كان من أصحاب الجحيم. قال تعالى: "ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ". إبراهيم20

والحياة التي لا موت فيها هي عين الحياة، وهي حياة الآخرة، أما حياة الدنيا، فهي حياة ضَنَكٍ وشقاء يُنَغِّصُهَا الموت، ولا خير في حياة يليها الموت، ولذلك قال سبحانه: "وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون". العنكبوت64

هذا شأن ظاهر الحياة والموت، أما ما يخص الباطن، فالحياة حياة القلوب والموت موتها، كما في قوله تعالى: "أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها". الأنعام123

وإن شئت، يكون العارف في عِدَادِ الموتى وهو بعيد عن مولاه، فإذا دَلَّهُ عليه أحياه، فإذا أحياه والتزم بشريعته وكف عن مجاهرته بالعصيان أماته، أي كفاه شر نفسه بأن حبب إليه الايمان وزينه في نفسه وكره إليه الكفر والفسوق والعصيان، وجعله راضيا بقضائه وقدره، فكان بذلك في حكم الميت لا تؤثر فيه التصاريف ولا تستميله الشهوات والملذات، فَحَيِيَ حياة لا موت بعدها، وقال له ربه: لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد. ق22

وما حَكَمَ الحي الذي لا يموت على عباده بالموت، سوى ليحقق صفة الحياة عند الفانين، فيعلمون أنه الباقي الذي لا يموت. قال تعالى: "كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام". الرحمن24-25

فلولا بقاؤه لما تشبث الفانون بالبقاء، فهو يُلَبِّي ببقائه رغبات الفانين في البقاء

ولولا حياته ما حيي العارفون بعد موتهم، فهو وإن ماتوا، بقي على حياته حتى لا يستغرقون فيه، ومتى حَيَوْا عرفوا بأنه الحي الباقي الذي لا يموت

واعلم رحمك الله تعالى، أنه سبحانه اخترع البدء والانتهاء حتى يُجَسِّدَ سَيْرَ الزمان وتآكل الحوادث عند الأوان، فكان الموت نهاية غير الثقلين من غير المكلفين، وكان بداية الثقلين من الإنس والجان في الحيوان الذي لا يتآكل فيه شيء ولا ينتهي في الجحيم والجنان

فالموت لغير المكلفين فناء وزوال، وهو للمكلفين نقلة وانتقال

ولو لم يَقْبَلِ الإنسان حَمْلَ الأمانة لَفَنِيَ وَزَالَ، كشأن مَنْ أَبَى التَّحَمُّلَ وَالاِحْتِمَالَ
ولكن في تحملها تمييز وامتياز، وخلافة وتشريف بهما امتاز، فإن استقام لم يندم على ما تحمل، وإن عصى تمنى أنه لم يسأل ولم يقبل

وسمى الباري عز وجل الموت مصيبة في التنزيل، لأن الحي لا يمل الحياة ولا يميل، ولو عاش ألف سنة ما قنع بالوجود، لأن الدنيا حلوة خضرة تستهوي الشهود

كما أن الحي لا يقوى على فراق أحبابه، فقد فطره الله على التعلق بوالديه وأهله وأقربائه، فيظن أنه إن مات انزوى عنهم في تُرَابِهِ، ويظنون أنهم سيبقون أُمَّةً بعد ذهابه، في حسابهم وليس في حسابه

ومن أكثر ذكر الموت في حياته هان لديه عند وفاته، ومن عرف حياة البرزخ لم يلتفت إلى لحده ورفاته

والبرزخ يشد النفوس حتى لا تتيه في مفاوز الفانية، وتعبث في شؤون عنها لاغية، فتباشر الأحياء بما لا يليق من أمور آتية، لم يعرفوها ولا ظنوا أنها تعنيهم في الباقية. سكارى في البرزخ قبل يوم الساعة يترنحون، يمشون بغير هدى ويستريحون، لا يعقلون ولا يدركون، يجتمعون ويتفرقون، في أرض كل يوم في شأن تكون، تتصور وتتشكل وتتلون، فيها يسيحون، لا يرتقبون ولا ينتظرون، وإنما هم نفوس بلا أجساد، وأشخاص أعياهم الشد وأنهكم الانسداد. وقد يخرج بعضهم على الناس يرونه في منامهم، ولا يكون ذلك إلا لاباإذن علام الغيوب، وإن خرج لم يكلمهم كلام الأحياء، لأنه من العقل خال، وهو بغير عقل يقول ما يقول غير مبال، فَيُفْهَمُ عنه شيء وَتُنْكَرُ أشياء، في الأقوال والأفعال. ومن دواعي خروجه إلى الورى شغفه ببعض ما ترك وراءه، من أمر الثرى، يزور أحبته ويسأل عما يجذبه في الرؤى، لمن يرى

والميت يكون في ثلاث في آن واحد، فهو موجود في القبر والبرزخ وفي عالم الشهادة، فإن زرته في قبره أحس بك وسكن، وإن لحقت به في برزخه لم يفطن، وإن زارك في الشهود لا يكون لرؤياه تاويل لمن حسب وظن.

فالميت في قبره يتلقى الرحمات، وفي البرزخ ينتظر ما هو آت، وفي الشهود زائر غير موات

ولم يجعل الباري سبحانه لبشر الخلد في الدنيا، وإنما جعل لبعضه التعمير إلى أجل غير مسمى، وإن عيسى عليه السلام لم يكن من الخالدين، ولو رفعه الله إليه في العالمين، فهو لا بد نازل بين يدي الساعة، شرطا من أشراطها، ثم يموت بعد حين

وقد رفعه الباري تعالى حتى يصونه عن ميدان التقادم والتآكل، ويبقى حتى يحين أجل نزوله فيتقادم ويتآكل.

فصل في قوله تعالى: "وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب، وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون". العنكبوت64

والمراد أن الدار الآخرة هي الحياة الحقيقية، وإن شئت: هي الحياة الأولى، أي الأجدر أن يحياها ابن آدم، وَالْأَوْلَى بأن يُرْضِيَ مولاه في الدنيا حتى يُحْيِيَهُ حين يلقاه حياة لا موت بعدها، حياة لا تعب فيها ولا نصب، يحياها فتى جلدا لا يعرف الهرم إليه سبيلا، ولا يُرَدُّ إلى أرذل العمر، ولو عاش ألف سنة

وبهذا تكون حياة الدنيا ليست هي حياة الآخرة من وجوه:

الأول: أن حياة الدنيا يحكم عليها الزمان بالبلى والتقادم والفناء، فما شَبَّ فَتًى إلا وشاب، وما علا بناء إلا وتداعى، وما عَمَّرَ قوم إلا وانقضت آجالهم

ولعل تحكم الزمان في حياتنا الدنيا يستلزم التتمة والانقضاء، ولكن بالإضافة إلى ذلك، يزيد مشقتنا في الدنيا صعوبة، فنحمل هموما يقينا الله تعالى منها في الجنة

فإن ما فاتنا في الماضي يدعونا إلى التحسر عليه، وما فاتنا لا نستطيع رَدَّهُ أو العودة إليه، وما يأتينا في المستقبل نتمناه ونأمله ونرجو ألا نخطئه

وفي كل ذلك مجال لحمل الْهَمِّ الزائد. أما في الجنة، فإن الزمان واحد لا يؤثر علينا إلا بخير، فكلما عمر أهل الجنة فيها، كلما ازدادوا فتوة وجمالا

عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: "إن في الجنة لسوقا يأتونها كل جمعة، فتهب ريح الشمال، فتحثو في وجوههم وثيابهم، فيزدادون حسنا وجمالا، فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حسنا وجمالا، فيقول لهم أهلوهم: والله لقد ازددتم بعدنا حسنا وجمالا، فيقولون: وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حسنا وجمالا". رواه مسلم

الثاني: أن حياة الآخرة لا تتطلب منا الأخذ بالأسباب من أجل العيش، فلا حرث ولا زرع ولا حصاد، ولا رعي ولا سقي، بل كُلٌّ مِنْ عِنْدِ الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب

بل حتى التكليف يرفع عن أهل الجنة، وإنما يلهمهم ربهم التسبيح والحمد، كما ورد في الصحيح عن النبي ﷺ، بمعنى أن تسبيحهم وتحميدهم يجري مع الأنفاس

الثالث: أن المرء لا يبقى على حال واحد، بل بإمكانه أن يغير شكله وصورته كيف شاء متى شاء

ففي مسند الإمام أحمد عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إن في الجنة سوقا ما فيها بيع ولا شراء، إلا الصور من النساء والرجال، فإذا اشتهى الرجل صورة دخل فيها الحديث".

الرابع: أن حياة الآخرة لا موت بعدها، فالله تعالى وعد المؤمنين بالخلود في جنته، ولا يمكن تصور هذا الخلود، فهو لا يعني البقاء، لأن البقاء لا يكون إلا للواحد الأحد سبحانه لا رب غيره، فهو، أي البقاء، حياة لا يلحقها

العدم، ودليلنا على أن الخلود ليس هو البقاء، هو أن الخلود من صفات المخلوقين في اليوم الآخر، أما البقاء، فلا يتصف به غير المولى جلت قدرته، وإلا لجاز لنا أن نصف الله تعالى بأنه خالد، وهذا ما يدخل في عداد ما يستحيل في حقه تعالى.

وَالْكُلُّ يَفْهَمُ من الخلود، أنه حياة لا موت يتبعها أو ينهيها، أي حياة إلى الأبد

وقد تسألني أيها القارئ النبيه: ما قولك في ما قاله الله تعالى: "فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك، إن ربك فعال لما يريد، وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك، عطاء غير مجذوذ". هود106-108

فأقول: يحتمل معنى الآيات الكريمة أمرين:

الأول أنهم خالدون فيها إلى أن تزول السماوات والارض، إذ الظاهر من سياق الآية، أن السماوات والارض لا محالة زائلتين

فمعنى قوله تعالى: مادامت السموات والارض، أي ما بقيتا قائمتين، ويوم تزولا ينتفي خلود الإنسان في الجنة، فيلحقه الموت والفناء

الثاني: أن السماوات والأرض سيبقيان دائمتين أبدا، وسيوازي بَقَاءَهُمَا خُلُودُ المؤمنين في الجنة

فصل في أن تَمَاسَّ الأزواج ما تَمَاسَّتْ، لا يكون إلا بأمر الواحد الأحد

اِعلم رحمك الله، أن الأزواج المتضادة، وهي المتقابلات كما أسلفنا، لا يحق لها أن تختلف وتتداخل، لأنه إن كان منها ذلك، انتفت الحكمة التي قام عليها الخلق، واختل ميزان الاعتدال، فلا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون

إلا أننا نشهد أنهما، أي المتضادان، يَتَمَاسَّانِ في مواطن مخصوصة، قدرها السميع العليم، ومن ذلك في الحياة الدنيا، تَمَاسُّ السالب مع الموجب، الذي ينتج عنه الغيث والمطر، وَتَمَاسُّ الذكر والْأُنْثَى الذي ينتج عنه الذرية، وتماس الماء والنار الذي ينتج عنه البخار، وهو أصل تكون السحاب

ففي هذه الحالات، يكون لابد من التماس، ولو لم يتماسا لهلك العالمون. وقد تتماس الحياة والموت عند الاحتضار، فترى المحتضر عند موته يحدث من حوله ويخبرهم عن الملائكة الذين جاؤوا لقبض نفسه

وفي ذلك التماس ذكرى وعبرة لمن حوله، أراد الله تعالى أن يخرجها لهم حتى يزدادوا يقينا

وقد يدفن الناس الميت ويوارونه التراب بعد أن تيقنوا من موته، ثم يَمُرُّ عليه مَارٌّ فيسمع أنينه، فيخرجونه من تحت التراب ويجدونه حَياًّ يخبرهم عما رأى في قبره مما لا شأن له بالحياة الدنيا

وقد يصاب المرء في بدنه بما يقتله، فيغيب وقد توقف قلبه عن الخفقان، وظهرت عليه أعراض الموت، ويرى نفسه مقبلا على عالم لا يعرفه، يكلمه أشخاص لا يعرفهم، وفجأة يبدأ قلبه في الخفقان من جديد، فيستفيق ويحكي للناس ما رأى

كما يمكن أن يحصل التماس في الدار الآخرة

فالكافر لا يموت في النار، حتى لا يَتَخَلَّصُ مِنْ أَلَمِ لَفْحِ النار، ولا يحي فيها، حتى لا يتمتع بالحياة، وفي ذلك أشد العذاب

قال سبحانه: "إنه من يات ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى". طه73

ومنه زيارة الميت للحي في منامه وتكليمه إياه، فإن الميت انقطع أمره في الدنيا، فأصبح ينتمي إلى عالم الأموات، ولكنه مع ذلك، قد يزور الحي في منامه، ويكلمه، لحكمة يريدها الباري عز وجل

ومنه إحياء عيسى عليه السلام للأموات وتكليمهم، فإنه ولو لم يحيهم إلا قليلا، إلا أن استيقاظ الميت وتكلمه مع الحي، يحدث تماسا واضحا بين الحياة والموت

ونفهم مما سبق، أن الأضداد المتقابلة، ثمة صنف منها لا بد له من التماس والالتقاء لضمان سيرورة الحياة

كما أن ثمة صنف آخر لا يتماس إلا لماما، لحكمة يريدها الباري عز وجل

وإذا تحدثنا عن التَّمَاسِّ كيف يكون والحكمة من كونه، فلا بد من الحديث عن التخالف والتردد بين المتضادات، فبدونه لا تكون حياة، ومن ذلك تخالف الليل والنهار، فبدونه لا تكون الحياة. قال تعالى: "قل أرايتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله ياتيكم بضياء، أفلا تسمعون، قل أرايتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله ياتيكم بليل تسكنون فيه، أفلا تبصرون". القصص71-72

ومنه تَخَالُف الحر والقر، فبدونه لا تكون زراعة

وتخالف الغنى والفقر، فبدونه لا يكون لأي منها أي معنى

كما هو حال الصحة والمرض والعدل والظلم، والعز والذل. وكما قيل: إنما يعرف الشيء بضده

وهكذا أَسَّسَ الباري عز وجل سِرَّ الوجود وَسَيْرَ ما هو موجود، على تفاعل الموجودات التي أوجدها على التباين، على أساس الإقبال والإدبار، والمودة والعداوة والحرب والسلم

فهي تتماس إن كان في تماسها نفع للعالمين، وإن تماست فهي تتماس بالضرورة، لأنها لم تخلق على التنافر، وإن طبعت بالتضاد

وهي تَتَرَدَّدُ على الْحَيِّزِ وتختلف على الوقت، إِذْ لو أن كلا منها بقي، لم يترك مكانه لمن يقابله، أو جرى عليه زمان لم يَنْقَطِعْ عنه ليخلفه ضده. لو كان ذلك، لتوقف المسير عن السير، وَالْمُجْرَى عن الجريان.

ولكي يتم ما ذكرناه من تماس وتخالف، لا بد له من محرك، فإن المتضادات لا انجذاب لبعضها البعض، كما يفرضه قانون التضاد، ولكنها تنجذب وتتداخل، وإنما يجذبها الخالق انجذابا ينتج عنه البلبلة عند تماسها، إذ في هذه البلبلة ما تقوم به الحياة من مواهب ومنافع

وإن المتضادات، لا داعي لتخالفها، إذ ما يُتَبَادرُ إلى الذهن، أن في تخالفها عدم استقرار في الكون، ولكن في تخالفها روعة في الكون وجمال، وتنوع وكمال، وإنما يخالفها المولى من أجل ذلك

والتخالف حال الآدميين، فإن الْمَلِكَ قد يصبح عبدا، والعبد قد يصبح مَلِكاً، والعزيز ذليلا والذليل عزيزا، والغني فقيرا، والفقير غنيا

وكما أن التآلف حال الآدميين، فإن الاختلاف طبعهم، ولولا اختلافهم، ما كان للحياة أي معنى

فلو استوت العقول، لما كان عالم ومتعلم

ولو استوت القوى، لما كان غالب ومغلوب

ولو استوت أحوال الناس في المال، لما كان خادم ومخدوم

فصل في الفرق بين الخلد والخلود وما يجري بينهما من وصل وصدود

بَيْنَ صَفَا الْيَنْعِ والخصب وَمَرْوَةِ الْيُبْسِ واليباب أَحَلَّ المولى ما خلق من خلقه، يَسْعَوْنَ بين هذه وتلك، أرادوا أم أَبَوْا، فلا هُمْ بالينع والخصب في حياة ما فتؤوا، ولا هُمْ باليبس واليباب في موت قد لبثوا، سَوَاءً أسرعوا أو تَرَيَّثُوا، لا ينفذون دون الصفا إلا بسلطان، ولا يجاوزون المروة، إلا إذا شاء الرحمن أن يكون بالإمكان

إذا تعددت المواهب أيها الصاحب المصاحب، فافهم معي شَرْعَ الْمُقْبِلِ والذاهب، والغادي والآيب، فلا المقبل ذاهب إلى من حيث أقبل، ولا الذاهب آيب من حيث ذهب

صاحبي أيها الفاني، تَتَرَاوَحُ الحوادث بين حَدَّيْنِ، ولا تُرَاوِحُ الضدين، مِنْ كُلِّ واحد منها زوجان، وإن شئت صنفان، وفي ازدواجها سِرِّ الحياة وَالْمُكْثِ، وفي انفلاقها اكتمال الخلق وحكمة البعث

وفي ازدواجها علة الانتشار والتكاثر، وفي انفلاقها داعي الصُّدُورِ وَالتَّصَادُرِ

وفي ازدواجها سكينة وتراحم، وفي انفلاقها تنوع وتفاقم

فهل يفطن الخلق لبعض ما أحوجهم إلى السعي لكي يكونوا، أم أنهم ساعون بالضرورة، لا يَهُمُّهُمْ بقاؤهم، آملين في الحياة، آيسين منها في قبضة الممات؟

وإن كان الموت تمام انقضاء، فما هو إلا ابتداء واستهلال للحياة الدائمة، سواء في الجنة أو في النار، فَكُلٌّ مُخَلَّدٌ، هؤلاء وأولئك

هؤلاء وأولئك، فيهما خالد ومخلد، إياك أن تُخَلِّدَ الباقي عزوجل، فإن الخلد والخلود من صفات الحوادث يوم القيامة، أما الواحد الأحد، فهو الباقي. الخالدون ماكثون في بقائه، والمخلدون ما فتؤوا في بقائه

جارى الخلود الخلد ووازاه على مَضَضٍ، فما استطاع أن يجري مجراه، مهما جاراه ووازاه، فما لهذا انقطاع، ولا لذاك اندفاع، بينهما سور لا يلتقيان، أقامه الواحد الديان

فإن قلت: فما علاقة الخلد والخلود بالبقاء؟

قلت: علاقة الخلد بالبقاء، من حيث تعلق المحدثين بالباقي، على سواء، ماكثين به على الدوام، ومهما مكثوا لا يبلغون ما لا يعرفون، وإنما العارف ببقائه الباقي، وإنما أهل الخلد عارفون بقصور الخلود عن خلدهم، عارفون بقصور خلدهم عن بقاء مولاهم عز وجل

وأما عن علاقة الخلود بالبقاء، فَالْأَوْلَى أن تسأل عن علاقته بالخلد، ما دام يأتي دونه، فلا شأن للخلود بالبقاء، وهو لم يتجاوز الخلد

ومهما خلد أهل الخلد لم يموتوا، ومهما خلد أهل الخلود لم يموتوا

فلا انتفاء للمعنيين بقيام معنى البقاء، وإنما ما أبهم في شأن بقائه، من جعل هؤلاء وأولئك يحاولون جهلا بعض صفاته

واعلم أيدك الله بفتحه المبين، أن ما عرضنا إليه في كتابنا هذا من مفاهيم، إنما يبقى على وجه التقريب، خاصة ما تَعَلَّقَ منه بالملكوت مِمَّا لم نَأْلَفْهُ في عالم الشهادة، مما لا عَيْنٌ رأت ولا أُذُنٌ سمعت ولا خَطَرَ على قلب بشر؛ فَأَنَّى للإنسان مهما تعددت لغاته، أن يعبر عنه ويصوغ مفهومه

ولهذا دأب كثير من أولياء الله تعالى الذين فتح المولى عليهم ببعض الفتوح، دأبوا على التعبير عنها بألفاظ وَصِيَغٍ يغلب على دلالتها الغموض، وذلك لسببين:

الأول: ما فتح به المولى عليهم قد يكون علما لدنيا لا يحتمل لَفْظُ التَّعْبِيرَ عنه، فاختاروا له من الألفاظ ما يُقَرِّبُ معناه إلى المستمع.

الثاني: أن ما فتح به المولى عليهم لم يدركوه بوضوح كامل، وإنما أحسوا به ووجدوه، أتاهم طفرة بغير تفصيل، فتحدثوا بما يَنْقُلُ إحساسهم إلى غيرهم دون توضيح

ومن هنا يفهم ما قصدنا إليه من الكلام على الخلد والخلود، فإنها من الألفاظ الوضعية في عالم الشهادة، تدل على أمور تتعلق بالغيب، فتبقى دلالتها نسبية لا أقل ولا أكثر

المبحث الرابع: في الرب والعبد

دَعِ اللهَ يا عَبْداً فَمَا أَنْتَ إِيَّاهُ   فَأَنَّى لِعَبْدٍ أَنْ يُضَاهِيَ مَوْلَاهُ؟
تَأَدَّبْ مَعَ الْمَوْلَى فَإِنَّكَ عَبْدُهُ   وَوَحِّدْهُ لَا تُشْرِكْ وَقُلْ: رَبِّيَ اللهُ
أُحَاذِرُ مِنْ رُوحِي إِذَا مَا تَأَلَّهَتْ   وَأُبْغِضُ عِصْيَاناً وَنَفْسِي تَهْوَاهُ
أُحَايِدُ رَبِّي رَغْمَ أَنِّيَ وَاصِلٌ   وَفِي وَصْلَتِي لَا رَبَّ أَدْرِيهِ إِلَّاهُ
إِذَا مَا رَأَيْتَ اللهَ فَاللهُ ظَاهِرٌ   مَتَى غَابَ رَبِّي كَيْ تُحَاوِلَ رُؤْيَاهُ
حُجِبْتَ عَنِ الْمَوْلَى وَرَاءَ تَوَافِهٍ   تَرَفَّعْ تَرَ الْمَوْلَى جَلِياًّ وَتَلْقَاهُ
وَأَفْرِغْ فُؤَاداً فِيهِ شِرْكٌ وَظُلْمَةٌ   فَرَبُّكَ نُورٌ فِي الْفُؤَادِ وَضِيَّاهُ .[12]

ولا يَعْرِضُ مبحثنا هذا، إلى الكلام عن علاقة الرب بعبده، بغير ما تكلمت به عقائد الإسلام، حتى لا نزيد ما لا حق لنا في زيادته، وحتى لا نَتَقَوَّلَ على الله تعالى ما لم يأت به التنزيل الحكيم والسنة المطهرة

وإنما غرضنا، أن نقرب هذه العلاقة إلى الأفهام، ونتأملها عن كتب؛ لِمَا يدعونا، ولا شك في ذلك، إلى مزيد من التفكر والاعتبار في ملكوت الواحد القهار

نبدأ بحول الله تعالى بذكر ماهية الرب في لغة الضاد، فنقول: قال ابن منظور: الرب يطلق في اللغة على المالك وَالسَّيِّدِ وَالْمُدَبِّرِ وَالْمُرَبِّي وَالْقَيِّمِ وَالْمُنْعِمِ

وقال: ولا يُطْلَقُ غير مُضَافٍ إلا على الله، عز وجل، وإذا أُطْلِقَ على غيره أُضِيفَ، فقيل: رَبُّ كذا

قال ابن منظور: الرب: هو الله عز وجل، هو رب كل شيء، أي مالكه، وله الربوبية على جميع الخلق لا شريك له، وهو رب الأرباب، ومالك الملوك والأملاك. انتهى من لسان العرب

قلت: وأما العبد، وهو المربوب، فمعناه في اللغة ضِدُّ الحُرِّ، وفي الاصطلاح هو عندي: كل ما خلقه الله تعالى من عاقل وغير عاقل، مكلف كالثقلين، أو غير مكلف كالملائكة، مما علمنا ومما لا علم لنا به

ولعل المربوب هو الذي أتاح لنا تسمية الرب، إذ لا رب بغير مربوب

كما أَتَاحَ لنا العبدُ تَسْمِيَةَ السَّيِّدِ، إذ لا سَيِّدَ بغير مَسُودٍ

وأتاح لنا المخلوق تسمية الخالق، إذ لا خالق بغير مخلوق، وهكذا

[12] من نظم المؤلف في الطويل

ولا نقصد بهذا، أن وجود الله تعالى رهين بوجود العبد، سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا؛ فمما يقتضي اتصافه تعالى بالغنى عن غيره، أنه لا يحتاج لسواه في وجوده وبقائه، وإنما المقصود عندنا، علاقة الأسامي فيما بينها بما تقتضيه لغة العرب

وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا المعنى فيما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: " والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، وجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم" .

إذ لولا ما نقترفه ونأتيه من ذنوب ونستغفره تعالى ما سمى نفسه بالغفور الرحيم. فافهم

وحتى نرتب علائق الله تعالى بخلقه العاقل، نبتدئ بالفصل الأول من هذا المبحث المبارك ونقول:

فصل في مكانة الملائكة من الواحد القهار، وَتَسْبِيحُهُمْ له بالليل والنهار، وَشِدَّةُ خوفهم منه تعالى، رغم أنه لم يَعِدْهُمْ بجنة ولم يَتَوَعَّدْهُمْ بنار

اِعلم رحمك الله تعالى أن الملائكة خَلْقٌ نُورَانِيٌّ فوق التكليف، كما نفهم من ظاهر شريعتنا السَّمْحَةِ، ونحن نطالع مانزل من آيات في شأنهم، وما أُثِرَ عن رسول الله ﷺ مما يهمهم من أخبار، نفهم أن الله تعالى قربهم إليه وأعلى من شأنهم، كما يدل عليه قوله تعالى: "**بل عباد مكرمون، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون**". الأنبياء26-27

ولا يَحِقُّ لنا أن نُمَيِّزَ في التفضيل بين ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، وَمَنْ مَيَّزَ بين هؤلاء وأولئك ضرب ضربة لازب، وادعى ما لا دليل له عليه

والذي يَحِقُّ لنا أن نُؤْمِنَ به، ما أَقَرَّهُ الدين من أنهم عليهم السلام، درجات عند ربهم، يَفْضُلُ بعضهم بعضا، بما قربهم الله تعالى ورضي عنهم، قال سبحانه على لسانهم: "**وما منا إلا له مقام معلوم**". الصافات164

وقد تحدثنا عن فِرَقِ الملائكة ودرجاتهم في كتابنا: **سوانح الخواطر**، فمن أراده فهو ذاك

ونفهم مما أنزله الله تعالى، أنه سبحانه، أَوْكَلَ إلى ملائكته عِدَّةَ مَهَامٍّ، منها ما يخص الملأ الأعلى، كحملة العرش، وعمار البيت المعمور

ومنها ما يَهُمُّ عالم الشهادة، ومنه تنزلهم على البشر وتحديثهم أو مخاطرتهم بإذن الله تعالى

إلا أن الله تعالى، لا يحتاج إلى مَلَكٍ أو إلى غيره من أجل القيام بكل هذه المهام، فهو القادر على كل شيء، القدير الذي لا يغلبه شيء، وإنما كان من حكمته تعالى في خلقه، أن كلف الملائكة بما كلفهم، وملأ بهم السماوات والأرض لِيَعْمُرَهُنَّ، وِفْقَ ما اقتضاه من تدابير في كون التكليف

وَاتَّسَمَتِ الملائكة، كما أسلفنا، بشدة خوفهم من الله تعالى؛ وذلك لقربهم منه، ومعرفتهم به أشد من غيرهم من الخلائق

إلا أنهم رغم خوفهم من بطشه تعالى، يحبونه حبا عظيما، لعلمهم برحمته وحلمه وإنعامه عليهم بالقربى إلى حضرته.

وقد أخبر التنزيل بأنهم جادلوا الحق سبحانه في خلقه آدم، ولن يَجْرُؤَ على مجادلته تعالى سوى من كان عارفا به موقنا برحمته وحلمه

ورغم حب الله تعالى لملائكته، فإنه يعتبرهم مخلوقات كسائر المخلوقات، وعبادا كسائر العباد، من عصاه منهم استوجب العذاب، ويدل عليه قوله تعالى: "وقالوا اتخذ الرحمن ولدا، سبحانه، بل عباد مكرمون، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون". الأنبياء26-27

وقد أمد الله تعالى المؤمنين في غزوة بدر بخمسة آلاف من الملائكة مُسَوَّمِينَ، مع أن عدد المشركين لم يكن يتجاوز الألف؛ ولو أرسل سبحانه مَلَكاً واحدا لكان كفيلا بِدَحْضِ أعداء الله تعالى ورسوله ﷺ، ولكنه مع ذلك أرسل هذا العدد الكبير، وما فعله إلا ليبشر المؤمنين بأن الله معهم وملائكته بين أظهرهم؟ قال سبحانه: "وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم". آل عمران126

ولعل الله تعالى، لا يُعَلِّمُ ملائكته ما لا ينفعهم فيما أَوْكَلَ إليهم، رغم أنه قد يُطْلِعُهُمْ على بعض غيبه.

وقد تسأل الْمَلَكَ عن أشياء يعرفها الصبي، وقد يجهل الإجابة، ولا يعرف شيئا مما سَأَلْتَ عنه

ولا دليل على ذلك أشد مما خاطب به سبحانه ملائكته الذين شهدوا بدرا، ودلهم على مقاتل المشركين، حتي يعرفوا أين يوجهون إليهم ضرباتهم. قال سبحانه: "فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان". الأنفال12

والملك يعبد الله يقينا، لا يساوره الشك في إيمانه، بل لا نَفْسَ له تدعوه إلى أن يَتَثَاقَلَ عن عبادة ربه

وقد أحاط سبحانه نفسه بهذه المخلوقات النورانية التي لا تعصي له أمرا

فجعل منهم حملة العرش، وأوكل إلى رؤوسهم مُهِمَّاتٍ جَسِيمَةٍ، كتبليغ كلامه إلى رسله وأنبيائه عليهم السلام، وقبض نفوس الخلق، والنفخ في الصور إيذانا بقيام الساعة، وما إلى ذلك

إلا أنه تعالى خَصَّ الإنسان عنهم بأن جعله خليفة في أرضه، ونفخ فيه من روحه، في حين، أن الملائكة لا روح فيهم ولا نفس، بل هم وجود نوراني خالص، أوجدهم المولى عز وجل، زينة للكون وَأُنْساً في الملك والملكوت.

واتسمت الملائكة بحبها ورحمتها للمؤمنين، لِمَا ثبت في القرآن الكريم، من دعاء حملة العرش للمؤمنين بالغفران.

قال تعالى: "الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا، ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم". غافر6

لذلك، كان مِنْ هَدْيِ رسول الله ﷺ، الذي وجب الاهتداء به، حُبُّ ملائكة رب العالمين والدعاء لهم بالخير. زادهم الله تعالى قربة إلى حضرته التي أهلهم لها

ولا نقصد إلى إطالة الكلام هنا عن صفات الملائكة وطبائعهم التي فُطِرُوا عليها، مما سبق أن ذكرناه في غير هذا االكتاب، تجنبا لِلتِّكْرَارِ

كما لا نتناول ما يتعلق بعلم العقائد فيما يخص ما يُعْتَقَدُ في مَاهِيَّتِهِمْ وصفاتهم، وإنما الذي يعنينا، علاقتهم بمولاهم الحق، وعلاقته تعالى بهم، لا أقل ولا أكثر

إنهم عليهم السلام، وإن خَلَوْا من التكليف، لم يكن خلقهم سُدًى، بل إنهم واسطة بين الله تعالى وخلقه، يتنزلون عليهم، أنبياء وأولياء، ويخبرونهم بما أوحى إليهم من وحي وخاطبهم من خطاب، بل ويحملون أخبار عباده المكلفين إلى رب العالمين، وهو أعلم

وقد يتساءل القارئ ويقول: كيف يسأل الله تعالى، وهو العليم الخبير، ملائكته عما يفعل عباده، وهو بهم أعلم؟

قلت: يسألهم وهو أعلم لسببين:

الأول: حين يسألهم عن عباده الصالحين، ويخبرونه بما يأتون من أعمال الْبِرِّ والإحسان، فإنه تعالى بذلك، يُشْهِدُهُمْ عليه، وَيُذَكِّرُهُمْ بما جادلوه فيه يوم شاء أن يجعل في الأرض خليفة، ورموا به بني الإنسان بالفساد وسفك الدماء، حتى يُقِرُّوا عليهم السلام، بِصِدْقِ ما أجابهم به يومئذ بقوله: **إني أعلم ما لا تعلمون**

والثاني: يسألهم الله تعالى عن عباده ويجيبونه في شكل حوار مُفَصَّلٍ، يَنْقُلُهُ سبحانه إلى عباده عن طريق ما نزل من شرائع سماوية، حتى يعلموا أن الله ليس بغافل عما يتقربون إليه بالذكر والصلاة وأعمال الخير، فيكون ذلك تحفيزا لهم على المواصلة، وتحريضا على الزيادة

وقد أقام الله تعالى الملائكة في خدمة بني آدم، في حياتهم في هذه الدار، يقفون على أرزاقهم وأقواتهم، ويشهدون طاعاتهم؛ وفي تلك الدار، يستقبلون المؤمنين في الجنة ويحيونهم تحية السلام، ويوردون المجرمين النار ويذيقونهم فيها أشد العذاب

وذلك تكريم لا نظير له من الله تعالى لعباده، بِأَنْ جعل هذا الخلق النوراني العزيز الذي لا يعصيه أو يغفل عن عبادته طرفة عين، جعله خادما لبني آدم رغم غفلتهم وطغيانهم وعصيانهم لخالقهم الواحد الأحد.

كما أنه تعالى جعل الملائكة بِشَارَةً وإيذانا بالرضا والرضوان

وكثيرا ما يَتَنَزَّلُونَ بإذن ربهم على الأنبياء وغيرهم، يبشرونهم بالخير في الحياة الدنيا وفي الآخرة

وكثيرا ما يَحُفُّونَ بالمؤمنين وهم يتلون كتاب الله تعالى، أو يذكرون ربهم، شَغَفاً بهم وبما يفعلون

أما الجن فهم خلق ناري، كما هو معروف، جعلهم الباري عز وجل، مِنْ تَحْتِ التكليف، وهم في ذلك أَخَفُّ من الإنس الذي يعتبر تحت التكليف، حسب ما ذهبنا إليه.

فَمِمَّا تجدر الإشارة إليه، أن الجن أضعف خَلْقاً وأدنى من الإنس، لقراين منها:

أولا: خَلْقُهُ تعالى الإنسان في أحسن تقويم

ثانيا: نفخه تعالى من روحه في الإنس بخلاف جميع مخلوقاته

وإذا راجعنا كتاب الله تعالى، وجدنا نُدْرَةً من الآيات الكريمة فقط، عرضت لذكر الجِنِّ، رغم أن في القرآن الكريم سورة سميت سورة الجن

كما أنه ما ثبت من لقاء رسول الله ﷺ ، بهم قليل جدا؛ بل إن أخبارهم في السيرة النبوية تكاد تنعدم، فلا نكاد نعرف كيف تعاملوا مع الأحكام الشرعية، ولا نعرف عزائمهم وتراخيصهم، وما إلى ذلك

ولكن نعلم من كتاب الله تعالى، أن الجن الصالحين يطيعون الله تعالى، طاعة الخوف، فإنهم في سورة الجن، أقروا بخوفهم من الله تعالى بقولهم: "وإنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا، وإنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا، وإنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا". الجن8-10

ولا نعرف منهم علماء وفقهاء وأولياء، اللهم إلا ما قرأناه من أخبارهم هنا وهناك، هذه الأخبار تُحْكَى وَتُكْتَبُ، ولا تتوفر على شرط من شروط الصحة، حتى يُسْتَدَلَّ بها في الموضوع

وعامة الجن عُرْضَةٌ لوسوسة إبليس لعنه الله تعالى، وليس كل جِنِّيٍّ شيطان، بل منهم الصالحون وغير ذلك؛ وإنما كل شيطان جِنِّيٌّ، والمراد بالشياطين منهم، أتباع إبليس لعنة الله تعالى عليه، الْمُنْضَوُونَ في حزبه

يبقى أَمْرُ الجن مُبْهَماً على الناس، سواء ما تعلق بتصرفهم مع الشريعة، أو ما تعلق بطبيعتهم وأنماط عيشهم، فلم يَرِدْ ذكر ذلك في القرآن والسنة إلا قليلا

والجن أقرب إلى الإيقان من الإنس، لأنه يلمس في السماء ما لا سبيل للإنسان إلى لمسه، ولأنه يشهد من ملكوت السماوات والأرض ما لا يشهده

ألا ترى إلى الجن كيف كان يسترق السمع من السماء الدنيا، وهو بذلك يستمع إلى الملائكة ويتعرض لرجم الشهب الثواقب؟

فكيف لا يوقن بالله من شهد كل هذا أو بعضه؟

إلا أن الجن، رغم كل ذلك أقل شأنا من الإنسان، بل وأضعف عقلا، ويكاد يدخل في زمرة السفهاء الذين لا يحسنون التصرف؛ فانظر رعاك إلى ما رواه ابن مسعود عن رسول الله ﷺ، قال ابن مسعود: فقال النبي ﷺ : "إني أريد أن أقرأ القرآن على الجن الليلة، فأيكم يتبعني؟" فأطرقوا، ثم قال الثانية فأطرقوا، ثم قال الثالثة فأطرقوا، فقال ابن مسعود: أنا يا رسول الله، قال ابن مسعود: ولم يحضر معه أحد غيري، فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة، دخل النبي ﷺ شِعْباً يقال له: شِعْبَ الحجون، وَخَطَّ لي خَطاً وأمرني أن أجلس فيه، وقال: "لا تخرج منه حتى أعود إليك". ثم انطلق حتى قام فافتتح القرآن، فجعلت أرى أمثال النُّسُورِ تهوي وتمشي في رفرفها، وسمعت لَغَطاً وَغَمْغَمَةً، حتى خِفْتُ على النبي ﷺ، وَغَشِيَتْهُ أسودة كثيرة حالت بيني وبينه، حتى ما أسمع صوته، ثم طفقوا يتقطعون مثل قطع السحاب ذاهبين، ففرغ النبي ﷺ مع الفجر، فقال: "أنمت؟" قلت: لا والله، ولقد

هممت مرارا أن أستغيث بالناس حتى سمعتك تقرعهم بعصاك تقول: اِجلسوا، فقال: "لو خرجت لم آمن عليك أن يخطفك بعضهم. الحديث". انتهى من تفسير القرطبي

فانظر كيف خاف رسول الله ﷺ على ابن مسعود من أن يَتَخَطَّفُوهُ، وإلى كيف كان النبي ﷺ يقرعهم بالعصا، ذلك كاف في الدلالة على سفاهة عقولهم، فتدبر

قوله تعالى: "ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للملائكة أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون، قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم، بل كانوا يعبدون الجن، أكثرهم به مومنون". سبأ40-41

سؤال: إذا كان أغلب الجن سفيها، لا يحتمل أحكام الشريعة التي اختص بها الإنسان، فما الحكمة من وضع الباري عز وجل له من تحت التكليف؟

والجواب: لا شك أن الله تعالى، بمقتضى عدله، رغم أنه كَلَّفَ الجن بشريعته، إلا أنه لن يكلفه ما لا طاقة له به من أحكام

بل سيخفف عنه ما ثقل عليه واستصعب، ألا ترى إلى مرونة دين الإسلام، في عدم مؤاخذة الصبي والنائم والمجنون بما يفعلون؟ وهو دين رفع الحرج والمشقة، فكيف يُحَمِّلُ الله تعالى به الجن ما لا يحتمل؟

ولذلك سبق لنا في كتابنا **سوانح الخواطر**، أن جعلنا الجن مِنْ تَحْتِ التَّكْلِيفِ، وليس تَحْتَ التَّكْلِيفِ كما هو حال الإنس، وذكرنا ما دفعنا لذلك، فَلْيُرَاجِعْهُ من أراده في موضعه، والله الموفق للصواب

قال سبحانه: "سنفرغ لكم أيها الثقلان، فبأي آلاء ربكما تكذبان، يا معشر الجن والانس إن استطعتم أن تنفذوا من اقطار السموات والارض فانفذوا، لا تنفذون إلا بسلطان". الرحمن29-31

واعلم رحمك الله تعالى، أن الجن في أرض والإنس في أرض، لا يدخل هذا على ذاك من أرض إلى أرض

فإن قلت: هما أرضان إذن وليست واحدة؟

قلت: هن سَبْعٌ في واحدة، أرض الجن إحداهن

قال سبحانه: "الله الذي خلق سبع سموات ومن الارض مثلهن". الطلاق12

ورغم وجود بَرْزَخٍ بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ، إلا أن هناك ممرات ومنافذ بين هذه وتلك، وهناك إنس خرجوا على الجن، وَجِنٌّ خرجوا على الإنس، وكان بينهما اتصال وتواصل، بل تزاوجوا وتشاركوا في ما بينهم أمور الحكمة وأمور الشرك والسحر، وقد تبين أن ثمة صلة قائمة بين الإنس والجن غير ما ذكرناه؛ فمنها أن الجن قادر على استعمار بدن الإنسان، ومنها ذلك التمازج العاطفي، وإن شئت النفسي بين هذا وذاك

فكلما رَقَّ الحجاب الفاصل بينهما، كلما ازداد هذا التمازج النفسي حِدَّةً ووضوحا

وَيَرِقُّ هذا الحجاب بسبب ما يصيب الإنسان من اضطرابات وانفعالات في حياته اليومية

بل إن الإنسان كلما انفعل نفسانيا بغضب أو بفرح، كلما سهل على الجن إذايته ومسه

ومهما بقي الإنسان ثابتا في حُزْنِهِ وفرحه، راضيا بقضاء الله تعالى وقدره، لا يفرح بما أوتي من نعم في الحياة الدنيا، لأن كل نعيم مآله إلى زَوَالٍ، ولا يحزن ويتأسف على ما فاته من ذلك، إذ الحزن والتأسف لا يرجعان ما ضاع، ولا يأتيان بما تَعَذَّرَ طِلَابُهُ واستحال

مهما بقي ثابتا في ذلك كله، لم يستطع الجن إليه سبيلا، قال سبحانه: "لكيلا تاسوا ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم، والله لا يحب كل مختال فخور". الحديد22

إن الْمَعْنِيَّ بالرسالة الأول هو الإنسان، لقوله تعالى: "إنا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها، وحملها الانسان إنه كان ظلوما جهولا". الأحزاب72

وإنما حملها الجان لأن له تداخل مع بني الإنسان، وكأن الجان من شدة لطافته يكاد يكون مجرد إحساس وتصور لدى الإنسان، لا وجود له فعليا في واقعه

ودليل ذلك، أن الجن يتشكل للإنسان قوة وضعفا على حسب ما يظنه الإنسان نفسه

فإذا ظنه قويا غلب عليه، وإذا ظنه ضعيفا غلبه، وإذا اعتقد أن له قرونا ظهر له أقرن، والعكس صحيح

ولا نعتقد أن الجن قد يُجْدِي نفعا للإنسان، بل في مخالطته خروج عن الفطرة التي فطره عليها الرحمن، يؤدي إلى ما لا تحمد عقباه

بل إن الاختلاط بالجن، ليس مِنْ سُنَّةِ رسول الله ﷺ، رغم أنه أخبر بهم ونهانا عن إذايتهم، وإذاية عامري الدور منهم

ثم نَخْلُصُ بعد ما تَقَدَّمَ من كلام عن ملائكة رب العالمين، وعن الجن، نخلص إلى الكلام عن بني آدم، لأن الْفِرَقَ الثلاثة يشتركون في العبودية لله تعالى، ولو أن الملائكة الكرام هم فوق التكليف

وقد فضل الله تعالى بني آدم عن سائر مخلوقاته، وأسجد لآدم ملائكته، وجعله وذريته خلفاء الأرض. ولم يأمر سبحانه ملائكته المكرمين بالسجود لآدم، إلا بعد أن نفخ فيه الروح. قال الله تعالى: "فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين". الحجر29

ولو لم ينفخ فيه من روحه ما استحق السجود، فافهم

ومما يدل على خصوصية ابن آدم عن غيره من خلق الله تعالى، ما ثبت في الصحيح المرفوع إلى رسول الله ﷺ، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "خلق الله آدم على صورته".

وقد حاول البعض إرجاع الضمير المتصل في قوله: "على صورته". إلى آدم عليه السلام، أي على صورة آدم، ولكن الظاهر أن الضمير يعود على الله تعالى

فقد روى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا قاتل أحدكم أخاه فليجتنب الوجه، فإن الله خلق آدم على صورته".

وقد استشكل أمر هذا الحديث على كثير من العلماء، كُلٌّ أَوَّلَهُ حَسَبَ مَا يَرَاهُ

ومن فهم من الحديث أن الله تعالى خلق آدم على صورته الحسية، فقد أخل بما يقتضيه الإيمان بالعقائد الإسلامية، فيما يخص الإلهيات، وما يستلزمه من مخالفته تعالى للحوادث في الذات والصفات والأفعال، سبحانه وتعالى، عن ذلك علوا كبيرا

ونرى، والله أعلم بالصواب، أن رسول الله ﷺ، قصد بقوله: "خلق الله آدم على صورته". ثلاثة أمور:

الأول: ما اتصف به سبحانه من أنه هو الظاهر والباطن في الآن نفسه، فإن ابن آدم ظاهر بحسه باطن بنفسه، أي أن جسده ظاهر للعيان، ولكن نفسه غير ظاهرة

الثاني: أن ابن آدم تميز عن غيره من المخلوقات بما نفخ فيه الباري عز وجل من روحه، والروح أثر من الله عز وجل، ولا يخلو الأثر من ريح صاحبه

الثالث: أن الله تعالى جعل ابن آدم خليفته في كون التكليف، وأضفى عليه بما وهبه من عقل، ما مَكَّنَهُ من قدرات تَحَكَّمَ بها في كثير من المخلوقات غيره، وَتَمَلَّكَ على الأرض، فطار مع الطير، وخاض أعماق البحار مع الحوت، وَسَخَّرَ موارد الأرض وخباياها في شؤونه الخاصة

ومما يدل على قدرات بني آدم الباطنية، ما ثبت عن كثير منهم من دخول النار دون أن يحترق، ومن مشي على صفحة البحر، وما إلى ذلك

وهذه الأمور، تندرج فيما يسمى بخرق العادة، ولا يكون ذلك للمسلمين وحسب، بل يكون للمسلمين وغيرهم من أتباع الْمِلَلِ الأخرى، سواء منها السماوية أو المجوسية أو الوثنية

وهو ما يسمى بالمعجزة، لدى الأنبياء والمرسلين، ويسمى بالكرامة لدى أولياء الله الصالحين

وقد يتساءل القارئ ويقول: وما الدَّاعِي إلى إتيان الأنبياء والمرسلين بالمعجزات، ما دامت تدخل في خرق العادات، وقد أسلفت أنه لا يختص بها المسلمون دون غيرهم؟

فأقول: إن من دواعي إتيان الأنبياء والرسل بالمعجزات، تكذيب أقوامهم لهم، لأن الناس دَأَبُوا على اعتقاد أن كل من يَدَّعِي أنه يأتيه الوحي من الله تعالى، فيجب أن تكون له قوة خارقة تمكنه من الإتيان بما لا يستطيع غيره أن يأتي به

بل حتى المؤمنون من أتباع الديانات السماوية، يكونون في حاجة إلى هذه المعجزات، حتى يزدادوا إيمانا بالله تعالى وتطمئن قلوبهم؛ ألا ترى إلى ما تذرع به الحواريون لما سألوا موسى عليه السلام أن يدعو ربه كي ينزل عليهم مائدة من السماء؟

قال تعالى: "قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين". المائدة115

فقد تذرعوا بأربعة ذرائع:

الأولى: نأكل منها

الثانية: تطمئن قلوبنا

الثالثة: نعلم أن قد صدقتنا

الرابعة: نكون عليها من الشاهدين

ولعل الله تعالى بمقتضى اطلاعه على حاجة البشر إلى رؤية ما يعجزهم، لكي يؤمنوا وتطمئن قلوبهم، تعامل معهم بالإعجاز، ليس مع المرسل إليهم وحسب، بل حتى مع كثير من المرسلين أنفسهم

فهذا العزيز يعجب من كيف يحيي الله تعالى القرية الخاوية على عروشها، فَيُمِيتُهُ الله تعالى وَحِمَارَهُ مائة عام ثم يبعثه وقد أصبح موقنا بقدرة الله العلي القدير، قال سبحانه: "فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير". البقرة258

وفي قول العزيز أعلم أن الله على كل شيء قدير. تحصيل لما قصد الله تعالى إليه من إعجاز، يجعل نبيه من الموقنين بقدرته

وهذا إبراهيم الخليل يسأل الله أن يُرِيَهُ كيف يحيي الموتى كي يطمئن قلبه، فَيُرِيهِ ذلك ويقول له: "واعلم أن الله عزيز حكيم". البقرة259

وهذا موسى عليه السلام يسأل رؤية ربه فلا يقوى على ذلك، قال سبحانه: "فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المومنين". الأعراف143

فأما قول موسى عليه السلام: سبحانك، فقد عهدنا أنبياء الله تعالى يقولون : سبحانك، يُبَرِّؤُونَ بها أنفسهم من أن لا يَقْدِرُوا الله قَدْرَهُ، وَيُنَزِّهُونَهُ بِالتَّقَدُّمِ إليه بالتسبيح، عما لا يليق به مِمَّا نُسِبَ إليه. أو يتوبون إليه مما ارتكبوا من أخطاء، كي يتوب عليهم، إنه هو التواب الرحيم. ومن ذلك ما قاله عيسى عليه السلام لما سأله ربه أهو الذي قال للناس أن يتخذوه وَأُمَّهُ إلهين من دون الله. فقد قال سبحانه: "قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق". المائدة118

وانظر رعاك الله وأراح بالك، إلى ملائكة رب العالمين، لما جادلوا الله تعالى في خلق آدم، وأخبرهم أنه يعلم ما لا يعلمون، فقد بادروا في الحال إلى قولهم: "سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم". البقرة31

وثمة أمثلة غيره في كتاب الله تعالى تركناها دَرْءاً للإطناب

فإن قيل: فكيف تفسر خرق العادة عند غير أصحاب الديانات السماوية؟

قلت: إن الإنسان عامة، خَوَّلَهُ الله تعالى قوة باطنية لا يستعمل منها إلا القليل

لذلك، هناك من تَرَيَّضَ على استعمال قوته الباطنة، وصار يأتي أشياء خارقة لا طاقة لغيره بأن يأتي بها

وإذا تساءلت عن الفرق بي خوارق الفريقين: فريق الموحدين، بما فيهم الأنبياء والمرسلون عليهم السلام أجمعين، ثم صالحو المؤمنين. وفريق غير الموحدين، من المجوس وعبدة الأوثان، ومن السحرة والكهنة، وأتباع إبليس لعنه الله تعالى

فأقول لك: أما الفريق الأول، فإنما أوتي ما أوتي من هذه الخوارق، من الله تعالى بغير سؤال، وإلا فقد سأل بعض الأنبياء ذلك لنفسه، أو تلبية لما سأله قومه، حتى يزيد ويزدادوا إيمانا

كما أن أولياء الله الصالحين، كان لهم نصيب من هذه الخوارق، أوتوه من ربهم، حتى تطمئن قلوبهم، ويوقنوا هم الآخرون بربهم الواحد الأحد

أما الفريق الثاني، فقد حصل على هذه الخوارق عن طريق الرياضة والاستعداد كما تقدم ذكره. وذلك حاصل في بعض الديانات الهندية وغيرها، أو عن طريق ممارسة الطقوس السحرية، والاشتغال بعقاقير وأعشاب روحانية معروفة لدى أولي الشأن. والغريب، أن ما يأتيه المشتغلون بهذه الطقوس والعقاقير يقلب الأبصار، وَيُظْهِرُونَ به للناظر ما يشاؤون من مناظر وهمية يراها حقا وهي مجرد توهم

ومن هنا نقول أنه قد يلتبس الأمر على كثير من طالبي سبيل معرفة الحق سبحانه، فيتبعون شيخا من مشايخ الطريق، وَيَبْهَرُ أنظارهم بما يدعي أنه كرامات وهبه الباري عز وجل إياها، في حين أنه يشتغل بما ذكرناه آنفا من أمور السحر

ولو أن مريديه طلبوا في شيخهم هذا ما اشترطه أهل الطريق أن يكون في الشيخ من صفات العلم والتقوى، والصبر والتسامح، وغيرها، ما التبس عليهم أمره، وكشفوا حقيقته وَوَلَّوْا عنه مدبرين

واعلم أخي الكريم، أن كثيرا من أقوام الأمم الخالية، شهدوا معجزات باهرة من رسلهم وأنبيائهم عليهم السلام، فلم يزد ما شهدوا الكافرين منهم إلا جحودا

قال تعالى: "ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت ابصارنا بل نحن قوم مسحورون". الحجر14-15

ولوكان خرق العادة دليلا على صدق من أتاها، لكان السحرة أصدق الصادقين

إن الإيمان يكون عن طريق القلب، ودلائل صدق الأنبياء والمرسلين تكون بالنظر إلى أخلاقهم ومعاملاتهم، وصبرهم على أقوامهم، ويكون باستماع وتدبر ما يبلغونه من كلام الله تعالى ومن الحكمة

أما أولياء الله الصالحين، فليس الولي هو الذي يأتي خرق العادة، وإنما الولي من والى الله تعالى، ورضي لرضاه وسخط لسخطه، وأتى ما أمره ربه بإتيانه، وانتهى عما نهاه عنه سبحانه

وقد أسلفنا، أن الله تعالى يكشف لرسله وأنبيائه عن كثير من المغيبات، وَيُشْهِدُهُمْ أمورا خارقة لا يشهدها أحدا من أممهم، لكي تطمئن قلوبهم ويكونوا من الموقنين

قال سبحانه: "وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والارض وليكون من الموقنين". الأنعام76

وكذلك هو حال أولياء الله الصالحين، فمن عبد الله تعالى منهم من أجل الكرامة، لم ينل من عبادته شيئا ولو اختلى لله تعالى أربعين سنة

وفي مذهبنا نحن الجعفيون، أن الشيخ إذا أكرمه الله تعالى بكرامة، واطمأن قلبه إلى أن يطلع عليها أحدا من مريديه، حتى يثبت قدميه على الطريق، أو إن كتم كرامته ودعته ضرورة إلى إخراجها، وشهدها مريدوه، سواء كان الأمر هذا أو ذاك، فالشيخ مُطَالَبٌ مِنَّا بأن يَنْهَى مريديه عن إفشاء سِرِّ ما شَهِدُوا لغيرهم، ولو كانوا أزواجهم وآباءهم أو إخوانهم أو أبناءهم

فالشيخ لا يُظْهِرُ ما أَظْهَرَ لمريديه من ذلك، سوى ليتيقنوا من صحة الطريق، وليس لِيَتَفَضَّلَ عليهم وَيُعْلُونَ من شأنه، ويدعي أنه أفضل مكانا منهم عند الله السميع العليم

وغرضنا مِنْ كَتْمِ هذه الكرامات، ألا تجلب على الشيخ جمهرة من الأتباع في زمن الفضيحة، خاصة إن كان من أصحاب الخمول والاستتار

فماذا لو كان المعروف على هذا النمط من الأتباع أنهم لا يتبعون الشيخ لأنهم رأوا أنه أهل ليسلك بهم إلى ربهم، وإنما اتبعوه لأنه يمشي على الماء أو يطير في الهواء، وهذا ما لا يرضاه أي شيخ صادق لنفسه

بالإضافة إلى أن الكرامة إذا حُكِيَتْ أُفْشِيَ أمرها، وزاد فيها الناس ما ليس منها، فكانت مَدْعَاةً لهم للكذب والمبالغة، وفي ذلك تفخيم للشيخ قد يضر بالطريق وأهلها، إذ أن طريق الله تعالى مبنية على الحق آمرة بالصدق.

فَصْلٌ فِي عِظَمِ أَمْرِ هِمَّةِ الْإِنْسَانِ وَمَنَاطُ أَحْكَامِ الْعَقَائِدِ عَلَيْهَا، وَأَنَّهَا أَسَاسُ الْإِيجَادِ مِنْ عَدَمٍ

اِعلم رحمك الله تعالى، أن الإنسان تَضَمَّنَ في باطنه جُلَّ ما يظنه في ظاهره، فيشاهد جميع المشاهد منه فيه، ويساير الأحداث ويجاري الحوادث كما تهيأ لها، وكما تهيأت له، والحقيقة في كل ذلك لا يعلمها سوى الحق لا إله غيره

وقد فطر الباري عز وجل ابن آدم على الاعتقاد في الأسباب، والسير بها، فبدونها لا يكون له عيش، فإذا لم يحرث الأرض لم يحصد الزرع، وإذا لم يحلب الضرع لم يَطْعَمِ اللبن، وهكذا

بل أوهم الباري عز وجل، ابن آدم أنه تعالى يتعامل معه بالأسباب، فإذا أنزل عليه المطر، كان ذلك بسبب تراكم السحاب، وإذا أصابه بالجدب والقحط، كان ذلك بسبب انقطاع المطر، وما إلى ذلك

ومن شدة إيمان كثير من الناس بالأسباب، خَلَصُوا إلى الكفر بالله تعالى وملائكته، لأنهم اعتقدوا، والعياذ بالله، أنه تعالى لا بد له من والد، فلا يمكن أن يكون موجودا بغير سبب يوجده. حتى أنهم وضعوا لذلك قاعدة واهية يدينون بها، تقول هذه القاعدة: الشيء الذي من لا شيء لا شيء

إلا أن هؤلاء الناس، يتناقضون مع أنفسهم، فإذا سألتهم من خلقهم وخلق الكون، قالوا وجد الكون بسبب انفجار كتلة هائلة

وإذا سألتهم، من خلق هذه الكتلة الهائلة؟ أجابوك بأنه كانت هناك ليس لها خالق

ويحق لك آنذاك أن تقول لهم: فما موقع قاعدتكم الواهية من هذا الجواب السخيف؟

ولن يجدوا لك ما يتذرعون به لتبرير تناقضهم، ولو لبثوا ألف سنة

إن المراد عندنا بِالْهِمَّةِ، شدة إيمان الإنسان بالشيء

فإن إيمانك بنفع شيء يجعل هذا الشيء نافعا، والعكس صحيح

وقد تقدم لنا، أن الجن مهما تصورته، ظهر لك بما تصورت، فإذا كانت همتك قوية، واعتقدت جازما أنه، أي الجن، خَلْقٌ ضعيف، تَبَدَّى لك ضعيفا ضئيلا مغلوبا على أمره لا حول له ولا قوة

وإذا تصورته بعكس ذلك كان كذلك

ويمكن لما يسمى بالنية أن ينوب عن الهمة في كثير من المواقف، فهناك أناس يقصدون بعض الدَّجَاجِلَةِ من أجل أن يشفوهم من أمراضهم ويقضوا حوائجهم، ومنهم مَنْ يشفى مِنْ علته وَمَنْ تُقْضَى حوائجه، رغم أن الله تعالى لا يستجيب لمن قصدوه من الدجاجلة الذين يأكلون أموال الناس بالباطل، وإنما هِمَّةُ قاصديهم، وإن شئت قوة نيتهم فيهم، هي التي كانت سبب شفائهم وقضاء حوائجهم

وعندنا في بلدنا السعيد، أدام الله تعالى عليه الأمن والأمان، وهدى سلاطينه إلى ما فيه خير لرعاياهم في الدنيا والآخرة، وأيدهم بالنصر المبين.

قلت: عندنا في بلدنا المغرب الأقصى ينتشر كثير من القباب والأضرحة والأحواش التي تخص أولياء الله الصالحين، في كل قرية ومدشر، يزورها الناس من البدو والحضر على حد سواء، منهم مَنْ يَتَمَسَّحُ بقبورها ويتبرك بترابها، ويدعو أصحابها وهم أموات لقضاء حاجته، فيكون ذلك لكثير منهم، رغم أن عملهم بالتمسح والتبرك ودعوة غير الله تعالى، يخالف ظاهر الشريعة السمحة، لكن المولى جَلَّتْ قدرته، لا يؤاخذهم على ذلك لقصور أفهامهم، ويستجيب دعاءهم، لأنهم ما قصدوا أولياءه إلا لأنهم أولياءه، وإلا لَمَا أَبَهُوا لِأَيٍّ منهم. فتكون بذلك نِيَّتُهُمْ، وإن شئت هِمَّتُهُمْ هي سبب استجابة دعائهم وقضاء حاجاتهم.

فصل في صِلَةِ مَا رَكَّبَهُ المولى في الإنسان من صفات وطبائع، تُعَرِّفُهُ بالرحمن إذا قاس فِعْلَهُ بِفِعْلِ مولاه، وما يحب ويكره، على حسب ما يحب ويكره في ما سَفُلَ مِنْ أكوان

اِعلم رحمك الله تعالى، أم المولى جلت قدرته، خلق ابن آدم على صورته، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ، وقد تقدم لنا ما ذكرناه من تأويل ذلك؛ ونزيد عليه ما خلق عليه سبحانه بني آدم، وما رَكَّبَ فيهم من صفات وطبائع ورغبات، كل ذلك يكون لهم عونا ووسيلة لأن يعرفوا مولاهم وَيُقَدِّرُوا قَدْرَهُ

بل الأكثر من ذلك، جَبَلَهُمْ مولاهم على صفات سَمَّى بها نفسه في القرآن الكريم، وسنعرض له بتفصيل ونشير إلى الحكمة منه فيما هو آت

أما ما جَبَلَهُمْ عليه من صفات سَمَّى بها نفسه، فمثاله: العليم والجواد والحكيم والغني

ولا ننسى أن نقول، أن هذه الصفات مهما تشابهت في مبناها، متى أطلقت على الخالق والمخلوق، فقد اختلفت في معناها، إذ أن علم الله تعالى لا يضاهيه علم العبد، وما قلناه في العلم نقوله في الجود وغيره

وقد تَشَدَّدَ كثير من الناس وأنكروا أن يُسَمِّيَ المرء أبناءه حكيما وعليا

أنكروا ذلك بغير سلطان، ولو حرمه الشرع، لأنكر محمد ﷺ المشرع الأول، تسمية ابن عمه عليا كرم الله وجهه، بهذا الاسم

وإنما المعروف عند علماء العقائد، أن ثمة صفات إلهية لا يحق لنا التسمية أو الاتصاف بها، مثل: المتكبر والأول والآخر والباقي والصمد وما يجري مجراها

ونعود لنستأنف كلامنا عن الحكمة من تشارك الإله والعبد في صفات معينة تتفق في اللفظ وتختلف كل الاختلاف في المعنى، ونقول والله المستعان:

أجمع الناس أن يَنْعَتُوا بالغني، كل من كثر ماله وتراثه فيهم

في حين أن صفة الغني إذا أطلقت على المولى عز وجل، أريد بها ذاك الذي لا يحتاج إلى غيره

وأجمع الناس كذلك على أن ينعتوا بالعليم، كل من ثبت حفظه وتحصيله للمعلومات في علم معين أو علوم مختلفة

ولكن صفة العلم إذا أطلقت على الله تعالى، فمعناها أَدَقُّ وأشمل في علم العقائد، فالعلم صفة أزلية قائمة بذاته تعالى ينكشف بها المعلوم انكشافا تاما يغاير سواه، على وجه الإحاطة على ما هو به دون سبق خفاء

ومما أثر في هذا المجال: الله تعالى علم ما كان، وعلم ما يكون، وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون.

وهكذا قِسْ ما لم أذكره من صفاته تعالى على ما ذكرته

ومثالنا على حكمة الله تعالى فيما سبق، أن الإنسان إذا كان جوادا، فإنه يكون أقرب إلى فهم قوله تعالى:

"وأما بنعمة ربك فحدث". الضحى11

وقوله تعالى: "واشكروا لي ولا تكفرون". البقرة151

يُفْهَمُ أن الله تعالى ما دام قد أكرم الانسان وَنَعَّمَهُ، فإنه يحب منه الحمد والشكر

وذلك مثل حال الإنسان الجواد، فإنه متى أطعم بعض المحتاجين وكساهم ولم يشكروه في حضرته، ولم يثنوا عليه في غيبته، فإنه يكره منهم ذلك؛ هذا حال الإنسان الذي مهما أكرم وأنعم، فإنه لا يكرم ولا ينعم من عنده، وإنما المال مال الله، وما هو إلا مستخلف فيه. فكيف والمنعم المفضال سبحانه، هو الذي يرزق ولا يشكره من العباد إلا القليل، أليس يقول سبحانه: "وقليل من عبادي الشكور". سبأ13

أَيُّ رَبٍّ هذا الذي تجادلني فيه أيها العنيد البائس؟

أتجادلني في ربك الذي خلقك فَسَوَّاكَ فَعَدَّلَكَ في أي صورة ما شاء رَكَّبَكَ؟ ربك الذي نفخ فيك من روحه وجعلك خليفة في أرضه وفضلك على جميع خلقه، رزقك من السماء والأرض، ووهبك دارا وأهلا وولدا، وعلمك ما لم تكن تعلم، وهداك سواء السبيل؟

ألا ترضى أن تشكره وتحمده وتثني عليه؟

رَبٌّ لا يريد منك جزاء ولو كان صياما وقياما، فهو الغني عن صيامك وقيامك

قال سبحانه: "ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين". الذاريات57-58

ربك يريد منك أن ترضى عنه، ليت شعري، أي رب هذا الذي يريد من عباده أن يرضوا عنه؟ وكيف للعبد أن يرضى عن الرب؟

ولكن هذا الرب اسمه الله، ليس كباقي الأرباب الفانية التافهة، الرب الحق، من شدة محبته لعباده يسألهم الرضا عنه، في حين هم الذين في حاجة إلى رضاه عنهم، حتى يَقِيَهُمْ حَرَّ جهنم ولفح الحريق

قال سبحانه: "رضي الله عنهم ورضوا عنه، أوليك حزب الله، ألا إن حزب الله هم المفلحون". المجادلة21

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: "من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا، وجبت له الجنة". قال أبو سعيد: فحمدت الله وكبرت وسررت به. الحديث. رواه الحاكم في المستدرك

عبدي إذا لم تشكرني على ما أنعمت به عليك، لا عليك، فلن أكافيك بالمثل، ولن أكف عن رزقك والإنعام عليك، بل قد أعطيك أكثر مما كنت أعطيك، حتى تعلم أن غفلتك عن شكري لا تدعوني لأن أنقص مما أعطيك، ألست بربك؟ ما ينفعني شكرك مهما شكرت؟ ما تضرني غفلتك عن شكري متى جحدت؟ ولو كان شيء من ذلك، لما أنفقت عليك شيئا. انظر إلى نفسك، متى أكرمتَ غيرك ولم يثن عليك، ألست تمتنع عن إكرامه مرة أخرى؟ ولو قدرت استعدت منه ما أعطيته حانقا عليه

أنا مَنْ جَبَلَكَ على الجود وأقام من يحتاج إلى جودك، حتى تعرف مرارة من يغفل عن شكرك إذا جُدْتَ عليه. أنا رازق العالمين جميعا: إذا وحدوني رزقتهم، وإذا أشركوا بي رزقتهم، وإذا كفروا بي رزقتهم، وإذا ادعوا الألوهية من دوني رزقتهم.

أنا رازق الحوت في البحار، والنمل في الأغوار، أنا رازق الطير والكواسر في الأجواء، ورازق البهائم والسباع في الخلاء

ومتى لم أرزقهم فمن غيري يرزقهم؟

أنا كفيل برزق عبادي، فلا يَمُنَّ أحد على عبادي متى أعطاهم لَمَماً مما أعطيه

عبادي، مَنْ بَخِلَ عليكم فاسألوني، إنني أنا الجواد. عبادي، من طردكم فأقبلوا علي، إنني أنا مولاكم. عبادي، من أساء إليكم فتوجهوا إلي، أنا أحسن إليكم وأحفظ قدركم، إنني أنا المنعم المفضال

عبادي، إياكم إذا عصيتموني أن تستحيوا من وجهي، فلا تجرؤوا على طلب التوبة مني، لا يهمكم ما عصيتم، ما دمت أنا الذي عصيتم، فإن معاصيكم مهما تكاثرت لا تضرني، فكيف لا أغفرها جميعا؟

أنا أقبلكم أيها العاصون، فلا تلجؤوا لغيري، أتظنون أن غيري يغفر لعبادي؟ لا غافر لعبادي سواي

هذه أبواب الصفح والغفران، قلعت أبوابها، حتى لا تَقِفُوا على أعتابها أيها المذنبون، ادخلوها بسلام آمنين، مهما كانت ذنوبكم، فرحمتي وسعتها جميعا.

ادخلوها مهما كانت أعدادكم، فإن منازلي لا تضيق بأحد

أيها الإنسان، ألا ترضى عن ربك بعد كل هذا؟ وهل رب غيري يعطيك شيئا مما أعطيتك؟ وهل رب غيري يحييك إذا أمتك، أو يداويك إذا أسقمتك، أو يطعمك إذا جَوَّعْتُكَ، أو يرويك إذا أظمأتك، أو يكسوك إذا ما كسوتك، أو يهديك إذا أضللتك؟

وهل رب غيري يسلبك شيئا مما أعطيتك، وهل رب غيري يميتك إذا ما أحييتك، أو يسقمك إذا داويتك، أو يظمؤك إذا سقيتك، أو يعريك وقد كسوتك، أو يضلك إذا ما هديتك؟

مَنْ أغواك بي حتى لا ترضى عني، يامن لا أحتاج إلى رضاه؟

وفي الحديث القدسي: "عجبًا لك يا ابن آدم، خلقتك وتعبد غيري، ورزقتك وتشكر سواي، أتحبب إليك بالنعم وأنا غَنِيٌّ عنك، وتتبغض إليَّ بالمعاصي وأنت فقيرٌ إليَّ، خيري إليك نازل وشرُّك إليَّ صاعد". رواه الإمام أحمد في كتاب الزهد

"يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك".الانفطار6-8

عبادي، إذا أطعتموني، فأنا أهل للطاعة، وأنتم أهل للمكافأة

وإذا عصيتموني، فقد استوجبتم عقابي، إلا أنني أهل الصفح والغفران، وإذا ذكرتموني ذكرتكم، وإذا نسيتموني أمهلتكم حتى تذكرون

إذا رضيتم عني رضيت عنكم، ومن رضيت عنه كتبته في ديوان أحبابي، ومن كتبته في ديوان أحبابي، سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدا

فصل فِيمَنْ تساءل عن العلة من الخلق، وبيان أن ذلك من شأن الواحد الحق، وإنما يجب الاعتقاد بأنه تعالى ما خلق ما خلق سدى، إن في ذلك لمن آمن واهتدى

خلق الله تعالى ابن آدم، وخلق كل شيء لابن آدم، وأعني بكل شيء العاقل والجماد والبكماء، بما في ذلك الجن والملائكة والحجر والشجر والبحار

واتسم خلقه تعالى لآدم بالتركيب، إذ لم يخلقه على سبيل البساطة، بل وضع فيه عدة أجهزة يتعلق بعضها ببعض: وضع فيه نفسا، ونفخ فيه من روحه، وأحياه بالتعقل والشعور، والفرح والحزن، والأمل والحلم، واليأس والتذمر. كما قابل باطنه بعوالم لا يدري كيف يتواصل معها، ووصل بعض بني آدم ببعضهم، فمنهم من تكلم بما وَصَلَ إن أسعفه التكلم، ومنهم من كتم ما تواصل حتى لا يفتن الناس بما لا يفهمون، ومنهم من تواصل ولم يَقْوَ على إيجاد لغة يبلغ بها تواصله

وَأَجَلُّ التواصل ما يستشعره المؤمن من معرفة المولى في حضرته، فهناك من خاطره مولاه في هذه الحضرة، ومن نفحته الأنفاس بنفحات الأنس والأمان، فإذا هموم هؤلاء وأولئك في امحاء، وإذا أنفسهم في انزواء، وإذا أفئدتهم نور وضياء

كما قابل سبحانه شِقَّ ابن آدم الظاهر بعالم الشهود، وجعل له تفاعلا مع كل مشهود

وكذلك اتسم خلق الكون بالتركيب هو الآخر، فالسماء سماوات، والأرض أرضون، والزمان ماض وحاضر وآت.

كما أجاز الباري للإنسان مما خلقه له ما ينفعه، وحرم عليه ما يضره

ودعاه إلى الاعتدال في كل شيء، واجتناب التقتير والإسراف؛ ووعد من أطاعه سبحانه بالجنة، وتوعد من عصاه بالنار

فراعى الْقَلِيلُ ما دعاه إليه ربه، ولم يَأْبَهْ الكثير لما دعاه إليه

فبقي المولى على حاله، مع المطيعين والعاصين، يرزق هؤلاء وأولئك بغير حساب، لا يعيى برزقهم أبدا

فما حاجة الباري عز وجل لهذا الخلق وهو الغني عن العالمين؟

والجواب الظاهر من كتاب الله تعالى، هو ما أخبر به سبحانه من أنه لم يخلق الكون سدى

قال سبحانه: "**وما خلقنا السماء والارض وما بينهما لا عبين، لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا، إن كنا فاعلين**". الأنبياء16-17

ولعل الله تعالى، أجابنا عن تساؤلنا عن جدوى خلقه العالم بما فيه، أجابنا حسب ما تحتمله عقولنا، ومدى إدراكنا وفهمنا؛ وإلا فالجواب لا طاقة لنا بالإحاطة به البتة، وكيف نحيط بشيء من شأن الألوهية، ونحن العبيد الذين لا حول لهم ولا قوة؟

14/01/2026 15:45 تنزيل كتاب - 1-50 صفحات - MAFAHIM

وإذا نظرنا إلى الخلق بعين مجردة، نقول: الخلق قائم على التصوير والإيهام كما سبق ذكره، ومن المستحيل فَصْلُ الله تعالى عن خلقه، فلا يخلو شيء مما خلقه الله تعالى منه سبحانه، ولا أعني بذلك أنه لا يخلو من الدلالة على وجود خالقه وحسن صنعه وتدبيره، بل أعني أنه تعالى موجود في كل شيء، وَمَنْ أخطأ فَهْمَ هذا التَّضَمُّنَ اخْتَلَّتْ عقيدته فادعى الوحدة والحلول، وادعى الألوهية والعياذ بالله

وقد يتساءل القارئ ويقول: إذا كنا نقول أن الله تعالى في كل شيء، فذلك لا يمنع من أنه تعالى في الإنسان، فكيف لا يحق له أن يقول: أنا الله. والله تعالى في ذاته؟

وأجيب بقولي، والله أعلم بالصواب: إنه بقولنا أن الله ليس في ذات الإنسان، نحكم عليه تعالى بالحيز والمساحة، وهو الواسع العليم، يَسَعُ كل شيء ولا يَسَعُهُ شيء. فلا يُنْكِرُ علينا أحد من علماء العقائد، إذا قلنا أنه ما من موضع في الأكوان إلا وفيه ربنا الرحمن

إلا أن هذا التواجد الإلهي في الأشياء، هو تواجد الخالق في المخلوق، لا تواجد المخلوق في المخلوق

وإن شئت، فهو كما قال علي كرم الله وجهه: هو في الأشياء على غير ممازجة، خارج منها على غير مباينة، فوق كل شيء ولا يقال شيء فوقه، أمام كل شيء ولا يقال له أمام، داخل في الأشياء لا كشيء في شيء داخل، وخارج منها لا كشيء من شيء خارج. انتهى من نهج البلاغة

وإذا أردنا أن نزيد الأمر وضوحا، لا نفرق بين الخالق والمخلوق، فلا وجود للأكوان بمعزل عن المكون، وإنما هي وإياه واحد، هي وإياه الله

وكي أقرب هذه الصورة للقارئ العزيز، أضرب له مثالا، ولله المثل الأعلى، إذ بالمثال يتضح المقال. فأقول: اِفْتَرِضْ أنك جالس وأنت سَاهٍ تتخيل دَوْلَتَيْنِ لكل دولة مَلِكٌ وعساكر، هُمَا، أي الدولتان، في حَرْبٍ سِجَالٍ بينهما، تتصور هذه الأحداث بمخيلتك وكأنها حقيقية. ثم تنتبه من سهوك، فتجد نفسك عدت إلى واقعك، وكأنك كنت في حلم

فكأن الدولتين الأكوان بما فيها، وكأن المتخيل الله تعالى. ولله المثل الأعلى سبحانه، فافهم

إلا أن الْمُكَلَّفِينَ في الأكوان، ترك لهم الله تعالى حرية الاختيار في كثير من أمورهم، بخلاف الدولتين، فإن المتخيل هو الذي يرسم ما يقع بينهما من أحداث على حسب ما تُمْلِيهِ عليه إرادته

إننا ونحن نتساءل عن هدف الله تعالى من خلقه، بل ونستغرب من ذلك، يكون دافعنا نَقْصٌ في معرفتنا بالمولى عز وجل، فإن هذه التساؤلات، تُضْفِي عليه سبحانه صفات البشر، وكأنه إنسان، رغم أننا نعتقد بأن الله تعالى واحد في ذاته وصفاته وأفعاله

فحين نعتقد أن الله تعالى موجود منذ الأزل، قديم غير مسبوق بعدم، فإننا بذلك نُنَزِّهُهُ سبحانه عن مماثلته للحوادث التي لا وجود لها بغير مُوجِدٍ

https://fliphtml5.com/xdxqb/fygr/basic 111/212

فما لنا نتساءل عن هدفه من الخلق، وكأنه إنسان، قام بعمل لا يعود عليه بالنفع، فنتساءل: ما بال هذا الإنسان قام بكل ذلك سدى؟

فإذا كان الانسان العاقل، هو الذي لا يفعل شيئا بغير هدف، فإن الله تعالى غير ملزم بأن تجري عليه هذه القاعدة

فمن قال لك أن الله تعالى لا يفعل الأشياء إلا بهدف، وهل تدري إلى ما يهدف سبحانه بخلقه ما خلق؟

إن المراد بالهدف لدينا هو ما يترتب عنه النفع، ولكنه ليس بالضرورة هو معنى الهدف عند الباري عز وجل، فإن للألوهية ما يخصها، وللعبودية ما يخصها؛ فإذا أردت أن تتعرف إلى الله تعالى، فَتَجَرَّدْ من خصوصيات عبوديتك، عندما تحكم على أفعال ربك وتدابيره

ولهذا أخبرنا سبحانه، أنه لم يخلق الأكوان من أجل اللعب، ولكنه لم يخبرنا عن علة خلقها حقيقة، وهو جواب بالنفي، لكنه أقصى ما يمكن أن يفهمه بنو آدم

كقوله تعالى: "ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير". الشورى9

فوصف نفسه سبحانه بنفي الوصف والاتصاف، ولعل هذه الآية الكريمة هي أعز آية في وصف الله تعالى، بأن وصف نفسه بأن لا وصف له يماثل الحوادث

ومن هنا نفهم أن الشريعة خاطبت الناس على حسب عقولهم، خاصة وأن الذين بُعِثَ فيهم رسول الله ﷺ، أغلبهم أعراب بسطاء أميون لا يفقهون شيئا

فخاطبهم الباري عز وجل على حسب عقولهم، ودعاهم إلى التفكر فيما لا يحتاج إلى بحث ومشقة، فقال يخاطب الأعرابي الراكب على ناقته: "أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت". الغاشية17-20

فكلها مشاهد ينظر إليها هذا الأعرابي من على ظهر ناقته دون مشقة

وفي صحيح البخاري عن أبي ذر رضي الله عنه قال: كنت مع النبي ﷺ في المسجد عند غروب الشمس، فقال: "يا أبا ذر، أتدري أين تغرب الشمس؟" قلت: الله ورسوله أعلم، قال: "فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش، فذلك قوله تعالى: "والشمس تجري لمستقر لها، ذلك تقدير العزيز العليم". يس37

فلو ذَكَرَ رسول الله ﷺ حَقِيقَةَ الأمر، بأن الأرض هي التي تدور حول الشمس، لزاد الناس له تكذيبا وأمعنوا في إذايته ومن اتبعه من أصحابه، لأن عقولهم لا تحتمل ذلك

وما حاجة الرب سبحانه لكي يعتقد الناس أن الأرض مَدْحُوَّةٌ، أو أنها تدور؟ بل حاجته تعالى منهم الهداية والرشاد

ولما عُرِجَ برسول الله ﷺ، لِقَطْعِ سبع سماوات إلى سِدْرَةِ الْمُنْتَهى، فإنه ﷺ، لم يكن يحتاج إلى أن يركب البراق، ويطير به ويقطع السبع الطباق، لكي يحمله على عجل إلى ربه عز وجل، فالله تعالى ليس بعيدا عنا حتى نسافر إليه

قال سبحانه:"وهو معكم أينما كنتم، والله بما تعملون بصير". الحديد4

ولكن الله تعالى أجرى على رسوله ﷺ، ما أجرى ليلة الإسراء والمعراج، حتى يمتحن قلوب المؤمنين، وحتى يرجع إليهم ﷺ بما رجع من أخبار السماوات وأخبار الأنبياء الذين قابلهم فيها، وكذا أخبار الجنة والنار وغير ذلك.

وقد كانت معرفة الله تعالى عند الصحابة الكرام لا تتطلب كثرة الكلام، فقد كانوا يفهمون القرآن كما نزل، ولا يطرحون جملة من التساؤلات الفضولية، وهي تساؤلات خاوية انتشرت في رقعة الإسلام بعد موت رسول الله ﷺ بقليل

وذلك بسبب تلاقح الحضارات وترجمة العلوم، بدخول شعوب الأمم الأخرى في هذا الدين، وانفتاح المسلمين على هذه الأمم التي دخلت الإسلام واختلطت مع المسلمين بما تحمله من عادات وثقافات وفنون. فلم يعد العقل بسيطا كما كان، بل تَطَوَّرَ وَتَرَكَّبَ، فَتَأَسَّسَتِ العلوم وَتَفَنَّنَ المتكلمون في الكلام عن العقائد، وأهل الله في الكلام عن الله تعالى

إلا أننا في عصرنا الحاضر، نلاحظ قوما تطاولوا على ما ليس لهم فيه، من أنفسهم غرورا وجهلا، أو مدفوعين من جهات معروفة تُكِنُّ العداء للإسلام والمسلمين. وهكذا أفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا، وَأَوَّلُوا آيَ القرآن حسب أهوائهم، وبما لا تستسيغه لغة الضاد.

فَمِنْ قائل: لا حاجة لنا بالسنة، وإنما نقتصر على كتاب الله تعالى

وَمِنْ مُدَّعٍ أن عذاب القبر مرفوع، مستدلا بقوله تعالى: "قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا". يس51

وقد روى الإمام البخاري وغيره عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: "سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالما، اتخذ الناس رؤوسا جهالا، فسئلوا، فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا ".

المبحث الخامس: في الذكر والأنثى

أَمِنْ ضِلْعٍ بِهِ عِوَجٌ عُيُونُ إِذَا نَظَرَتْ فَنَظْرَتُهَا فُتُونُ؟
نِسَاءٌ قَدْ خُلِقْنَ لَنَا ابْتِلَاءً وَأُنْساً إِنْ أَصَابَتْنَا الشُّجُونُ
شَقِيقَاتٌ لَنَا فِي الشَّرْعِ لَكِنْ شَرِيعَتُهُنَّ فِي الدُّنْيَا مُجُونُ
بَرَى رَبِّي مِنَ الْأَشْيَاءِ زَوْجاً وَمِنْهُ اثْنَيْنِ مَا حَمَلَ السَّفِينُ
فَلَا ذَكَرٌ بِلَا أُنْثَى وَرَبِّي وَلَا أُنْثَى بِلَا ذَكَرٍ تَكُونُ
تَرَى شَيْئاً بِهِ ضِدٌّ خَفِيٌّ فَمَا جَدْوَى الْحَيَاةِ وَلَا مَنُونُ؟
وَمَا جَدْوَى النَّهَارِ بِغَيْرِ لَيْلٍ وَمَا جَدْوَى الْحَيَاةِ وَلَا بَنِينُ ؟[13]

اِعلم رحمك الله، أن الله تعالى أَقَرَّ في شرعه الكريم بأن النساء شقيقاق الرجال في الأحكام. وَلَمَّا خلق سبحانه آدم أول مرة، خلقه وحده، ثم خلق منه حواء. فالخلق الأول خَلْقُ الرجل الْمَعْنِيِّ بالرسالة والتكليف، والخلق الثاني خلق المرأة التي ما خُلِقَتْ سوى للرجل، لقوله تعالى: "يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء". النساء1

وقد خلقهما سبحانه للجنة الأولى، ونعتناها بالأولى، حتى نُخْرِجَ الثانية، فقد فَرَّقْنَا بينهما في غير هذا الكتاب لقراين ذكرناها هناك.

وَحَرَّمَ سبحانه عليهما الأكل من الشجرة المحرمة معا، لما وَجَّهَ إليهما الخطاب بالنهي قائلا: "ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين". الأعراف18

ولما خالفا أمره قال سبحانه: "فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة، وعصى آدم ربه فغوى". طه118

وبهذا يكون الباري عز وجل قد نَسَبَ الأكل إليهما معا، لكنه نَسَبَ العصيان والغواية لآدم وحده، وفيه إشارة واضحة منه عز وجل، إلى أن الرجل يحتمل مسؤولية الأحكام أشد مما تحتمل المرأة

لكنه تعالى بنهيهما معا، يكون قد أنزل المرأة هي الأخرى تحت التكليف، فلا ننسى، أنه تعالى أهبطها الأرض مع من أهبط عقابا لها على المخالفة، ولو اعتبرها دون التكليف لأبقاها في الجنة. فهي معنية بالأمر مقصودة بالرسالة، لا لشيء، إلا لأنها إنسان، والله تعالى يقول: "إنا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها، وحملها الانسان إنه كان ظلوما جهولا". الأحزاب72

[13] من نظم المؤلف في الوافر

ويقول أيضا: "ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف، وللرجال عليهن درجة، والله عزيز حكيم". البقرة226
وإن كان بَعْدَ كُلِّ ما أسلفنا لِحَوَّاءَ ما لآدم، فما عليها إلا بعض ما عليه
وقد أَوْهَمَ النصارى في احتقار المرأة واتهامها بأنها هي التي أغوت آدم بالأكل من الشجرة المحرمة، وكانت سببا لطرده من الجنة وشقائه في الأرض، وذلك اعتمادا على ما ورد في سفر التكوين. وهو كالتالي: فَرَأَتِ الْمَرْأَةُ أَنَّ الشَّجَرَةَ جَيِّدَةٌ لِلأَكْلِ، وَأَنَّهَا بَهِجَةٌ لِلْعُيُونِ، وَأَنَّ الشَّجَرَةَ شَهِيَّةٌ لِلنَّظَرِ. فَأَخَذَتْ مِنْ ثَمَرِهَا وَأَكَلَتْ، وَأَعْطَتْ رَجُلَهَا أَيْضًا مَعَهَا فَأَكَلَ. انتهى
وانطلاقا من هذا المفهوم الخاطئ، اعتبر النصارى المرأة عَدُواً للرجل، بل هي شيطان يَحُولُ بينه وبين إطاعة ربه.
ولعل تبعية حواء لآدم ثابتة عندنا، لأنه أصل خلقتها، فقد ورد في الأثر: عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره، واستوصوا بالنساء خيرا فإنهن خُلِقْنَ من ضِلْعٍ، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيرا". رواه البخاري
فتكون، أي المرأة، قد تفرعت عن الرجل، بل تفرعت من جزء منه، وهو ضلعه. وهذا يقتضي أنها منه وإليه، فكما أنها لا يمكن أن تستغني عنه كما لا يمكن استغناء الفرع عن الأصل والغصن عن الشجرة، فهو الآخر، أي آدم، لا غنى له عنها لأنها منه، ولأنها الجزء الذي يكمله
والرجل والمرأة، كلاهما يطلب صاحبه ويرغب فيه، بل وينجذب إليه بالفطرة التي فطره الله عليها، للأسباب التي ذكرناها من قبل
فوحدة الإنسان التي أنزل الله تعالى بها الرسالة، تقوم على اتحادهما، ولا يستوي الدين إلا باقترانهما بالمحبة والتزاوج.
ففي الأثر عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "من رزقه الله امرأة صالحة فقد أعانه على شطر دينه، فليتق الله في الشطر الباقي". رواه الطبراني في الأوسط
ناهيك عما يُخَوِّلُهُ هذا الاقتران من أمان وسكينة لهما معا، بالإضافة إلى التمكن من التناسل من أجل إنجاب الولد والذرية
وكثير من الرجال، إن لم أقل أغلبهم، لا يتزوجون من أجل الولد وحسب، بل يكون زواجهم لانْجِذَابِهِمْ إلى النساء، وبغية تلبية متطلبات غرائزهم الجنسية. ويكون الانجذاب المتبادل بين الرجال والنساء متفاوتا في حِدَّتِهِ، حسب طبيعة الْمُنْجَذِبِ والْمُنْجَذَبِ إِلَيْهِ، من حيث نفسيته ومزاجه، ومن حيث جماله وقبحه
وَكُلَّمَا سَمَا ذوق المرء، كلما كان انجذابه أَرَقَّ وَأَرْقَى، وكلما خَشُنَ طبعه، اكتفى بالانجذاب الحيواني الذي تفرضه غريزته.

والانجذاب الْأَرَقُّ وَالْأَرْقَى هو ما سُمِّيَ بالحب والعشق والهيام، وما أكثر مرادفاته في لغة الضاد. ولم تأت هذه المرادفات لتكرر نفس معناه، بل كل مرادف يُعَبِّرُ عن صنف من أصنافه، واختلافه عن غيره في صدقه وقوته ويجسد ما قلناه، ما زخرت به القصائد العربية في الجاهلية بالخصوص، من طلليات ونسيب تقرأ فيه معنى هذا الحب عند كثير من الشعراء، وتدرك مدى تأثيره على الشاعر، حتى أنه لا يعرف النوم إلى جفنيه سبيلا، ولا يفتأ يخاطب القمر والنجوم، ويناجي المها، ويناشد القطا، ويشبه حبيبته بالآرام والغزلان

ومنه ما ورد في معلقة النابغة الذبياني:

كِلِينِي لِهَمٍّ يَا أُمَيْمَةُ نَاصِبِ وَلَيْلٍ أُقَاسِيهِ بَطِيءِ الْكَوَاكِبِ
تَطَاوَلَ حَتَّى قُلْتُ لَيْسَ بِمُنْقَضٍ وَلَيْسَ الَّذِي يَرْعَى النُّجُومَ بِآيِبِ
وَصَدْرٍ أَرَاحَ اللَّيْلُ عَازِبَ هَمِّهِ تَضَاعَفَ فِيهِ الْحُزْنُ مِنْ كُلِّ جَانِبِ.[14]

ومنهم كعب بن زهير بن أبي سلمى المزني، الشاعر المخضرم الذي اشتهر في الجاهلية، ولما ظهر الإسلام هجا النبي ﷺ وشبب بنساء المسلمين، فأهدر ﷺ دمه. فلما ضاقت عليه الأرض بما رحبت أسلم وجاء مستخفيا إلى النبي ﷺ، وأنشده لاميته المشهورة التي مطلعها:

بَانَتْ سُعَادُ فَقَلْبِيَ الْيَوْمَ مَتْبُولُ مُتَيَّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُفْدَ مَكْبُولُ
وَمَا سُعَادُ غَدَاةَ الْبَيْنِ إِذْ رَحَلُوا إِلَّا أَغَنُّ غَضِيضُ الطَّرْفِ مَكْحُولُ.[15]

والملاحظ، أن كعبا في مطلع لاميته، حافظ على ما تُعُورِفَ عليه في الجاهلية في البناء الشعري، واستهل قصيدته بالمقدمة الطللية، ومع ذلك لم يعترض عليه النبي ﷺ، بل عفا عنه وأكرمه بعد أن أعجبه ما أصغى إليه من شعره، وخلع عليه بردته الشريفة

ومنهم عنترة بن شداد العبسي، أشهر فرسان العرب في الجاهلية، يَرِقُّ شعوره بِحُبِّ ابنة عمه عَبْلَةَ بنت مالك ويقول:

[14] في الطويل

[15] في البسيط

فَهَلْ تَسْمَحُ الْأَيَّامُ يَا ابْنَةَ مَالِكٍ بوَصْلٍ يُدَاوِي الْقَلْبَ مِنْ أَلَمِ الصَّدِّ
سَأَحْلُمُ عَنْ قَوْمِي وَلَوْ سَفَكُوا دَمِي وَأَجْرَعُ فِيكِ الصَّبْرَ دُونَ الْمَلَا وَحْدِي
وَحَقِّكِ أَشْجَانِي التَّبَاعُدُ بَعْدَكُمْ فَهَلْ أَنْتُمُ أَشْجَاكُمُ الْبُعْدُ مِنْ بَعْدِي
حَذَرْتُ مِنَ الْبَيْنِ الْمُفَرِّقِ بَيْنَنَا وَقَدْ كَانَ ظَنِّي لَا أُفَارِقُكُمْ جُهْدِي
فَإِنْ عَايَنَتْ عَيْنِي الْمَطَايَا وَرَكْبَهَا فَرَشْتُ لَدَى أَخْفَافِهَا صَفْحَةَ الْخَدِّ.[16]

وقال أبو الطيب المتنبي:

وَإِنِّي لَمَمْنُوعُ الْمَقَاتِلِ فِي الْوَغَى وَإِنْ كُنْتُ مَبْذُولَ الْمَقَاتِلِ فِي الْحُبِّ.[17]

وقد قلت في هذا المعنى:

فَتًى فِي الْحَرْبِ لَمْ أُخْطِئْ رَمِياً فَمَالِي فِي الْهَوَى طَاشَتْ نِبَالِي ؟[18]

وقال جرير بن عطية الكلبي:

إِنَّ الْعُيُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا حَوَرٌ قَتَلْنَنَا ثُمَّ لَمْ يُحْيِينَ قَتْلَانَا
يَصْرَعْنَ ذَا اللُّبِّ حَتَّى لَا حَرَاكَ بِهِ وَهُنَّ أَضْعَفُ خَلْقِ اللهِ أَرْكَانَا .[19]

ومن المتأخرين، محمد بن سعيد بن حماد الصنهاجي البوصيري، توفي سنة 696هجرية رحمه الله تعالى. اشتهر بقصيدته الميمية المسماة بالبردة في مدح النبي ﷺ، وقد استهلها رحمه الله تعالى بمقدمة طللية في التسعة أبيات الأولى، رغم أنه قصد من شعره مدح النبي ﷺ، ورغم ذلك، تداولها الناس في مختلف بقاع العالم، وتلوها في بيوتهم وفي مساجد الله تعالى. قال رحمه الله تعالى في مطلعها:

أَمِنْ تَذَكُّرِ جِيرَانٍ بِذِي سَلَمِ مَزَجْتَ دَمْعاً جَرَى مِنْ مُقْلَةٍ بِدَمِ
أَمْ هبَّتِ الرِّيحُ مِنْ تِلْقَاءِ كَاظِمَةٍ وَأَوْمَضَ الْبَرْقُ فِي الظَّلْمَاءِ مِنْ إِضَمِ
فَمَا لِعَيْنَيْكَ إِنْ قُلْتَ اكْفُفَا هَمَتَا وَمَا لِقَلْبِكَ إِنْ قُلْتَ اسْتَفِقْ يَهِمِ؟
أَيَحْسَبُ الصَّبُّ أَنَّ الْحُبَّ مُنْكَتِمٌ مَا بَيْنَ مُنْسَجِمٍ مِنْهُ وَمُضْطَرِمِ؟
لَوْلَا الْهَوَى لَمْ تُرِقْ دَمْعاً عَلَى طَلَلٍ وَلَا أَرِقْتَ لِذِكْرِ الْبَانِ وَالْعَلَمِ .[20]

---

[16] في الطويل
[17] في الطويل
[18] للمؤلف في الوافر
[19] في البسيط
[20] في البسيط

وحتى لا نطيل، وقد راودنا طيف الشعر فأشجانا وكاد ينسينا ما نحن بصدد ذكره، نختم بما استهللت به، أنا عبد ربه، قصيدة البطحاء في مدح خير البرية جمعاء:

شَرْعُ الْهَوَى عِنْدَ النَّوَى زَجَرَا صَبًّا هَوَى بِالزَّجْرِ مَا ازْدَجَرَا
لَمَّا اكْتَوَى بِالشَّوْقِ فِي سَهَرٍ حَرُّ الْجَوَى فِي سُهْدِهِ اسْتَعَرَا
مَا زَالَ بِالْبَطْحَاءِ مُحْتَشِماً لَمَّا إِبَاهُ نَهَاهُ وَانْتَهَرَا
أَشْجَتْهُ أَسْرَابُ الْقَطَا عَبَرَتْ دِيَّارُ مَنْ يَهْوَى وَمَا عَبَرَا
أَضْحَى يُسَائِلُهَا بِلاَ حَرَجٍ عَنْ سَاكِنٍ فِي بَكَّةَ الْخَبَرَا
يَا هَلْ تَرَى نَظَرَتْ بِغُدْوَتِهَا عِنْدَ الضُّحَى فِي شِعْبِهَا قَمَرَا؟
لَكِنَّهَا عَجِبَتْ وَمَا عَهِدَتْ قَمَراً مَشَى فِي الْأَرْضِ أَوْ خَطَرَا
زَادَتْهُ لَمَّا أَنْكَرَتْ كَمَداً وَالصَّبُّ يُشْجِيهِ الَّذِي نَكِرَا
يَا عَاذِلِي إِنْ مَا عَذَرْتَ فَمَا مِنْ عَاذِلٍ فِي الْحُبِّ قَدْ عَذَرَا
لَوْلاَ الْحَيَا لَمْ أَبْقَ مُرْتَقِباً أَقْدَمْتُ لَكِنَّ الْحَيَا دَبَرَا .[21]

ومن هنا نستنكر على من أنكر التشبب بالمرأة ورأى أنه من سفاسف الكلام، فلا حرج في التشبب والنسيب في ديننا، إن كان عذريا لا يمس عرض المرأة وينتهك حرمتها ويخدش جبين الحياء. بل هو إكبار للمرأة في مجتمع كان يئد بناته خوف العار، ويكرههن على البغاء إن أردن تحصنا

هذا المخلوق الواهن، لا حول له ولا قوة، حتى مَثَّلَهُ رسول الله ﷺ بالقوارير، أي الزجاج، لسرعة تحطمه

ففي الصحيح عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان في سَفَرٍ، وكان غلام يَحْدُو بهن يقال له أنجشة، فقال النبي ﷺ : "رويدك يا أنجشة سوقك بالقوارير". قال أبو قلابة: يعني النساء

وعن أنس قال: كان لرسول الله ﷺ حَادٍ حسن الصوت، فقال له رسول الله ﷺ : "رويدا يا أنجشة، لا تكسر القوارير". يعني ضعفة النساء. رواه مسلم

رغم وهن المرأة وضعفها، فقد أرغمت الرجل مهما كانت قوته وشدة بأسه، على أن يسهر الليل ويبكي ويسيح مع الوحوش في الفيافي، يشكوها تباريح الشوق وبعد الحبيب

إن هذا التجاذب العظيم بين الجنسين، اقتضته حكمته تبارك وتعالى، حتى يقترن الرجال بالنساء، حفاظا على الجنس البشري مِنَ الانقراض مِنْ على وجه البسيطة

[21] للمؤلف في الكامل

فالرجل يحب المرأة ويهيم بها، ثم يتزوجها راغما، وعندما يرزق منها بالولد، يَبْلُوهُ الله تعالى بحب الوالد لولده، ويبلوها بحب الوالدة لولدها، فيصبحان أبوين بعد أن كانا مجرد زوجين

فانظر رعاك الله تعالى إلى حب الوالدين لأبنائهما وبناتهما، واعتبر صدقه وعظمته، إنه حب لا مصلحة من ورائه، وإنما هو حب فطري في بني آدم، بل في الحيوانات جميعا، ولولا هذا الحب، لما قدرا، أي الوالدان، على رعايتهم بالمرة، ولهلكوا، أي الأبناء والبنات، بإهمال الوالدين وعدم الاكتراث لما ولدوا

حتى إذا كبر الأبناء وشاب الآباء والأمهات، انتقلت الرعاية من هؤلاء إلى أولئك، لأن الله تعالى بلا الأبناء بحب والديهم، حتى لا يفرطوا فيهم في كبرهم وعجزهم، ويقومون برعايتهم بالإيواء والإطعام. وهكذا الإخوة والأخوات فيما بينهم. فتدبر رحمك الله تعالى، في حكمته البالغة في هذا التوادد الرائع والتراحم العظيم، حتى تعرف مدى رحمة الله تعالى الرحمن الرحيم، ولو ما أودعه الله تعالى في خلقه من محبة وحنان، لما كان تزاوج ولا ذرية ولا رعاية، وخلا الثقلان وكل مخلوق حي من على وجه الأرض

وقد خُلِقَتْ حَوَّاءُ من ضلع آدم، كما سبق ذكره، وَلَخَّصَ الباري عز وجل الغاية من خلقها في قوله سبحانه: "**يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ليسكن إليها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء**". النساء1

إلا أن هذا الْخَلْقَ الْمُتَفَرِّعَ عن خَلْقٍ قَبْلَهُ، هذا الخلق من ضلع أعوج، كما وصفه رسول الله ﷺ، يَسِمُ المرأة بنقص فيما طَبَعَهَا الله عليه، في عقليتها ونفسيتها، بل وجسدها

ثم إن رسول الله ﷺ، يقول في هذا الضلع الأعوج: "فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج". وفي ذلك إشارة إلى خصوصية التعامل مع المرأة، ودلالة على أنه ليس هو نفسه التعامل مع الرجل. وإن شئت، لا يصلح للمرأة أن تعاتبها على كل تصرفاتها وكأنها رجل مثلك، بل يجب أن تراعي في ذلك ضعفها وفرعية الخلق فيها التي تشوب اكتمال شخصيتها، وَتُخِلُّ بسدادها في التصرف والتفكير.

فصل في مراعاة الشارع وَهَنَ المرأة، وَعَدَمِ تكليفها بكثيرٍ مِمَّا طالب به الرجل، في شؤون الدنيا والدين على السواء

وقد راعى الشارع في أحكامه استقلالية المرأة عن الرجل، فلم يُجَشِّمْهَا عِبْءَ ما جَشَّمَ الرجل من تكاليف، بل رفع عنها كثيرا مما وضعه عليه، ورخص لها فيما لم يرخص له، ومن ذلك أن وضعها في وضعية الْإِعَالَةِ في كل الأحوال. فالرجل يَعُولُهَا وهي زوجته، ويَعُولُهَا وهي أخته أو بنته، وليس له الحق في أن يطالبها بالإنفاق مهما اغتنت وكثر مالها

كما رفع عنها الجهاد، ورفع عنها صلاة الجمعة، ولم يطالبها بقضاء ما لم تُصَلِّ في أيام نِفَاسِهَا ودورتها الشهرية، وما إلى ذلك. كما أن الشارع راعى افتراق عقلها وتفكيرها عن عقل الرجل وتفكيره، فأبعدها عن مناصب المسؤولية كالحكم والقضاء، فعن أبي بكرة قال: لقد نفعني الله بكلمة سمعتها من رسول الله ﷺ أيام الجمل، بَعْدَ ما كِدْتُ أن أَلْحَقَ بأصحاب الْجَمَلِ فَأُقَاتِلَ معهم، قال: لما بلغ رسول الله ﷺ أن أهل فارس قد مَلَّكُوا عليهم بنت كسرى، قال: "لن يفلح قوم وَلَّوْا أمرهم امرأة". رواه البخاري

ولم يضع عصمتها بيدها وَيُجِزْ لها تطليق نفسها، وألزم البكر بالولي في الزواج، وجعل شهادة الرجل بشهادة امرأتين، أَنْ تَضَلَّ إحداهما فَتُذَكِّرَ إحداهما الاخرى. وقد جُبِلَتِ المرأة على غَلَبَةِ الجانب العاطفي عليها، على حسب ما تتطلبه مهمتها التي خلقت لأجلها، وهي تربية أبنائها رعايتهم

واليوم نَشْهَدُهَا وقد خرجت عن فطرتها وطافت تزاحم الرجل في مَهَامِّهِ، وَتَحْمِلُ من مسؤولياته ما لا طاقة لها بِتَحَمُّلِهِ، ظَنّاً منها أنها بذلك حصلت على حريتها، ولم تعد خادمة للرجل وأبنائه في البيت، تقوم بحاجياته وحاجياتهم، بل هي مخلوق مثله في حاجة إلى التحرر والانطلاق، وليس من حق الرجل أن يأمرها وينهاها بما يشتهي وقتما شاء. بل إن كثيرا من النساء تَزَيَّنَّ وَتَعَرَّيْنَ لغير أزواجهن وخرجن إلى الشارع، متعذرات بالتحرر.

ولم يهنأ للمرأة بال حتى طالبت بالمساواة بالرجل. فماذا ربحت بثورتها على الرجل، وتسيبها دون رادع فيما أوهمت بتسميته التحضر والعصرنة؟ فإذا كانت الأسرة هي بنية المجتمع، ولا يكون المجتمع سليما متماسكا إذا شُرِخَتْ بِنْيَاتُهُ، فقد غابت المرأة عن بيتها وأبنائها، وصرنا نرى الرجل يخرج مع زوجته باكرا، يحملان رضيعا يُودِعَانِهِ في روض لِلرُّضَّعِ، بَيْنَ أَيْدٍ لا يدريان أَتُحْسِنُ إليه أم تُسِيءُ. وكيفما كان الحال، فلا بديل للرضيع عن أمه، كما أكدته جميع الدراسات المختصة

وَاسْتَشْرَتْ ظاهرة العزوف عن الزواج، وذلك لتوفر المرأة للرجال في الشارع، فحتى الذي يعجز منهم عن مغازلتها، فهي تبيع عرضها بأبخس الأثمان

أصبحت المرأة سلعة تباع وتشترى، تزين واجهات الإشهار، وَتُؤْنِسُ وَصَلَاتِهِ، متى عَرَضْنَا الزيت أو السجائر عرضناها معها

14/01/2026 15:45 MAFAHIM - تنزيل كتاب - 1-50 صفحات

أَيُّ حرية هذه التي تَتَرَنَّمِينَ بها يا ابنة حواء؟ ها أنت صرت تلهثين وراء الرجل، وقد كان في الماضي يلهث وراءك، وينتظر منك بفارغ الصبر إشارة واحدة بأناملك الغضة، حتى يَتَقَدَّمَ إلى والديك ويكرمك بخطوبة على سنة الله تعالى ورسوله ﷺ

صار الرجل لا يَتَقَدَّمُ لك إلا إذا كان لك مورد مالي، مهما كان جمالك ورقتك، ألا ترين وأنت ذاهبة إلى العمل، كيف يَسْبِقُ إليك التَّذَمُّرُ وَالْإِجْهَادُ، لأنك ما خلقت لِلتَّعَبِ وَالنَّصَبِ، وإنما أراد لك المولى عز وجل، أن تلبثي في بيتك مُعَزَّزَةً مُكَرَّمَةً، محفوظة القدر مَصُونَةَ الْعِرْضِ؟

أنت اليوم كَالْجُنْدِيِّ في ميدان الْوَغَى، لا ترتاحين ليلا ولا نهارا، ألا ترين أنك تفقدين أنوثتك؟ أين نور الحياء في وجهك؟ ما باله انطفأ؟ أَيْنَ تَوَرُّدُهُ على وجنتيك؟ ما باله خسأ؟ أين كلامك الذي يذيب القلوب الصلدة، وَيَطْرَبُ له الرجل فينسى همه وأحزانه؟ ما باله اهترأ؟ أين حُرْمَتُكِ التي صانها الرجال فيما قبل، فلم يقدر أحد على النظر إليك بعين المكر والفجور، ولا جرأ؟

أين فتنتك التي عهدناها فيك من قبل، حتى أن الرجال كانوا يفتتنون بك إذا سمعوا رنين الْحِجَالِ في ساقيك، لَمَّا تمشين على استحياء كاليمامة السانحة؟

قال سبحانه: "ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن، وتوبوا إلى الله جميعا أيها المومنون لعلكم تفلحون". النور31

قال ابن كثير: كانت المرأة في الجاهلية إن كانت تمشي في الطريق، وفي رجلها خُلْخَالٌ صَامِتٌ لَا يُعْلَمُ صَوْتُهُ، ضربت برجلها الأرض، فيسمع الرجال طنينه، فنهى الله المؤمنات عن مثل ذلك. انتهى من تفسير ابن كثير

أين أنت؟ أين أنت يا زوجة الرجل وأمه وأخته وبنته وعمته وخالته وجدته

ألا يكفيك كل هذا التشريف؟ "أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير، اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم". البقرة60

أين عيناك الساهمتان في عوالم الروعة والجلال، من نظرت إليه نظرة ملكت عليه نفسه وكيانه، وأضحى شاعرا يبدع في ما اعْتَرَاهُ من معاني الشوق وَالْهُيَامِ، أو فَنَّانًا تُلْهِمِينَهُ ما رَقَّ وعذب من الألحان

قلت:

وَافْتَرَقْنَا
سَيِّدَتِي
عَلَى صَخْرَةِ السَّرَابْ
وَاقْتَرَفْنَا

https://fliphtml5.com/xdxqb/fygr/basic 121/212

أَكْبَرَ إِثْمٍ
فِي صَحِيفَةِ الْأَحْبَابْ
لَمَّا صَارَ الْهَوَى
هَوَاءً
وَالْقُرْبُ وَالْبُعْدُ
عَادَا سَوَاءً
لَمَّا تَلَاعَبْتِ بِمَا اسْتَأْمَنْتُكِ
مِنْ هُيَامْ
وَتِهْتِ فِي التَّفَاهَاتِ
وَالْأَحْلَامْ
لَمَّا قَنَعْتِ بِانْطِوَائِكِ
فِي زُمْرَةِ الزِّحَامْ

فَاذْهَبِي حَيْثُ شِئْتِ
أَنَا لَا آبَهُ
لِلْحُبِّ الْمَسْمُومْ
وَانْزِلِي مِنْ يَخْتِي
أَنَا لَا أُبْحِرُ
تَحْتَ الْغُيُومْ

أُذْكُرِينِي
إِذَا أَنْهَكَتْكِ الْعَوَاصِفُ
وَشَتَّتَتْ مَا لَمَمْتِ مِنْ رُكَامْ
وَاذْكُرِي لِي
مَتَى اسْتَفَقْتِ
بَيْتاً مِنْ شِعْرِي
كَتَبْتُهُ فِي ذَاكِرَتِي
بِغَيْرِ رِيشَةٍ وَأَقْلَامْ

وَانْسَيْ أَنَّنِي أَحْبَبْتُكِ
فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامْ
لَكِنَّنِي لَنْ أَنْسَى حُباً
كَانَ وَهْماً
مِنَ الْأَوْهَامْ. انتهى[22]

لقد أثبت لنا التاريخ الإنساني، أن كل خروج عن الفطرة يؤدي إلى ما لا تحمد عواقبه، ولم أرَ يا ابنة حواء خروجا سافرا عن الفطرة مثل خروجك

أعرف أنك بعدما خرجت وصرت جندية تموجين في مجتمع لا يرحم، أعرف بعد كل هذا، أنك تشتاقين إلى حياة البيت وعزته، وَتَحِنِّينَ وأنت في عملك إلى أطفالك الذين تركتهم حيث لا تطمئنين عليهم، وأنت على يقين من أنهم يَحِنُّونَ إلى أمهم التي تَخَلَّتْ عنهم من أجل المال. إلا أنك لا زلت تعتقدين فيما أوهموك أنها الحياة، وأنه التحرر والسعادة

هؤلاء الْمُنَظِّرُونَ الذين تثقين بهم، ما هم إلا بشر يُصِيبُ ويخطئ، فما أشد ما تراجعوا عن كثير من النظريات التي كَذَّبَهَا الواقع الْمُعَاشُ، نظريات تَسْتَهْجِنُهَا النفوس السليمة

فقد سبق أن أكد خبراء التربية الغربيون أن الطفل الوليد يجب أن ينام في غرفة وحده، ولا ينام في حضن أمه، فيكفيها إذا لَبَّتْ جميع حاجياته. فلا يَغُرَّنَّهَا بكاؤه، فإنها إن هرعت إليه وحملته، فَسَيَتَعَوَّدُ على ذلك وَلَا يَفْتَأُ عن الصراخ ولا تَفْتَأُ عن حَمْلِهِ. فصار الرضيع يبكي ويعلو صراخه وهو في غرفة مُنْزَوِيَةٍ وحده، وتسمع أمه بكاءه وصراخه وتتأ لم لذلك، لكنها لا تأبه له، لأن الخبراء أوهموها أن مصلحته في إهماله

واليوم يتراجع هؤلاء الخبراء عما قالوه سابقا، ويرون أن الأصلح للطفل أن ينام في حضن أمه ولا يبقى في مَعْزِلٍ عنها، حتى يُشْبِعَ عاطفته ويغادرها من ذات نفسه

ما بَالُكُنَّ أيتها النسوة لم تَعُدْنَ قادرات على الْمُكُوثِ في البيوت؟ ولا تَرْضَيْنَ بخدمة أزواجكن، ولا تَقْنَعْنَ بشيء ولا تَحْمَدْنَ الله على شيء

كُلُّ امراة لا يَهُمُّهَا شيء سوى أن تَبْدُوَ جميلة في أعين الرجال. فَأَيُّ خُضُوعٍ للرجل أشد من هذا الخضوع؟

لقد ظنت المرأة انها أفلتت من قبضة الرجل، في حين أنها كانت بجانبه، فأجهدت نفسها لتعود تحت قدميه.

فإن كنتن مسلمات فاقرأن ما قال ربكن في كتابه العزيز

---

[22] ديوان: **لأويس هذه المزامير**. للمؤلف (في انتظار الطبع)

وإن كنتن غير مسلمات، فانظرن إلى أنفسكن في المرآة، فلن تبصرن أنفسكن، بل سَيُطَالِعُكُنَّ فيها شَبَحٌ مَطْلِيٌّ بمختلف الألوان، وَمُنَمَّقٌ بِتَكَلُّفٍ وَخَسَاسَةٍ. قلت:

فَلِلَّهِ يَا دَمْعَةَ الْأَبْرِيَّاءْ أَزِيلِي عَنِ الْوَجْهِ كُلَّ الدُّهُونْ
وَلَا تَحْجُبِيهِ بِهَذَا الطَّلَاءْ كَمَا تَحْجُبُ السُّحْبُ مَا تَحْجُبِينْ.[23]

وقد يكون العامل الأساسي في هذا اللُّبْسِ الذي اعْتَرَى المرأة في معرفة وظيفتها في المجتمع، هو الاختلال الذي طال حياتنا الأسرية، وأزرى بأبنائنا، وسلب الحميمية من علاقاتنا الاجتماعية

سيأتي يَوْمٌ يَفْطِنُ فيه المجتمع إلى هذا الخطأ الساذج، وَيُطَالِبُ فيه الرَّجُلُ الْمَرْأَةَ بالعودة إلى بيتها، بل تطالب المرأة الرجل بأن ترجع إلى بيتها وترعى أطفالها

وإلى أن يحين ذلك اليوم، ليكن الله تعالى في عون النساء جميعا

[23] للمؤلف في المتقارب من ديوانه الشعري: **أطلال**

فصل في أمهات المؤمنين الزَّوْجَاتِ، وَغَلَبَةِ طَبْعِ النساء عليهن في مُعَاشَرَةِ رسول الله ﷺ الزَّوْجِ

فأمهات المؤمنين رضي الله عنهن، هن زوجات رسول الله ﷺ، ولكن رغم مكانتهن عند الله تعالى، كما يدل عليه قوله تعالى: "يا نساء النبيء لستن كأحد من النساء إن اتقيتن". الأحزاب32

وقوله: "النبيء أولى بالمومنين من انفسهم وأزواجه أمهاتهم". الأحزاب6

رغم هذه المكانة، إذا نظرنا إليهن من جهة أنهن أمهات المؤمنين، فإننا نتقدم إليهن بالتوقير، لأنهن كُنَّ في مستوى ما أضفى الله تعالى عليهن من عفة وجلال. ولكن إذا نظرنا إليهن من جهة كونهن نساء، اكتشفنا أنهن كن متطبعات بما سبق ذكره من طبع النساء. فإنهن لم يلتزمن في معاملة النبي ﷺ بما يقتضيه شخصه من الأدب والتوقير

عن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ، خرج من عندها ليلا، قالت: فَغِرْتُ عليه، فجاء فرأى ما أصنع فقال: "ما لك يا عائشة، أَغِرْتِ؟" فقلت: وَمَا لِي لَا يَغَارُ مثلي على مثلك؟ فقال رسول الله ﷺ: "لقد جاءك شيطانك"، قالت: يا رسول الله، أَمَعِي شيطان؟ قال: "نعم"، قلت: ومعك يا رسول الله؟ قال: "نعم، ولكن أعانني الله عليه حتى أسلم." رواه مسلم

وفي مسند الإمام أحمد، أن نساء رسول الله ﷺ، طلبن منه النفقة بما لا طاقة له به، ولما دخل عليه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، وَجَدَاهُ جالسا ونساؤه حوله وهو سَاكِتٌ، فلما عَلِمَا بالأمر، هَمَّ كل واحد منهما أن يضرب بنته، وهما عائشة وحفصة، وخاطباهما قائلين: تسألان النبي ﷺ، ما ليس عنده؟ فردهما رسول الله ﷺ عن ذلك. ونزل قوله تعالى: "يا أيها النبيء قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا، وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما". الأحزاب28 29

وبذلك خَيَّرَهُنَّ الله تعالى في الطلاق أو البقاء مع رسول الله ﷺ، فاخترن البقاء. انتهى

وفي صحيح البخاري أن النبي ﷺ، كان يحب الحلوى والعسل، فدخل على زوجته حفصة بنت عمر بعد العصر، فبقي عندها أكثر مما كان يبقى، فغارت عائشت من ذلك، وعلمت أن امرأة من قوم حفصة أهدت إليها عكة عسل وسقت النبي ﷺ، منه شربة.

فعزمت عائشة على أن تحتال لرسول الله ﷺ، فقالت لسودة بنت زمعة: إذا دنا منك رسول الله ﷺ، فقولي له: أَكَلْتَ مغافير؟ فإنه سيقول: "لا"، فقولي: ما هذه الريح التي أجد منك؟ فإنه سيقول: "سَقَتْنِي حفصة شُرْبَةَ عسل"، فقولي: جرست نحله العرفط، وسأقول ذلك. فكلما دنا من إحداها قالت له ذلك. فلما دخل بعدها على حفصة وأرادت أن تسقيه العسل قال: "لا حاجة لي فيه". فقالت سودة لعائشة: والله لقد حرمناه، فقالت لها عائشة: أُسْكُتِي. انتهى

وفي رواية غيرها للبخاري أيضا، أنه ﷺ، شرب العسل عند زينب ابنة جحش، واحتالت له عائشة وحفصة. فلما دخل على إحداهما وقالت ما قالت: قال ﷺ: "لا، ولكني شربت عسلا عند زينب بنت جحش، ولن أعود له، وقد حلفت، فلا تخبري بذلك أحدا". فنزل قوله تعالى: "يا أيها النبيء لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك، والله غفور رحيم، قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم والله مولاكم، وهو العليم الحكيم، وإذاسر النبيء إلى بعض أزواجه حديثا، فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض، فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا قال نبأني العليم الخبير، إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما، وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المومنين، والملايكة بعد ذلك ظهير، عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات مومنات قانتات تايبات عابدات سايحات ثيبات وأبكارا". التحريم 1-5

جرست نحله العرفط أي: رعت نحله شجر العرفط الذي صمغه المغافير، فلهذا ظهر ريحه في العسل الذي شربته.

وروى الطبراني في الأوسط عن عمر رضي الله عنه قال: حتى إذا كان يوم حفصة قالت: يا رسول الله، إن لي حاجة إلى أبي، إن نفقة لي عنده، فائذن لي أن آتيه، فأذن لها. ثم إنه أرسل إلى مارية جاريته، فأدخلها بيت حفصة فوقع عليها؛ فأتت حفصة فوجدت الباب مغلقا، فجلست عند الباب، فخرج رسول الله وهو فزع، ووجهه يقطر عرقا، وحفصة تبكي، فقال: "ما يبكيك؟" فقالت: إنما أَذِنْتَ لي من أجل هذا، أَدْخَلْتَ أَمَتَكَ بَيْتِي ثم وَقَعْتَ عليها على فراشي، ما كنت تصنع هذا بامرأة منهن، أما والله لا يَحِلُّ لَكَ هذا يا رسول الله؛ فقال: "والله ما صدقت، أليس هي جاريتي، قد أحلها الله لي؟ أُشْهِدُكِ أنها عَلَيَّ حرام، ألتمس بذلك رضاك، انظري ألا تخبري بهذا امرأة منهن، فهي عندك أمانة". فلما خرج رسول الله ﷺ، قَرَعَتْ حفصة الجدار الذي بينها وبين عائشة، فقالت: ألا أبشرك؟ إن رسول الله ﷺ قد حَرَّمَ أَمَتَهُ، وقد أراحنا الله منها، فقالت عائشة: أَمَا والله لقد كان يُرِيبُنِي أنه يَقِيلُ من أجلها. فأنزل الله عز وجل: "يا أيها النبيء لم تحرم ما أحل الله لك". ثم قرأ رسول الله ﷺ: "وإن تظاهرا عليه". فهي عائشة وحفصة، وزعموا أنهما كانتا لا تكتم إحداهما الأخرى شيئا. انتهى

وفي صحيح البخاري، عن عائشة رضي الله عنها قالت: استأذنت هالة بنت خُوَيْلِدٍ أخت خديجة على رسول الله ﷺ، فعرف استئذان خديجة، فارتاع لذلك، فقال: "اللهم هالة". قالت: فَغِرْتُ، فقلت: ما تَذْكُرُ من عجوز من عجائز قريش، حمراء الشِّدْقَيْنِ، هَلَكَتْ في الدَّهْرِ قد أَبْدَلَكَ الله خيرا منها؟ انتهى

وعن أنس رضي الله عنه، أن النبي ﷺ كان عند بعض نسائه، فأرسلت إحدى أمهات المؤمنين مع خادم بقصعة فيها طعام، فَضَرَبَتْ بيدها فكسرت القصعة، فَضَمَّهَا وجعل فيها الطعام، وقال: " كُلُوا"، وحبس الرسول والقصعة حتى فرغوا، فدفع القصعة الصحيحة وحبس المكسورة.رواه البخاري

وفي صحيح البخاري: حدثنا هشام عن أبيه قال: كان الناس يَتَحَرَّوْنَ بِهَدَايَاهُمْ يَوْمَ عائشة، قالت عائشة: فاجتمع صواحبي إلى أُمِّ سَلَمَةَ فَقُلْنَ: يا أم سلمة، والله إن الناس يَتَحَرَّوْنَ بهداياهم يَوْمَ عائشة، وإنا نريد الخير كما تريده عائشة، فَمُرِي رسول الله ﷺ أن يأمر الناس أن يهدوا إليه حيث ما كان أو حيث ما دار. قالت: فَذَكَرَتْ ذلك أم سلمة للنبي ﷺ، قالت: فأعرض عني، فلما عاد إِلَيَّ ذَكَرْتُ له ذاك فَأَعْرَضَ عني، فلما كان في الثالثة ذكرت له فقال: "يا أم سلمة، لا تُؤْذِينِي في عائشة، فإنه والله ما نزل علي الوحي وأنا في لِحَافِ امرأة منكن غيرها". رواه البخاري

وعن عائشة أن النبي ﷺ كان إذا خرج أَقْرَعَ بين نسائه، فطارت القرعة لعائشة وحفصة. وكان النبي ﷺ إذا كان بالليل سَارَ مع عائشة يَتَحَدَّثُ، فقالت حفصة: ألا تركبين الليلة بعيري وَأَرْكَبُ بعيرك تنظرين وأنظر؟ فقالت: بلى. فركبت، فجاء النبي ﷺ إلى جمل عائشة وعليه حفصة، فسلم عليها ثم سار حتى نزلوا، وَافْتَقَدَتْهُ عائشة، فلما نزلوا جعلت رجليها بين الْإِذْخِرِ وتقول: يا رب، سَلِّطْ عَلَيَّ عقربا أو حية تلدغني، ولا أستطيع أن أقول له شيئا. رواه البخاري

والإذخر نَبْتٌ معروف توجد فيه الْهَوَامُّ غالبا في البرية

وعن أنس قال: بلغ صفية أن حفصة قالت: بِنْتُ يَهُودِيٍّ، فبكت، فدخل عليها النبي ﷺ، وهي تبكي، فقال: "ما يبكيك؟" فقالت: قالت لي حفصة إني ابْنَةُ يَهُودِيٍّ، فقال النبي ﷺ: "إنك لابنة نبي، وإن عمك لنبي، وإنك لتحت نبي، ففيم تفخر عليك؟" ثم قال: "اتقي الله يا حفصة". رواه الترمذي

يقصد النبي ﷺ أنها من سلالة موسى عليه السلام، وهارون عليه السلام أخوه، بمثابة عمها

عن زيد بن أسلم قال: كان النبي ﷺ شاكيا، وعنده أزواجه، فقالت صفية: يا رسول الله، لَوَدِدْتُ أن الذي بك بي، قال: فتغامز بها أزواج النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: "أَعِبْتُنَّهَا؟ فوالذي نفسي بيده إنها لصادقة". رواه أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني

إن ما سقناه من آثار من مصادر موثوقة، تَهُمُّ خصوصية النبي ﷺ في بيته مع أزواجه، وغيرها كثير، لا نقصد به الْمَسَّ بأمهات المؤمنين رضي الله عنهن، فقد أعلى الباري عز وجل من شأنهن في كتابه العزيز، وسماهن أمهات المؤمنين في قوله تعالى: "**النبيء أولى بالمومنين من انفسهم، وأزواجه أمهاتهم**". الأحزاب6

بل إن من هذه الآثار كثير غيرها تركناه مخافة التطويل، تُوَضِّحُ بجلاء هَدْيَهُ ﷺ في تعامله مع نسائه، هذا الْهَدْيُ جَدِيرٌ بالمسلم أن يَطَّلِعَ عليه لكي يَقْتَدِيَ به في بيته مع أهله

ونقصد به كذلك في مبحثنا هذا، الذي خصصناه للحديث عن الذكر والأنثى، المزيد من التقرب إلى طباع النساء، والحث على الرفق بهن في التصرف معهن كما كان يتصرف عليه الصلاة والسلام

وقد تعرفنا إلى محمد ﷺ النبي الزوج، وإلى نسائه أمهات المؤمنين الزوجات، فتبين لنا بما سقناه من آثار، أن طبعهن هو طبع سائر النساء، وأن ما يجري في بيوتنا من خصومات ومشاجرات بين الزوج وزوجته، وبين الزوجات فيما بينهن، هو نفسه ما كان يجري في بيت النبوة

وقد وجب أن أشير بعد كل هذا، إلى بعض المتزوجين من المسلمين الذين يجعلون من بيوتهم مساجد، ويتعاملون وزوجاتهم تعامل الغرباء، فلا يضحكون ولا يتفكهون، مما يطبع حياتهم الزوجية بِالْمَلَلِ وَالرَّتَابَةِ

وذلك لأنهم يتعايشون بِتَصَنُّعٍ وَتَكَلُّفٍ لِقِلَّةِ اطلاعهم على حياة نبيهم ﷺ في بيته. والملاحظ، هو أن علماءنا لا يوفون هذا الجانب من السنة حقه في خطبهم ومواعظهم، وكأنه أَمْرٌ لا يجب الكلام عنه، في حين أن معرفته لازمة للمسلمين والمسلمات على السواء، لأنه يخص جانبا أساسيا من حياتنا الاجتماعية، وهو الأسرة التي بثباتها يثبت المجتمع كله ويستقر

عن محمد بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال: استأذن عمر بن الخطاب على رسول الله ﷺ، وعنده نسوة من قريش يُكَلِّمْنَهُ وَيَسْتَكْثِرْنَهُ عالية أصواتهن على صوته. فلما استأذن عمر بن الخطاب قُمْنَ فبادرن الحجاب، فأذن له رسول الله ﷺ، فدخل عمر ورسول الله ﷺ يضحك، فقال عمر: أَضْحَكَ الله سِنَّكَ يا رسول الله، فقال النبي ﷺ: "عجبت من هؤلاء اللاتي كُنَّ عندي فلما سمعن صوتك ابْتَدَرْنَ الحجاب"، فقال عمر: فأنت أَحَقُّ أن يَهَبْنَ يا رسول الله، ثم قال عمر: يا عَدُوَّاتِ أنفسهن، أَتَهَبْنَنِي ولا تَهَبْنَ رسول الله ﷺ؟ فقلن: نعم، أنت أَفَظُّ وَأَغْلَظُ من رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: "إِيهاً يا ابن الخطاب، والذي نفسي بيده، ما لَقِيَكَ الشيطان سالكا فَجاً قط إلا سَلَكَ فجا غير فَجِّكَ". رواه البخاري

فصل فيما يجوز فيه الكذب على الزوجة

عن أسماء بنت يزيد قالت: قال رسول الله ﷺ: "لا يَحِلُّ الكذب إلا في ثلاث: يُحَدِّثُ الرجل امرأته لِيُرْضِيَهَا، والكذب في الحرب، والكذب ليصلح بين الناس". رواه الترمذي

قد لا يستسيغ غير العارف جواز الكذب على الزوجة، ويرى في ذلك امتهانا لكرامتها. كما قد يتخذ البعض هذا الحديث الشريف ذريعة للكذب على زوجته في كل حين وآن. ولو أَمْعَنَ أولئك وهؤلاء النظر في سياق الحديث، لقرأوا قوله ﷺ: "يحدث الرجل امرأته ليرضيها"، وهي عبارة تحصر جواز الكذب على الزوجة فيما يرضيها

ومنه أن تكون الزوجة ذميمة، وتسأل زوجها هل هي على مَنْصِبٍ من الجمال، فيكذب ويقول: أنت أجمل امرأة وقعت عليها عيناي

أو تقول: هل تُحِبُّنِي؟ فيكذب ويقول: أحبك حب المجنون ليلاه، وهو ليس كذلك

وأن تَتَزَيَّنَ له، فَيُبْدِي إعجابه بزينتها، والأمر بخلاف ذلك

أو تَطْهُوَ له طعاما لا يستسيغه، فيكذب ويقول: ما أَلَذَّ طعامك. وهكذا

وإني لأرى أن الكذب في هذه المواطن يمسي واجبا على الزوج، لأنه إن صدق فيها آذى زوجته ونقص من قدرها، فيكون كذبه تطييبا لخاطرها ورحمة بها من أن تَنْتَفِرَ وَتَتَذَمَّرَ

أَمَّا في غير ذلك فلا يجوز الكذب على الزوجة، اللهم إلا فيما ارتأى الرجل أنه إذا أخبرها بحقيقة بعض الأمور، قد يحزنها وتحمل هَمًّا لا طاقة لها به

ومنه أن لا يُبْدِيَ لها ما يعانيه في عمله من مشاق، ويخفي وطأة الديون التي هو مدين بها لأصحابها، وهكذا.

وفيه حسن عشرة الزوجة، كما دعا إليه سيد الأمة ﷺ، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: "خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي". رواه الترمذي

ومهما كانت الزوجة، فإن الزوج العاقل يصبر عليها ولا يؤاخذها على كثير من أخطائها في حقه، إلا أن تأتي ببهتان عظيم، ومهما خَشُنَ طبع الزوجة وصبر الزوج، زاد أجره عند الله تعالى

يقول الحافظ الذهبي رحمه الله تعالى في كتاب الكبائر: وقد رُوِيَ أن رجلاً جاء إلى عمر رضي الله عنه يشكو خُلُقَ زوجته، فوقف على باب عمر ينتظر خروجه، فسمع امرأة عمر تستطيل عليه بلسانها وتخاصمه، وعمر ساكت لا يَرُدُّ عليها، فانصرف الرجل راجعاً وقال: إنْ كان هذا حَالُ عمر مع شدته وصلابته وهو أمير المؤمنين، فكيف حالي؟ فخرج عمر، فرآه مُوَلِّيًا عن بابه فناداه وقال: ما حاجتك يا رجل؟ فقال: يا أمير المؤمنين، جئت أشكو إليك سوء خُلُقِ امرأتي وَاسْتِطَالَتَهَا عَلَيَّ، فسمعت زوجتك كذلك فرجعت وقلت: إذا كان هذا حال أمير المؤمنين مع زوجته فكيف حالي؟ فقال عمر: يا أخي، إني احتملتها لحقوق لها علي، إنها طباخة لطعامي خبازة لخبزي

غسالة لثيابي مرضعة لولدي، وليس ذلك كله بواجب عليها، ويسكن قلبي بها عن الحرام، فأنا أحتملها لذلك. فقال الرجل: يا أمير المؤمنين، وكذلك زوجتي، قال عمر: فَاحْتَمِلْهَا يا أخي، فإنما هي مدة يسيرة. انتهى

وقال الحافظ أيضا في الكبائر: وَحُكِيَ أن بعض الصالحين كان له أخ في الله وكان من الصالحين، يزوره في كل سنة مرة. فجاء لزيارته فطرق الباب فقالت امرأته: من؟ فقال: أخو زوجك في الله جئت لزيارته، فقالت: راح يحتطب لا رَدَّهُ اللهُ وَلَا سَلَّمَهُ، وفعل به وفعل، وجعلت تذمذم علي. فبينما هو واقف على الباب، وإذا بأخيه قد أقبل من نحو الجبل، وقد حمل حزمة الحطب على ظهر أَسَدٍ وهو يسوقه بين يديه، فجاء فسلم على أخيه وَرَحَّبَ به ودخل المنزل وأدخل الحطب وقال للأسد: اذهب بارك الله فيك، ثم أَدْخَلَ أخاه وَالْمَرْأَةُ على حَالِهَا تذمذم وتأخذ بلسانها، وزوجها لا يَرُدُّ عليها، فأكل مع أخيه شيئاً ثم ودعه وانصرف وهو متعجب من صبر أخيه على تلك المرأة. قال: فلما كان العام الثاني، جاء أخوه لزيارته على عادته، فطرق الباب فقالت امرأته: من بالباب؟ قال: أخو زوجك فلان في الله، فقالت: مرحباً بك وأهلاً وسهلاً، اِجلس فإنه سيأتي إن شاء الله بخير وعافية. قال: فتعجب مِنْ لُطْفِ كلامها وأدبها، إذ جاء أخوه وهو يحمل الحطب على ظهره، فتعجب أيضاً لذلك، فجاء فسلم عليه ودخل الدار وأدخله، وأحضرت المرأة طعاماً لهما وجعلت تدعو لهما بكلام لطيف. فلما أراد أن يفارقه قال: يا أخي، أخبرني عما أريد أن أسألك عنه، قال: وما هو يا أخي؟ قال: عام أول أتيتك فسمعت كلام امرأة بذيئة اللسان قليلة الأدب تَذُمُّ كثيراً، ورأيتك قد أتيت من نحو الجبل والحطب على ظهر الأسد وهو مُسَخَّرٌ بين يديك. ورأيت العام كلام المرأة لطيفاً لا تذمذم، ورأيتك قد أتيت بالحطب على ظهرك، فما السبب؟ قال: يا أخي، توفيت تلك المرأة الشرسة وكنت صابراً على خُلُقِهَا وما يبدو منها، كنت معها في تَعَبٍ وأنا أحتملها، فكان الله قد سَخَّرَ لي الأسد الذي رأيت يحمل عني الحطب بِصَبْرِي عَلَيْهَا واحتمالي لها، فلما تُوُفِّيَتْ تَزَوَّجْتُ هذه المرأة الصالحة وأنا في راحة معها، فانقطع عني الأسد، فاحتجت أن أحمل الحطب على ظهري لأجل راحتي مع هذه المرأة المباركة الطائعة، فنسأل الله أن يرزقنا الصبر على ما يحب ويرضى إنه جواد كريم. انتهى

فَصْلٌ فِي اقْتِصَارِ النبوة على الرجال، وبيان موقع النساء في الولاية

لم يبعث الله تعالى امرأة نبية، وإنما مريم ابنة عمران صِدِّيقَةٌ، لأن مُهِمَّةَ النبوة حِمْلٌ ثقيل عليها، بما يستلزمه من عزم وصبر، ومن كِيَاسَةٍ وَتَرَيُّثٍ، لا تتوفر عليه المرأة بحكم طبيعتها التي فطرها الله تعالى عليها

وقد ابتلى الله تعالى مريم حتى قالت: "يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا". مريم22

وأما أم موسى، فلما خافت عليه، خَيَّرَهَا الله تعالى بين اثنتين: الأولى أن تُبْقِيَهُ عندها وترضعه، والثانية أن تُلْقِيَهُ فِي الْيَمِّ

قال سبحانه: "وأوحينا إلى أم موسى أن ارضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني، إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين". القصص6

فيظهر من مبنى الآية، أن الله تعالى أشار إليها بأن تَأْمَنَ على ولدها وترضعه ولا تخاف من فرعون وجنوده، فإذا خافت تلقيه في اليم. ولو أخذت بالاختيار الأول لَمَا مَسَّهُ مكروه، ولكنها أُمٌّ لَا تَتَحَمَّلُ أن تبقيه عندها وَتُوَاجِهَ به االذبح الذي يترصده، ففضلت إلقاءه في الْيَمِّ، خاصة وأن الله طمأنها بقوله: "إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين". القصص6

ورغم أن الباري عز وجل وعدها بسلامته، إلا أنها أصيبت بالهلع حتى كاد يفتضح أمرها، وأرسلت أخته تَقُصُّهُ من بعيد، وتقتفي أثره، ولو أنها تعلم أنه في كَنَفِ مولاه ورعايته. قال سبحانه: "وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المومنين، وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون". القصص9-10

فلم يؤاخذها الله سبحانه وتعالى بشيء من ذلك

إن مريم وَأُمَّ موسى تُمَثِّلَانِ غاية الإيمان بالله تعالى والتوكل عليه، ومع ذلك لم تتحملا ما ابتلاهما به ربهما سبحانه، فكيف تحتملان بلاء النبوة العظيم؟ قال سبحانه: "وكأين من نبيء قتل معه ربيون كثير، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا، والله يحب الصابرين". آل عمران146

هذا ما كان من أمر النبوة، فما موقع المرأة من الولاية؟

شَهِدَ التاريخ كثيرا من النساء اللواتي انْدَرَجْنَ فِي سِلْكِ أولياء الله الصالحين، بل إن من الصحابيات الجليلات رضي الله عنهن من كانت لها مواقف في بداية الدعوة الإسلامية، لم تكن لكثير من الصحابة رضي الله تعالى عنهم.

ومنهن الصحابية أم ياسر سمية بنت خياط رضي الله عنها، زوجة ياسر بن عامر، أسلمت بمكة سابع سبعة أظهروا إسلامهم بمكة من غير بني هاشم. لقيت سمية رضي الله عنها أصنافا من العذاب، وكانت حينها عجوزًا ضعيفة، وَاعْتُبِرَتْ سُمَيَّةُ أول شهيدة في الإسلام، وكانت وفاتها بمكة قبل الهجرة

ومنهن الصحابية أم عمارة نسيبة بنت كعب الأنصارية رضي الله عنها، توفيت سنة 13هجرية، وهي من الخزرج، شاركت في عدد من غزوات النبي ﷺ وفي بعض حروب الردة.

قال ابن هشام: وقاتلت أم عمارة، نسيبة بنت كعب المازنية يوم أحد. فذكر سعيد بن أبي زيد الأنصاري: أن أم سعد بنت سعد بن الربيع كانت تقول: دخلت على أم عمارة ، فقلت لها: يا خالة، أخبريني خبرك؛ فقالت: خرجت أول النهار وأنا أنظر ما يصنع الناس، ومعي سقاء فيه ماء، فانتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو في أصحابه، والدولة والريح للمسلمين. فلما انهزم المسلمون، انحزت إلى رسول الله ﷺ، فقمت أُبَاشِرُ القتال وَأَذُبُّ عنه بالسيف وأرمي عن القوس، حتى خَلَصَتِ الجراح إِلَيَّ. قالت: فرأيت على عاتقها جرحا أجوف له غَوْرٌ، فقلت: من أصابك بهذا؟ قالت: ابن قمئة أقمأه الله، لما ولى الناس عن رسول الله ﷺ أقبل يقول: دُلُّونِي على محمد، فلا نَجَوْتُ إن نَجَا، فَاعْتَرَضْتُ له أنا ومصعب بن عمير وأناس ممن ثبت مع رسول الله ﷺ، فضربني هذه الضربة، ولكن، فلقد ضربته على ذلك ضربات، ولكن عدو الله كان عليه درعان. انتهى من سيرة ابن هشام

ومنهن الصحابية أم حرام بنت ملحان بن خالد الأنصاريَة النجارية المدنية رضي الله عنها، سمعت بعض آيات القرآن فأسلمت هي وأختها أم سليم، وكانتا من أوائل المسلمات في المدينة

عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه سمعه يقول: كان رسول الله ﷺ يدخل على أم حرام بنت ملحان فتطعمه، وكانت أم حرام تحت عبادة بن الصامت؛ فدخل عليها رسول الله ﷺ فأطعمته، وجعلت تفلي رأسه فنام رسول الله ﷺ، ثم استيقظ وهو يضحك، قالت: فقلت: وما يُضْحِكُكَ يا رسول الله؟ قال: "نَاسٌ من أمتي عرضوا علي غزاة في سبيل الله، يركبون ثَبَجَ هذا البحر ملوكا على الْأَسِرَّةِ"، أو "مِثْلَ الملوك على الْأَسِرَّةِ"، شك إسحاق، قالت: فقلت: يا رسول الله، أُدْعُ الله أن يجعلني منهم، فدعا لها رسول الله ﷺ، ثم وضع رأسه ثم استيقظ وهو يضحك، فقلت: وما يضحكك يا رسول الله؟ قال: "نَاسٌ من أمتي عرضوا علي غزاة في سبيل الله"، كما قال في الأول، قالت: فقلت: يا رسول الله؟ ادع الله أن يجعلني منهم؟ قال: "أنت من الأولين". فركبت البحر في زمان معاوية بن أبي سفيان، فصرعت عن دابتها حين خرجت من البحر فهلكت. رواه البخاري

غير أن الرجال ظهروا في الولاية على النساء، فيما اشْتَهَرَ وَدُوِّنَ، وإلا، فلا يعلم من الأظهر في واقع الأمر غير علام الغيوب، فانظر رعاك الله إلى كتب الصوفية الأولى، حيث لم يذكر من النساء في الولاية غير النزر القليل، وانظر إلى من كتب في طريق السلوك فستجد الأمر نفسه

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "كَمُلَ مِنَ الرجال كَثِيرٌ، ولم يَكْمُلْ مِنَ النساء إلا مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون؛ وَفَضْلُ عائشة على النساء كَفَضْلِ الثريد على سائر الطعام". رواه البخاري

فأين من النساء أمثال الحكيم الترمذي، وأبي حامد الغزالي، ومحيي الدين ابن عربي وغيرهم؟

ولعل التي اشتهرت بالولاية من بين النساء عبر التاريخ، رابعة العدوية، وهي أم عمرو بنت اسماعيل العتكية البصرية، كان ولاؤها للعتكيين، توفيت سنة 180هجرية رحمها الله تعالى

وقد غلب على ولايتها العاطفة النسوية، فكانت أغلب ما تناجي ربها بالعشق والمحبة، حتى دُعِيَتْ، رحمها الله تعالى ونفعنا ببركاتها، شهيدة العشق الإلهي

وهذا ما أسلفنا الكلام عليه، وقد اقتضى المقام أن نسوق لك أيها القارئ العزيز بعض ما قالت من شعر في ذلك:

عَرَفْتُ الْهَوَى مُذْ عَرَفْتُ هَوَاكَ وَأَغْلَقْتُ قَلْبِيَ عَمَّنْ سِوَاكَ
وَكُنْتُ أُنَاجِيكَ يَا مَنْ تَرَى خَفَايَا الْقُلُوبِ وَلَسْنَا نَرَاكَ
أُحِبُّكَ حُبَّيْنِ: حُبَّ الْهَوَى وَحُباً لِأَنَّكَ أَهْلٌ لِذَاكَ
فَأَمَّا الَّذِي هُوَ حُبُّ الْهَوَى فَشُغْلِي بِذِكْرِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ
وَأَمَّا الَّذِي أَنْتَ أَهْلٌ لَهُ فَكَشْفُكَ لِلْحُجْبِ حَتَّى أَرَاكَ
فَلَا الْحَمْدُ فِي ذَا وَلَا ذَاكَ لِي وَلَكِنْ لَكَ الْحَمْدُ فِي ذَا وَذَاكَ.[24]

وقالت:

يَا سُرُورِي وَمُنْيَتِي وَعِمَادِي وَأَنِيسِي وَعُدَّتِي وَمُرَادِي
أَنْتَ رُوحُ الْفُؤَادِ أَنْتَ رَجَائِي أَنْتَ لِي مُؤْنِسٌ وَشَوْقُكَ زَادِي
أَنْتَ لَوْلَاكَ يَا حَيَاتِي وَأُنْسِي مَا تَشَتَّتُ فِي فَسِيحِ الْبِلَادِ.[25]

وروى ابن خلكان عن رابعة العدوية قال: وكانت إذا جَنَّ عليها الليل قامت إلى سطح لها ثم نادت: إلهي، هدأت الأصوات وسكنت الحركات، وَخَلَا كُلُّ حبيب بحبيبه، وقد خلوت بك أيها المحبوب، فاجعل خلوتي منك في هذه الليلة عتقي من النار. انتهى[26]

كما غلب على ولايتها رحمها الله تعالى، الحزن والانقباض، وَعُرِفَتْ بشدة الخوف من الباري عز وجل، ولم يكن في كلامها انبساط، حين لم تُعْطِ للرجاء حَقَّهُ في تَعَبُّدِهَا لمولاها، وإنما يُعْبَدُ سبحانه بالخوف والرجاء

[24] في المتقارب

[25] في الخفيف

[26] وفيات الأعيان

ولا نقصد بما قلناه، أن نخرجها من زمرة أولياء الله الصالحين، وإنما أردنا أن نُبَيِّنَ خصوصية طبع النساء على الرجال، حتى في ما يخص طريقة تعرفهن إلى المولى عز وجل وكيفية تعبدهن له

فصل في قوله تعالى: "ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون". الذاريات49

ينصرف معنى هذه الآية الكريمة، حسب إطلاق الخَلْقِ بعلاقته بكل شيء، ينصرف إلى انتفاء اقتصار مفهوم الزوجين في الثقلين دون غيرهما، ويشمل كل ما خلق الباري سبحانه وذرأ من ظواهر ومظاهر وحوادث وأحداث في هذا الكون المترامي، سمواته وأرضيه

وقد ابتغى سبحانه، كما اقتضته حكمته في شؤون خَلْقِهِ، أن يقوم هذا الأخير على الازدواجية، وإن شئت على المقابلة والتضاد. ومن ذلك الليل والنهار، فهما متقابلان يَحْدُثَانِ في آن واحد، لا يسبق أحدهما الأخر. يقول سبحانه: "لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار، وكل في فلك يسبحون". يس39

فهما متضادان منفصلان، فالليل يستقل بظلمته، والنهار مستقل بضوئه. قال سبحانه: "وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب، وكل شيء فصلناه تفصيلا". الإسراء12

هذه الازدواجية الآخذة بالتتالي والترادف، يتولد عنها سَيْرُ الزمان، الذي يُحْسَبُ بالليالي والأيام

إلا أن الليل والنهار، رغم تقابلهما في السير المتوازي، وَتَرَدُّدِهِمَا في انفصال عن بعضهما البعض، بانتفاء اجتماعهما في آن واحد. كل يجري في مجراه، فلا يكون ضوء النهار حتى ينسحب ظلام الليل. "وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون". يس36

رغم هذا التقابل والانفصال، فهما متواصلان من حيث أن الليل لا يعرف إلا بالنهار، وأن النهار لا يعرف إلا بالليل. فلو ما أبصرنا الضياء ما عرفنا الظلمة، ولو ما عرفنا الظلمة ما أبصرنا الضياء، فالأشياء تعرف بأضدادها كما هو معروف.

كما تَوَخَّى الله تعالى من جَرَيَانِ الليل والنهار، وعدم توقفهما، توخى سبحانه إتاحة سيرورة حياة الحوادث، فلو جثم الليل على شطر الأرض، وجثم النهار على شطرها الثاني، ولم يتزحزح أيهما عن موضعه، لاستحالت الحياة على وجه الأرض

ومن هنا نعرف، أن كوننا متحرك لا يعرف الثبات، وفي هذه الحركة يَكْمُنُ سِرُّ حياة الوجود والتواجد، وما قلناه في حركة الليل والنهار نقوله في حركة الشمس والقمر والأرض

فهذه الظواهر في حركتها وانسجامها، تشكل تركيبا متكاملا، يخلص هذا التركيب إلى بقاء الوجود، وحياة الموجودات

وكأنه، أي الوجود، جوقة من العازفين، كل يعزف بآلة موسيقية مختلفة، لكن عزفهم بتقاسيمه، يلتزم بما في السلاليم الموسيقية من مقامات وعلامات مضبوطة، تخلص إلى سمفونية مثيرة تبهر الألباب وتطرب الأسماع، عنوانها: سِرُّ الْبَقَاءِ. ولا بقاء سوى للواحد الباقي عز وجل الذي لا يلحقه العدم، لا إله إلا هو الحكيم الخبير
وشاء الباري عز وجل، لخلقه، وعلى رأسهم الثقلان، ألا يفتأ دائبا في حركته ونشاطه حتى يبقى. ألا ترى أن شدة القعود والبطالة قد تنجم عنه علل معضلة، قد تؤدي إلى الموت البطيء

وقد أعجبني ما قاله الإمام الشافعي في هذا المقام، قال رحمه الله تعالى:

سَافِرْ تَجِدْ عِوَضاً عَمَّنْ تُفَارِقُهُ   وَانْصَبْ فَإِنَّ لَذِيذَ الْعَيْشِ فِي النَّصَبِ
إِنِّي رَأَيْتُ وُقُوفَ الْمَاءِ يُفْسِدُهُ   إِنْ سَاحَ طَابَ وَإِنْ لَمْ يَجْرِ لَمْ يطب.[27]

وما فتأت المخلوقات جميعا تتآكل وتتفانى مُذْ خَلَقَ سبحانه وتعالى هذا الكون بما فيه، فهذه الشمس نقصت حرارتها، وهذا القمر خبا نوره، وهذه الأرض نقصت من أطرافها، وهذا سقف السماء شابه ما تصاعد إليه من دخان وويلات، وهؤلاء بنو الإنسان انتقصت مناعتهم وفشت فيهم الأمراض التي لم تكن في أسلافهم. فما يكون لشيء أن يتوقف، فإما أن يسير قدما إلى الأمام، وإما أن يرجع القهقرى إلى الخلف، وسواء تقدم أو تأخر، فهو يتحرك. فانظر معي إلى المرء، متى توقف عن طلب رزقه، رجع إلى الحاجة والفقر، ولم يبق متوقفا في مدى إنفاقه على نفسه وأهله وعياله. فافهم رعاك الله ما قصدت إليه

وشملت الازدواجية باقي ما خلق الله تعالى وَدَبَّرَ كذلك، فهناك عَدْلٌ وَجُورٌ، صبر وَتَذَمُّرٌ، رجاء وقنوط، جود وبخل، بسالة وجبن، كثرة وقلة، خير وشر، قبح وجمال وعلم وجهل. وما يقوم بين الليل والنهار مما سبق ذكره، من علائق التقابل والتضاد والتواصل، يقوم بين جميع هذه المعاني وغيرها مما لا سبيل لإحصائه

وقد تأتيني أيها القارئ اللبيب، بِخَلْقٍ مِنْ خَلْقِ الله تعالى، لا تتمكن من الوصول إلى سر الازدواجية فيه، فاعلم أنك لم تَسْبُرْ بُعْدَهُ، ولم تدرك كُنْهَهُ ومغزاه، فانظر إليه بعين التأمل، وتريث في فهم أسراره، وإلا فاسأل عنه من هو أعلم منك وأدرى، يأتيك شاهد معنى الازدواجية فيه، إما ظاهرا للعيان، وإما خفيا تدركه الأذهان

والزوجان من حيث ما تعلقا به، يتفاوتان في الحد والتعريف. فمن حيث تعلقهما بما هو حي من الحوادث، يمكن أن نقول: هما الذكر والأنثى، متى انفصلا لا يصلح انفصالهما على التأبيد، ومتى اتصلا أتيا على الاكتمال واندمجا في التوحيد

ومن حيث تعلق الزوجين بالحوادث غير المكلفين، هما مَعْنَيَانِ لمحدثين متفارقين على التضاد، إلا أنهما متعارفان فيما بينهما منذ الإيجاد، متلازمان في فصل الدلالة على الجماد

---

[27] في البسيط من ديوان الإمام الشافعي رحمه الله تعالى

ومن حيث تعلقهما بالمعاني، فهما يعبران عن التباس الدلالة في البيان، ولا يكون الأول إلا بالثاني

ومن حيث تعلقهما بالأملاك، هما واحد في المعنى، واثنان في الهيكل والمبنى، حسب المهمة والاختصاص، بالنظر إلى ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، وأما المراد بالمعنى فالتَّوَاجُدُ وَالسَّيْرُورَةُ

والزوجان بمعناهما العام، وجهان كما يقال لعملة واحدة، وجهان لا يتواجهان، وإن كانا يتقابلان من حيث التواجد والسيرورة، ومن حيث ما يُبَاشَرُ مِنْ أحوالهما عند الضرورة، ومن حيث تمييز هذا عن ذاك، في الحقيقة والصورة

وَمَنْ فَقَهَ سِرَّ الأزواج فيما حوله، تعرف إليه فيه بانسجامه واندماجه، وفهم معنى قوله تعالى: "وإذا النفوس زوجت". التكوير7 وعرف أن الأزواج كناية عن الاكتمال، في اتصالها بعد وجوب الانفصال، وفي ائتلافها بعد وجوب الاختلاف، وفي اتحادها بعد وجوب التضاد. وتوصل إذا هداه مولاه، إلى أن التزاوج يصدر عنه الزيادة والتكوين، وتنتج عنه الولادة من حين إلى حين، ويعيد على بدء ما أشرف على الوصول، ويجهر بالبدء ويغرق في الأفول

فلا مناص في رأينا من ازدواجية الذات، وتنافر الصفات

وإن شئت قلت: لا مناص من الأخذ بِالْمُثَنَّى، من أجل نشر البساط ولا يَتَثَنَّى

وإن شئت قلت: لا مناص من ضم ما انشطر، من أجل معرفة الخبر

وإن شئت قلت: لا مناص من الانقياد للآخر، حتى لا تنقاد إلى تجادل المصادر

وإن شئت قلت: الازدواج تَفَقُّدُ الوحدة ما شَابَهَا، وترميم ما عابها على حِدَةٍ

وإن شئت قلت: الازدواج سر البقاء، والانفلاق سبيل الفناء

وإن شئت قلت: الازدواج في المكلف حقيقة، وفي غير المكلف سليقة

وإن شئت قلت: الازدواج أخذ بالتوحيد، والانفراد لا يبدئ ولا يعيد

فصل في تَقَابُلِ التَّقَائِضِ، وَتَضَارُبِ الْفَرَائِضِ، في سلوك مَنْ فَطَنَ للبيع والشراء، فَوَهَبَ ولم يُقَايِضْ

اِعلم رحمك الله تعالى، أن الْبَارِيَ جلت قدرته، لم يخلق الكون والمكونات على شكل واحد، ولم يتصرف عليهما بنمط واحد، ولم يصرفهما في أمر واحد. بل أنشأ الكون على الازدواج والسباعية، وهيأه لما يحتاج إليه المكلف من عيشة راضية، فَرَكَّبَ مكوناته تركيبا، وأبدى منها ما أبدى، وأخفى ما أخفى، وكل شيء رتبه ترتيبا

هو الله الواحد الأحد، لم تصدر عنه الكثرة عن طريق الفيض وهو واحد، بل صدر عنه الوجود بالخلق، بما فيه من متحرك وجامد. لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، يفعل ما شاء بما شاء، ولا يعيى بخلقه مهما تعدد في الفيافي والبحور. لا إله إلا هو الغفور الشكور

اقتضت حكمته أن يعود المتركب بالوحدة، وأن يستوي الخفي والظاهر في شدة، وأن تتوحد السباعيات حتى تصبح واحدا في الحساب والعدة

فسبحان من توافقت لديه المختلفات، واصطلحت به المختصمات، وتساوت المتفاوتات

وما دام سبحانه أقام الكون على هذا النَّسَقِ، فقد أقام الدين كما سبق، فَمِنَ الْمُحَالِ أن يُعْبَدَ على السذاجة، ومن غير المعقول أن يُتَقَرَّبَ إليه طمعا في الْأَرَبِ والحاجة

أجرى على عباده الأحوال في سِجَالٍ، وأقام عليهم تصاريف الارتجال، على حسب الحال والمآل، وصانهم عن الجهل والضلال، وحسهم إلى سبيل الرشاد، في تذلل ودلال. فَمَنْ رَكَنَ منهم إلى الْيُسْرِ أَغْرَقَ في الرجاء، والْتَبَسَ عليه السعادة بالشقاء، فكان خشوعه في مواطن لا يخشع فيها العقلاء، وكان تمتعه بالطيبات فتنة له عن التواصل واللقاء

فافهم رعاك الله، وجوب اقتران الأزواج، ولا تعبد الله تعالى بغير ارتجاج، وكن كالبحر متى هدأ هاج وماج، يلاطم الجانبين ولا يغفل عنهما، ويجاري الدائبين، ولا يقرب منهما

فصل في حُضُورِ سِرِّ التَّزَاوُجِ في العناصر الأربع فيما بينها، وما تآلف منها وما اختلف، والغاية من ذلك في التكوين

اِعلم رحمك الله تعالى، أنه سبحانه أحدث سائر المنشآت من الماء الذي كان مصدر العناصر كلها، من نار وهواء وتراب، هذه العناصر ما خلا حادث غير الملائكة وما يجري مجراهم منها، ولم نذكر الروح في الحوادث، لأنها غير محدثة، وإنما هي من الله تعالى، وإن شئت فالروح من أمر الله تعالى

قال سبحانه: "والله خلق كل دابة من ماء، فمنهم من يمشي على بطنه، ومنهم من يمشي على رجلين، ومنهم من يمشي على أربع، يخلق الله ما يشاء، إن الله على كل شيء قدير". النور43

وجاء في الكتاب المقدس: لأن هذا، يخفى عليهم بإرادتهم أن السماوات كانت منذ القديم و الأرض بكلمة الله، قائمة من الماء و بالماء. بطرس الثانية 3-5

وعن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "كل شيء خلق من ماء". رواه الحاكم في مستدركه

وكما أن لون الماء لا لون له في الألوان، وإنما يعكسها جميعا إذا مسه الضوء، وهي سبعة كما ترى في قوس قزح، وقوس قزح ظاهرة طبيعية فيزيائية ناتجة عن انكسار وتحلل ضوء الشمس خلال قطرات ماء المطر، ويظهر بعد سقوط المطر، أو خلال سقوط المطر والشمس مشرقة

وإذا نظرت إلى الماء مجردا، لم يظهر لك فيه لون منها، رغم وجودها فيه، فكذلك هو يشتمل على العناصر الثلاث غيره، أي النار والهواء والتراب، وإذا أثبت العلم الحديث وجود بعضها فيه، ولم يثبت وجودها بالجملة، فما ذلك إلا لقصوره عن دركها. فما دام الله تعالى خلق كل شيء من ماء، فلا شك أن الماء أساس خلق كل شيء في هذا الكون، كيفما كان هذا الشيء، عاقلا أو غير عاقل، متحركا أو جامدا

وقد زاوج الباري سبحانه، بين النار والهواء، وزاوج بين الماء والتراب

فالنار والهواء متآخيان، متى امتزجا نتجت عنهما السخونة. والماء والتراب متآخيان، متى امتزجا نتج عنهما الطين اللَّازِبُ

ثم إن النار والماء خصمان، إذا تماسا غلب أحدهما الأخر ومحاه، وبقي وحده. والهواء والتراب خصمان، إذا تماسا، لم ينتج عنهما غير الغبار

فإذا تآخى الماء والتراب، وخرج منهما الطين اللازب، وتآخى النار والهواء، وخرج منهما الساخن. فإن الطين اللازب والسخونة متآخيان، وفي تآخيهما وتمازجهما خلق الإنسان

قال سبحانه: "وترى الارض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت منكل زوج بهيج، ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير". الحج5-6

ودليل ذلك، أن الله تعالى، ذكر خلق الإنسان من تراب، كما في قوله تعالى: "إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن، فيكون". آل عمران58

وذكر خلقه من طين، كما في قوله تعالى: "إنا خلقناهم من طين لا زب". الصافات11

وذكر خلقه من حمإ مسنون، كما في قوله تعالى: "ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حمإ مسنون". الحجر26

وذكر خلقه من صلصال كالفخار كما في قوله تعالى: "خلق الانسان من صلصال كالفخار". الرحمن12

قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى في تفسيره: وذلك أنه أخذ من تراب الأرض فعجنه فصار طينا، ثم انتقل فصار كالحمإ المسنون، ثم انتقل فصار صلصالا كالفخار. انتهى من الجامع لأحكام القرآن للقرطبي. وانظر رعاك الله إلى آية عيسى عليه السلام في قوله تعالى على لسانه في التنزيل الحكيم: "إني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طايرا بإذن الله". آل عمران48

وبهذا تبين لنا أن عنصر خلق آدم هو الطين اللزج المعجون، هذا العنصر جمع بين العناصر الأربعة بلا شك ولا مراء

أما نفخة الله تعالى من روحه، فلا علاقة لها بكل ذلك، لأن الروح مصدر النفخ، والنفخ أثر عنه لا يخلو من أثره فيه، بل هي أمر الله تعالى علام الغيوب، ولا علاقة لها بمحدثاته، ولا يجوز أن تندرج فيما ذكرنا من أصل خلقته هذه الطبائع

وقد وزع الفلكيون البروج الإثني عشر على طبائع العناصر الأربع.

وجعلوا للنار والهواء الذكورة، وللماء والتراب الأنوثة

فنسبوا للنار الحمل والأسد والقوس. ونسبوا للهواء الجوزاء والميزان والدلو. ونسبوا للماء السرطان والعقرب والحوت. ونسبوا للتراب الثور والسنبلة والجدي

فإذا اقترن الرجل الناري بالمرأة المائية، وقع بينهما النزاع والمشاجرة، لأن النار عدو الماء، والماء عدوه. وما قلنا في النار والماء، نقوله في الهواء والتراب

وإذا اقترن الرجل الناري بالمرأة الهوائية، اصطلحا وتوافقا، لأن النار والهواء متآخيان. وما قلناه في النار والهواء نقوله في الماء والتراب

كما صَنَّفَ الأطباء الْقُدَامَى الأمراض على حسب طبائع العناصر الأربع، وكذا فعلوا بالأدوية والأعشاب. فكانوا يُدَاوُونَ كُلَّ مرض بدواء يخالف طبع عنصره، فإذا كان المرض مِنْ طبع النار دَاوَوْهُ بدواء مِنْ طبع الماء. وكان الطب القديم مبنياً على الأخلاط الأربعة: البلغم والمرة الصفراء والمرة السوداء والدم. وعلى الأمزجة: الحرارة والرطوبة والبرودة واليبوسة. وجعلُوا الغالبَ على كلِّ خلطٍ منها طبيعة، فجعلوا طبيعةَ الدَّمِ طبيعة الهواءِ التي هي الحرارةُ

والرطوبةُ، وطبيعةَ المرَّةِ الصفراءِ طبيعةَ النارِ التي هي الحرارةُ واليبوسةُ، وطبيعةَ المرَّةِ السوداءِ طبيعةَ الأرضِ التي هي البرودةُ واليبوسةُ، وطبيعةَ البلغمِ طبيعةَ الماءِ التي هي البرودةُ والرطوبةُ. انتهى انظر كتاب: مصالح الأبدان والأنفس لأبي زيد البلخي

وإذا زاد أحد العناصر أو نقص اختل الاعتدال بين العناصر في الجسم وحدث المرض

فوصفوا الدواء والأعشاب على حسب أمزجة العناصر

قال الأنطاكي في الزنجبيل: وهو حار في الثالثة، يابس في آخر الأولى أو رطب؛ يفتح السدد ويستأصل البلغم واللزوجات والرطوبات الفاسدة المتولدة في المعدة، عن نحو البطيخ بخاصيته فيه، ويحل الرياح وبرد الأحشاء واليرقان وتقطير البول، ويدر الفضلات ويغزر. انتهى من تذكرة الأنطاكي

المبحث السادس: في الإنس والجان

إِنْسٌ بِأَرْضٍ لَا يَرَى جِنَانَا وَالْجِنُّ أَرْضُهُ لَا تُرَى عَيَانَا
ثَقَلَانِ فِيهِمْ مُخْلِصٌ وَفِيهِمْ مُتَعَنِّتٌ لَمْ يَرْتَدِعْ وَخَانَا
مَا خَطْبُ هَذَا الْجِنِّ فِي هَوَانٍ مِنْ حَمْلِ شَرْعٍ زَادَهُ هَوَانَا؟
مَا دَخْلُهُ بِأَمَانَةٍ سَفِيهاً عُرِضَتْ عَلَى الْأَكْوَانِ مُنْذُ كَانَا؟
وَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا جَمِيعاً وَالْجِنُّ أَشْفَقَ مِنْهَا زَمَانَا
وَالْإِنْسُ قَالَ: أَنَا لَهَا، جَهُولاً لَكِنَّهُ فِي حِفْظِهَا تَوَانَى
وَالْجِنُّ قَدْ ثَقُلَتْ عَلَيْهِ حُكْماً أَنْ أَرْهَقَتْهُ بِشَرْعِهَا وَعَانَى .[28]

تَوَافَقَ الإنس والْجَانُّ في التكليف، فَهُمَا في أحكام الشرع سَيَّانِ، واختلفا في الأمانة والتشريف، فالجن ليس أشرف من الإنسان، شَرُفَ الأول عن الثاني بالروح نفخها فيه روح الرحمن، وَتَحَمَّلَ أحكام الشريعة أشد مما تحمله الجان، غشيته الألطاف، وتلقى نفحات القدس عن روحه في الروع والوجدان

أما الجن فقد انطبع إيمانه بالخوف والإذعان، فَعَبَدَ الواحدَ القهارَ مَنْ عَبَدَ منهم، وقليل ما هم، خوفا من عذابه وطمعا في الجنان

قال سبحانه على لسانهم: "وإنا لمسنا السماء فوجدناها مليت حرسا شيدا وشهبا، وإنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا، وإنا لا ندري أشر أريد بمن في الارض أم أراد بهم ربهم رشدا". الجن8-10

عنصر خلق الجن النار، لقوله تعالى: "وخلق الجان من مارج من نار". الرحمن13

وإبليس لعنه الله تعالى من الجن، بل هو أبوهم الأول، وما هم سوى ذريته، ومن قال بأن إبليس كان ملكا من الملائكة فقد أخطأ، حتى ولو احتج بقوله تعالى: "إلا ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه". الكهف49 وقال بأن الجن طائفة من الملائكة تَسَمَّتْ به

فنستدل عليه بما سبق من قوله تعالى: "وخلق الجان من مارج من نار". الرحمن13

فالملائكة نورانية، أما الجن فلم يثبت في التنزيل أن خَلْقاً غيره خُلِقَ من نار

وقد ذهبنا، في غير هذا الموضع، إلى أن الجن لم يسبق آدم إلى الأرض، كما ظن كثيرون غيرنا اعتمادا على أخبار واهية، وإنما كل ما بوسعنا أن نقول، أنه سبق آدم في الخلق لقوله تعالى: "ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حمإ مسنون، والجان خلقناه من قبل من نار السموم". الحجر26-27

[28] للمؤلف في الوافر

فقد كان إبليس موجودا قبل أن يخلق الله سبحانه آدم ويأمر ملائكته بالسجود له، وخالط لعنه الله تعالى، الملأ الأعلى، وربما سكن الجنة قبل آدم وزوجه، فلما دخلاها ألفياه فيها

ومن حكمة الله تعالى، أن إبليس لعنه الله تعالى، رغم عصيانه مولاه لما أمره بالسجود لآدم عليه السلام، ورغم غروره واستكباره، لم يطرده سبحانه في الحين من رحمته، بل أبقاه في الجنان

وقد شَهِدَ آدم امتناعه عن السجود ومخالفة أمر ربه، ومع ذلك وَجَدَهُ في الجنة، وهذا مِمَّا سَهَّلَ على إبليس لعنه الله تعالى إغواءه وزوجه، فلو طرده الباري عز وجل من رحمته لما عصى أمره، ما تهيأ له أن يغويهما

فقد كانا، أي آدم وحواء عليهما السلام، على فطرة، لم يُجَرِّبَا كذبا وبهتانا من قبل، فاستمعا إليه لأن الله تعالى تركه في الجنة، فهو في الغالب، أسبق منهما إليها وأعرف بشؤونها، وَظَنَّا أن الرحمن لو ما رضي عنه ما تركه فيها، فكان كل ذلك علة لسهولة إغوائهما

وقد أشبعنا الكلام على إبليس والجن والشياطين في كتابنا: أبواب الشيطان. فلا داعي لإعادته، ومن كانت له حاجة إليه فليراجعه في محله إن شاء الله تعالى

ولعل إبليس لعنه الله تعالى، هو أبو الجن الأول كما أسلفنا، لقوله تعالى: "أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو، بيس للظالمين بدلا". الكهف49

والشياطين جِنٌّ كلهم، وليس كل الجن شياطين، بل الشياطين منهم أتباع إبليس المنضوون في حزبه، الذين أغراهم بالبشر وجهدوا في إغوائهم وإخراجهم من النور إلى الظلمات. وَسَمَّى الله تعالى بعض الإنس من الذين يقومون بما يقوم به الشياطين، سماهم باسمهم، كما في قوله تعالى: "وكذلك جعلنا لكل نبيء عدوا شياطين الانس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا". الأنعام113

ويحتمل أن يكون الله تعالى قد خلق للشيطان زوجا في الجنة أهبطت معه الأرض، وإلا فلا يعقل أن تكون له ذرية فيها بغير تزاوج

ولكن عند إهباطه وآدم وحواء عليهما السلام، لم يُودِعْهُ الباري عز وجل الأرض حيث أَوْدَعَهُمَا، بل دَسَّهُ في أرض الجن، وهي أرض لا تظهر في أرضنا، وجعل بيننا وبينه حجابا يرانا من ورائه ولا نراه، لقوله تعالى: "إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم". الأعراف26

ومن هنا كان للإنس أرضهم وللجن أرضهم، الأولى ظاهرة للعيان، والثانية خفية خفاء الجان، وهما، أي الأرضان، تتواجدان في المكان ذاته، تتفاوتان في سير الزمان، ولا ينبغي لهذه أن تسبق تلك في أي آن من الأوان.

فالوقت عند الجن ليس هو الوقت عندنا، إلا أن هذا التفاوت في السير، لا يُخَوِّلُ لهذا أن يسبق ذاك، بل هما، أي الوقتان، يجريان في تَوَازٍ بِحِسْبَةٍ وَحُسْبَانٍ. فإن كان الجن يُعَمِّرُ قرونا، فهي في الأرض تَمُرُّ بالموازاة سريعة، وكأنها عشرات السنين

فصل في قوله تعالى: "ويوم نحشرهم جميعا يا معشر الجن قد استكثرتم من الانس، وقال اولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا اجلنا الذي اجلت لنا، قال النار مثواكم خالدين فيها الا ما شاء الله، ان ربك حكيم عليم". الأنعام129

اِعلم رحمك الله تعالى أن الإنس والجن وإن انفصلا من حيث أرض إقامتهما، إلا أن الله تعالى فتح بينهما فُرُجَاتٍ ينفذ منها بعضهم على بعض، بحق وبغير حق

والأسلم لهما ألا يجتمعا، كما اقتضته الفطرة التي فطر الله عليها الثقلين

فإنه عليه الصلاة والسلام، لم يثبت عنه كثرة الاجتماع بالجن، اللهم إلا ما كان من دعوته جن نصيبين كما ورد في الأثر

وقد أمسك ﷺ بالشيطان ثم أطلق سراحه، كما يدل عليه ما روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: "إن الشيطان عرض لي فشد علي ليقطع الصلاة علي، فأمكنني الله منه فَذَعَتُّهُ، ولقد هممت أن أوثقه إلى سارية حتى تصبحوا فتنظروا إليه، فذكرت قول أخي سليمان عليه السلام: "رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي". ص34 فرده الله خاسئاً". انتهى الحديث

وفي الحديث دعوة للاقتداء بفعله عليه الصلاة والسلام، وعدم الخروج عن سنته. فافهم

ومن قوله تعالى: "وقال اولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض". نفهم إمكان التزاوج بين الإنس والجن وإنجاب الولد، إلا أننا نعتقد أن المرأة الإنسية إذا حملت من الجني لم يظهر حملها، وإذا وضعت كان ما وضعت مستترا استتار الجن لا يظهر للإنس، ولذلك لا يعتقده الناس ولا يصدقونه

ويأتي وليدها جامعا بين صفات الإنس والجن، وهو إلى الجن أقرب، وقد تحمل الجنية من الإنسي فيكون مثل ماقلناه في الإنسية

وقد تَكَرَّرَ خروج الجن على الإنس، رأوهم في مواضع معينة، فآذوهم أو أحبطوا بعض حواسهم وأعضائهم، أو استعمروا أبدانهم وصرعوهم، يفعلون ذلك بهم بغير حق، بل ظلما وعدوانا، خاصة إن كانوا من زمرة الشياطين أتباع إبليس لعنهم الله تعالى جميعا، فأولئك الذين أغراهم لعنه الله تعالى بالإنس وسلطهم عليهم يغوونهم ويوذونهم في أنفسهم وأبدانهم. أما الجن من غير أتباعه، فهم مِلَلٌ وَنِحَلٌ، منهم الصالحون والطالحون. قال سبحانه على لسانهم: "وانا منا الصالحون ومنا دون ذلك، كنا طرايق قددا". الجن11

وعامة الجن عَدَا الشياطين، أتباع إبليس لعنه الله تعالى، عامتهم تنال منهم الشياطين في دينهم ما تنال من الإنس، وتقصد إضلالهم ودفعهم إلى الغي والغواية

إلا أن عموم الجن لا يُؤْمَنُ أذاهم على الناس، فإنهم في إيمانهم والتزامهم بشرائعهم، لا يفترقون عنا في ذلك في شيء، فتجد الجني يجترح المنكرات ويعتدي على غيره، رغم أنه يشهد أنه لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله. ومنهم المسيحي واليهودي، ومنهم من لا دين له. وغالب الجن يعتدي على الناس، وهم ثلاثة أصناف في ذلك:

الأول يدفعه طغيانه وَتَعَفْرُتُهُ إلى ذلك

والثاني يعتدي على الإنسي منتقما منه إذا آذاه أو آذى أحد أهله من أبنائه وأزواجه وذويه، ولو أن الإنسي فعل ما فعل عن غير قصد، كأن يهرق الماء الحار في المجاري بليل، أو في الخلاء، فإن ذلك يؤذي صبية الجن خاصة، أو يرمي حجرا بليل في العراء، أو يعقر حيوانا كالكلب والهر والضفدع، يكون الجن قد تمثل به، يظنه الإنسي حيوانا كما يراه في ظاهره. ولعل قوة الجن وشرهم يقوى بليل، فليكن المؤمن فيه أشد احترازا على نفسه وأهله منهم.

أما الثالث فهو الذي يستعمر ذات الإنسي وَلَعاً به وعشقا

إذ أن الذي لا شك فيه ولا مراء، هو إمكان استمتاع الانس والجن بعضهم ببعض، لقوله تعالى: "ويوم نحشرهم جميعا يا معشر الجن قد استكثرتم من الانس، وقال اولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا اجلنا الذي اجلت لنا". الأنعام129

وقد يعتدي الجن على الإنسية، والجنية على الإنسي ويكرهانهما على الفساد بغير إرادتهما. ولذلك نهى رسول الله ﷺ

روى الإمام أحمد في مسنده عن ابنِ عمرَ رضي الله عنهما أنّ النّبِيَّ صلّى الله عليه "نَهَى عَنْ الْوَحْدَةِ: أَنْ يَبِيتَ الرَّجُلُ وَحْدَهُ، أَوْ يُسَافِرَ وَحْدَهُ".

ومن هنا ندعو إلى ما دعا إليه النبي ﷺ من قراءات وتعاويذ تجعل بيننا وبين الجن حاجزا يقينا من أذاهم.

ومنه قراءة آية الكرسي قبل النوم، فقد روي في الصحيح مرفوعا عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن من قرأها قبل النوم لم يزل عليه من الله حافظ حتى يصبح

وما ورد في قوله تعالى: "وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون". المومنون98-99

والله الحافظ لا إله غيره الْبَرُّ الرحيم

فصل في رؤية الجن، وهل ذلك يكون حقيقة أو وَهْماً، ومتى يكون وكيف يكون

إن كل من ذهب إلى عدم إمكان رؤية الجن مستدلا بقوله تعالى: "إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم". الأعراف26 لا يُجْزِؤُهُ هذا الاستدلال فيما ذهب إليه، لأن ظاهر الآية إخباري في أن الجن يمكن أن يرانا من حيث لا نراه، وليس قطعي الدلالة في عدم إمكان رؤيته بالمرة

وقد ثبت في التنزيل رؤية الجن لنبي الله سليمان عليه السلام، وثبتت في الأثر لرسول الله ﷺ كما تقدم، ولأبي هريرة في حديث آيات الكرسي ولغيرهم، كففنا عن إيراده مخافة الإسهاب

وليس من فطرة الإنسان الذي فطره الله عليها، أن يرى الجن ويجتمع بهم، ولكن لا يمنع ذلك من رؤية بعض الناس لهم في بعض الحالات المخصوصة

فالأول من هذه الحالات، رؤية الجن في المنام: ولا يكاد يخلو منها عامة الناس، وهو أسهل سبيل لرؤيتهم، وذلك لأن النائم في نومه يكون أقرب إلى عالم الغيب منه وهو مستيقظ، لأن العقل يكون فيه راقدا، ومتى رقد العقل انتفى فيه التعقل، وفي هذا الانتفاء إتاحة المجال لِلْمُخَيِّلَةِ تتصور بتلقائية ما لا يتصور صاحبها وهو عاقل. وقد يرى الإنسان الجن إما وهو نائم وإما وهو بين اليقظة والنوم. وقد يكلم الجن في رؤيته ويحاورهم، أو يصارعهم ويصارعونه، وقد يؤذونه في بدنه، فيستيقظ من نومه، فلا يجد في بدنه آثارا لهذا الأذى، وقد يجدها وتكون في الغالب عبارة عن زرقة في جلده، وكأن الدم قد انحبس فيه، تظهر في شكل بقع كبيرة أوصغيرة كآثار القرص، وقد يجد لهذه البقع آلاما وقد لا يجد.

والثاني حين يرى الجن في اليقظة: وفي الغالب يكون الجني هذه الحالة في بدن الإنسي، ومن الناس من يتلبس به الجن ومع ذلك لا يراه، وإنما يدل على هذا التلبس أعراض غير ذلك، كأن يصرعه في حالة الغضب، وفي حالة قراءة القرآن وسماعه، وشم السعوط وغيرها

والثالث يرى الجن بدعوتهم إليه: وهم المشتغلون بالدعوات والأقسام والعزائم من متعاطي العلم الروحاني، وهذا العلم بريء منه دين الله تعالى براءة الذئب من قميص يوسف عليه السلام. وقد شهدته الأمم السالفة واشتغل به الناس قبل الإسلام بكثير. فَيَخْتَلِي أصحابه مِنْ أجل دَرْكِهِ والمهارة فيه. وَالْمُخْتَلُونَ له صنفان:

الأول يختلي ممتنعا عما سوى خبز الشعير وزيت الزيتون وبعض التمر أو الزبيب، لا يقرب الملح بالمرة في خلوته، وَيُدَخِّنُ وَيُرَدِّدُ الْقَسَمَ في أوقات معلومة، حتى يحصل على استجابة ما اختلى من أجله. يفعل ذلك ظنا منه أنه على حق، وهو واقع في الباطل والحرام

وقد ضل طُلَّابُ هذا العلم الروحاني بسبب استقائهم مبادئه من مراجع غير موثوقة، وتعاطيهم أعمالا وطقوسا لم يثبت على نبيهم ﷺ تعاطيها. فهم يدعون أسماء لا يعرفون أصحابها، بل يرددون أسماء عبرانية وسريانية، على حسب ظنهم، منها من يعتقدون أنه من أسماء الله تعالى، ولا برهان لهم ولا سلطان على ذلك

قال سبحانه: "ولا تقف ما ليس لك به علم، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا". الإسراء36

فيظنون في بعض الأحيان، أنهم يَسْتَنْزِلُونَ الملائكة وَيُسَخِّرُونَهَا والعياذ بالله. وما هي بملائكة، بل إن الشياطين تتمثل لهم فيما يشاؤون حتى تضلهم عن السبيل

أما الملائكة الْمُكْرَمُونَ فلا يَتَنَزَّلُونَ إلا بأمر ربهم سبحانه

قال سبحانه على لسانهم عليهم السلام "وما نتنزل الا بامر ربك، له ما بين ايدينا وما خلفنا وما بين ذلك، وما كان ربك نسيا". مريم64

وقال سبحانه في تَنَزُّلِ الشياطين: "هل أنبؤكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك اثيم يلقون السمع وأكثرهم كاذبون". الشعراء220-222

وقد تَتَمَثَّلُ الشياطين في صُوَرِ الملائكة وَتَتَنَزَّلُ عليهم، فيظنونها ملائكة وهي ليست كذلك، ويحسبون أنهم تَبَوَّؤُوا درجات عَلِيَّةٍ بِتَنَزُّلِهَا عليهم، وهم على باطل

قال تعالى: "ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون، قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم، بل كانوا يعبدون الجن، أكثرهم بهم مومنون، فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون". سبأ40-42

ولا تَنْزِلُ الملائكة إلا على من استقام على إطاعة ربه واتقاه حق تقاته.

قال سبحانه: "إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون". فصلت29

فنسأل الله تعالى أن يغفر لمن أساء منهم بغير قصد ويهديه سواء السبيل

والصنف الثاني يَخْتَلِي من أجل الكفر بالله تعالى، ويدعو إليه إبليس لعنه الله تعالى، ولا يأتيه حتى يقوم بعمل يغضب الله تعالى عليه، فيأتي من الكبائر ما يهتز له عرش الرحمن، ويرى إبليس ويعده بأن يخدمه ويكون معه فيما يشاء. وقد يشترط لعنه الله تعالى، عليه شروطا متى خالفها احْتَوَشَتْهُ الشياطين، لأن الله تعالى كَفَّ عن حمايته بملائكته وَمُعَقِّبَاتِهِ، لَمَّا وَالَى عَدُوَّهُ. فَيُحَبِّبُ إليه إبليس لعنه الله تعالى، المنكرات ويزينها في ناظريه، ويدعوه إلى الاشتغال بالسحر كالتفريق بين الزوج وزوجه

ومن المؤمنين مَنْ يرى الجن بقدرة ربه السميع العليم، بما آتاه من فراسة وكشف، وقد يرى الملائكة متى أكرمه المولى برؤيتهم. فقد رأى صحابة رسول الله ﷺ جبريل عليه السلام، في حديث جبريل الطويل كما هو معروف، وقد أثبتنا إمكان رؤية المؤمن غير النبي للملائكة في الآية التي تقدمت آنفا

ويظهر الجن للناس في بعض المواضع، ويكون ذلك لخصوصيتها عن غيرها، فإن أرض الجن تتصل بأرضنا عبر فَجَوَاتٍ كما أسلفناه، فالموضع الذي يكون فَجْوَةً وَمَنْفَذاً يَسْهُلُ ظهور الجن فيه

ويكثر ظهوره كذلك في المواضع والمنازل التي يُقَدَّسُ فيها أو يُعْبَدُ فيها الشيطان من دون الله تعالى، كمواضع النُّصُبِ حيث تُذْبَحُ القرابين لغير الواحد الأحد. ومنها بعض الدُّورِ التي يُدَخِّنُ أصحابها فيها للجن بما يشتهون من بخور، وَيَهْرِقُونَ لهم اللبن والحناء وغيرها في المجاري، تَقَرُّباً منهم إليهم، فلا يزيدهم ذلك إلا ضَنَكاً ومشقة.

قال سبحانه: "وإنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا". الجن6

فَلْيُجَانِبِ المؤمن إِتْيَانَ كل ما لم يَأْتِ به الدين، ونهى عن إتيانه خاتم الأنبياء والمرسلين، ويتحرى في أعماله ما يرضي رب العالمين، ويتحاشى الاستعانة بكل أفاق أثيم، من الجن والشياطين، حتى لا يَسْلُبَهُ مولاه حمايته وحفظه المكين، فَيَحْتَوِشُونَهُ، وَيَتَخَبَّطُ مِنْ مَسِّهِمْ حينا بعد حين

ومن شاء أن يُحَصِّنَ نفسه مِنْ أذاهم، فلا نرى له أَنْجَعَ وأنفع من قراءة آيات الكرسي، التي حث عليها حديث أبي هريرة على لسانهم، وأقرها رسول الله ﷺ

وَمَنْ مَسَّهُ الجن قد يظهر عليه ذلك بانصراعه، وقد لا يظهر عليه بالصرع، وإنما يُبْطِلُ بعض أعضائه وحواسه. وقد يؤثر الجن على الإنس دون أن يلمس أبدانهم تأثيرا نفسيا، من أعراضه الكآبة والإنزواء والسهو والنسيان.

والذي يصرعه الجن، لا دواء له سوى بالصرع، وطرد الجن منه. والذي يصرع الجن بالقرآن يكون صرعه أشد وطأة وأنفع، وقد تميز صرع كثير من المسلمين بجدواه في الشفاء، بعد قهر الجني وكسر شوكته، وتعذيبه أو حرقه

قلت: تميز صرع المسلمين بقراءتهم آي القرآن الكريم على المصروع، عن صرع الرهبان بآي من كتابهم المقدس، فالملاحظ أن الرهبان يجدون مشقة عظيمة في الصرع، حتى إن الجن الذي في ذات المصروع يهددهم ويتوعدهم، وينتقل أحيانا إليهم بالأذى، بل ويسكن ذواتهم

أما اليهود فإنهم لا يكادون يقربون المصروع، خوفا على أنفسهم ممن صرعه. ويكمن سر هذا التميز، في أن القرآن كلام الله تعالى الذي تَكَفَّلَ سبحانه بحفظه من التبديل والتحريف، ودين الإسلام هو آخر الأديان وأكملها. وتجدر الإشارة إلى أن كثيرا من المشتغلين بالصرع، لا يفلحون في تشخيص حالة المريض، فكثيرا ما يكون يعاني من صرع الأخلاط، وهو مرض عضوي، فيتعاملون معه تعاملهم مع المصروع بالجن. كما أن الأطباء يبادرون إلى صريع الجن بعقاقير معالجة الأخلاط. وبين وَهْمِ هؤلاء وأولئك تضيع الأنفس والأموال.

وأغلب حالات الصرع يعاني أصحابها من وَهْمٍ نفساني ينعكس على المصروع بأعراض شبيهة بأعراض الجنون.

وقد راجعنا كتب القدامى من علماء الروحانيات، وشهدنا ما يتقدم به في بلدنا وفي غيره من ممارسات إلى المريض بالصرع، فوجدنا الأطباء والفقهاء على حد سواء، أغلبهم يخلطون بين الداءين، ويحسبونهما واحدا

فقد ينصرع المرء وهو خَلِيٌّ من الجن، خَلِيٌّ من المرض العضوي، لأسباب نفسية تبتدئ بما يحمله مِنْ هَمِّ الزمان والمال والعيال، وما يصيبه في حياته من نوائب ونكسات، تؤثر على جهازه النفسي والعصبي

كما أن الخوف والفزع يُعَدُّ من الأسباب التي تؤدي إلى الصرع، كل هذا بسبب مرض نفساني أسميناه بالخواء، هذا المرض، قد غفل عنه المتقدمون والمتأخرون. فإن كثرة الهموم والأحزان، وشدة الخوف والانزعاج، وتردد البكاء، يورث خواء في الذات، هو بمثابة تمزق الحجاب الذي يفصل بين عالمنا وعالم الجن لدى المريض. فينفتح المريض على عالم الجن دون أن يشعر، وتمتزج نفسيته بنفسيات الجن، فيؤثر فيهم ويؤثرون فيه، فيتأثر ويتأثرون، فإن انفعل انفعلو لانفعاله وانجذبوا، رَغْماً عنهم إلى جسمه فانصرع، وربما نطقوا بلسانه بما يعانيه ولو أنهم لا يعانون من شيء

فإذا انصرع بسبب عضوي أو نفسي، انصرف أهله إلى الفقيه، حتى إذا أتاه قرأ عليه القرآن أو دخن له ببعض البخور، والمريض يكون حينها مصروعا، لكنه يسمع ويعي ما يدور حوله، فيسمع القرآن ويشم رائحة البخور، فَيُوقِنُ في الحال أن الفقيه ما أتاه وقام بهذه الطقوس إلا لأنه الجن استعمر ذاته، فَيَتَوَهَّمُ أنه ممسوس بالجن، خاصة وأن الفقيه في كثير من الأحيان، يقعد على رأسه ويخاطبه قائلا: أُخرج منه أيها الجني، ما اسمك؟ هل اسمك فلان أم فلان؟ وهو شكل من الإيحاء اللاإرادي، يوحيه الفقيه إلى المصروع، فينطق هذا الأخير لا إراديا كذلك، بما أراد الفقيه. فيقول أنا الجني فلان، سكنت ذات هذا الشخص لأنه آذى أحد أبنائي، بأن أهرق عليه الماء الحار، ولن أخرج منه حتى يتماثل ابني إلى الشفاء مما آذاه، وإن لم يشف انتقمت منه

ولا تستغرب كيف قال ذلك وهو خال من الجن، فما ذلك سوى لأن ذاكرتنا تحمل كثيرا من أخبار الجن منذ الصغر، ومنها ما نَطَقَ به دون أن يَشْعُرَ

ومن أصيب بالخواء وتعامل الفقهاء معه تعاملهم مع المجنون، لم يكد يبرأ من مرضه. لأن الفقيه حين يصرعه، فإنه يصرع شيئا غير موجود، ويزيد المريض وَهْماً إلى وَهْمِهِ، ولو فَهِمَ الفقيه معنى الخواء، لأقنع الشخص بأنه سليم من الجن، فحصل بذلك على نصف علاجه

إن الذي يعاني من الخواء، حين يُصْرَعُ يكون كَالْمُنَوَّمِ مغناطيسيا، والفقيه يكون بمثابة الْمُنَوِّمِ، فهو يبادره بإيحاءات يُرَدِّدُهَا على مسمعيه، ليست حقيقة وإنما هي مجرد تَوَهُّمٍ مَحْضٍ

وَكُلُّ قَابِلٍ للتنويم قابل لأن يسكن الجن ذاته، وكل من ينصرع بسبب الجن أو بسبب الخواء قَابِلٌ لأن يُنَوَّمَ مغناطيسيا. فافهم

فصل في قُدُرَاتِ الْإِنْسِ والجن، وما يأتيه الجن من خرق العادة، وأن حال الجن قبل بعثة النبي ﷺ ليس حاله بعد بعثته

اِعلم رحمك الله تعالى أن الجن في الأمم السالفة، كان يظهر على الناس بأشياء بادية لِلْعَيَانِ، بل كان أشد ظهورا بذاته مما هو عليه اليوم

وذلك راجع إلى أن الله تعالى ببعثته رسول الله ﷺ شمل الكون بِتَبَدُّلَاتٍ لم يكن عليه من قبل أن يبعثه. ألا ترى إلى ما قاله الجن في التنزيل، من أن السماء أصبحت محروسة، يُرْجَمُونَ بالشهب الثواقب دحورا متى حاولوا أن يقعدوا منها مقاعد للسمع. قال سبحانه: "وإنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا، وإنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا". الجن8-9

وببعثته ﷺ، غلب الخير على الشر، فانكسرت شوكة الجن، وخبا أوار السحر، وانحجب الغيب على العرافين، لأن الشياطين التي كانت تأتيهم بخبر السماء، حيل بينها وبين ذلك. فقد كانت الجن والشياطين مسخرة لنبي الله تعالى سليمان عليه السلام، تحارب معه وتبني له ما يشاء. قال سبحانه: "ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه، ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير، يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات، اعملوا آل داوود، شكرا، وقليل من عبادي الشكور". سبأ12-13

ولم يسخر سبحانه ذلك لنبي غيره، إذ لم يثبت في التنزيل ولا الأثر ما يدل عليه

وقد أصبح الجن خانسا عن الحضارة والعمار، لأنه بطبعه لا يبقى على قوته فيها، ويفضل العيش في المواضع الموحشة، بل إنه يجد صعوبة في الظهور للناس في العمار، ويسهل عليه ذلك في غيره

وأغلب الجن، لا يستعمل جميع ما وهبه الله تعالى من قدرات لسببين:

الأول: جهله بها وبطريقة تحقيقها، فتراه لا يعرف كيف يطير في الجو رغم أن الطيران من خاصياته، وأكثر هؤلاء، العمار الذين يعيشون في الدُّورِ، وَيَتَطَبَّعُونَ بطبائع جيرانهم من الإنس، بل وَيَدِينُونَ بأديانهم ويتكلمون بلسانهم، ويسيرون على عاداتهم، وكأنهم بشر مثلهم

وهؤلاء الْعُمَّارُ، قد يكتشفون خاصية من خاصياتهم عن غير قصد، كأن يكون أحدهم في حالة غضب، فيتصرف مع إنسي تصرفا يؤذيه، فيكون ذلك، فيفهم أنه كان قادرا على هذا الأذى من قبل، وإنما كان يجهله، ويعيده بعدذلك مرات ومرات. ومنهم من يتصرف التصرف نفسه، لكن لا يعيده مرة أخرى، لأنه لم يستنتج مما فعل أنه قدرة باقية فيه، لسفاهة عقله

والثاني: يكون أذكى من ذلك، وأغلبهم الشياطين، حزب إبليس لعنه الله تعالى، يعلمهم ما جهلوا، وَيُفِيدُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً، فيما يستطيعون فِعْلَهُ وفيما لا يستطيعون، خاصة وأنهم في سِجَالٍ دائم مع الإنس

والجن أشد خوفا من الإنس من الإنس منه، خاصة قبائلهم التي لا تكاد تَرَى الإنس أو تعرفه، وإنما تسمع به، وهي التي تَعْمُرُ باطن الأرض وقعر البحر، وتستوطن الفيافي والقفار التي لا يكاد يدركها بنو آدم

والذي خَوَّلَ للجن الطغيان على الإنس، استهانة هذا الأخير بِقَدْرِهِ وَإِذْعَانُهُ للجن بالاستعاذة بهم ودعائهم وَالتَّمَلُّقِ إليهم ،بتقديم القرابين من الذبائح، والأدخنة التي يشتهون

ولعل الإنس أقوى بكثير من الجن، ومتى اقترب الجني من الإنسي أحس الجني بمقدار قوته ولو لم يكن له سابق عهد به، وإنما يُحِسُّ بقوته وَيَهَابُهُ وَيَهْرُبُ منه، وقد يَنْصَرِعُ، أي الجن، إذا زاد اقترابا منه.

فقد ثبت في الصحيح قول رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: "إيه يا ابن الخطاب، والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكا فَجاًّ إلا سلك فَجاًّ غير فَجِّكَ". انتهى

وأخرج الطبراني في الأوسط عن رسول الله ﷺ قال: "إن الشيطان لم يلق عمر منذ أسلم إلا خَرَّ لوجهه". انتهى

وأكثر ما يخاف الجن من الإنس ذاك الذي لا يخافهم، فهو لا يقوى على الظهور عليه حتى لا يؤذيه، أما إن لقي إنسيا يخاف الجن، خرج له وأفزعه، ومتى فزع سهل عليه استعمار بدنه وصرعه

ومن خاف الله تعالى أَمَّنَهُ خوف الله تعالى من كل خوف غير خوف الله. قال سبحانه: "إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم، وخافون إن كنتم مومنين". آل عمران175

والجن أمة أغلبها جاهل لا يقرأ ولا يكتب، وهم ذوو نفوس ساذجة وعقول سفيهة، ولا يكتمل لهم عقل إلا إذا لبسوا الإنس أو تلبسوا بهم، فإنه إن كان ذلك امتزجوا بهم، فكانت نفسياتهم نفسيات الإنس، وعلمهم علمهم، فإن كان الإنسي ذكيا كانوا أذكياء، وإن كان بليدا كانوا بلداء، وإن كان قارئا كانوا كذلك

وَمَنْ عَرَضَ له جِنِّيٌّ وبقي ثابتا لم ينفعل فلم يخف منه، لم يستطع الجني أن يلحق به الأذى مهما حاول، بل قد يهلك وهو يحاول أذاه، لأن الباري عز وجل وَكَّلَ مُعَقِّبَاتِهِ يمنعون الناس مما يؤذيهم. قال سبحانه: "له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من امر الله". الرعد12

ومن ظن أن الجن قادر على أن ينفعه في شيء فقد غوى، اللهم إلا ما تُجْرِيهِ الشياطين على بعض العباد الذين أشركوا بربهم في دعائهم وتقربهم وطقوسهم، فأولئك يكون ضَرُّ الجن عليهم أكثر من نفعه

ولا يحق لإنسي أن يؤذي جنيا بغير حق، ولاسيما الجني العامر الذي يكون في المنازل، فقد أقرت الشريعة السمحة بوجوده، ولم تأمر بطردهم من الدور ما كَفُّوا أذاهم عن ساكنيها

فقد روى مسلم في صحيحه عن رسول الله ﷺ قال: "إن لهذه البيوت عوامر فإذا رأيتم شيئا منها فحرجوا عليها ثلاثا، فإن ذهب وإلا فاقتلوه فإنه كافر". انتهى

وقد تسبب كثير من الفقهاء الروحانيين في إذاية الجن بما يدخنون من بخور يخنقهم ويأتي على صبيانهم، وبما يَرُشُّونَ من عقاقير مُحَلَّلَةٍ في ماء أو مغلاة فيه، وآيات ممحوة في الماء هنا وهناك، يجهلون وقعها على الجن ومدى ما يلحقون بهم بِرَشِّهَا من ضرر بغير سلطان

المبحث السابع: **فيما خَلَّفَ بعض العارفين مِنْ أَسئلة يُعْجزُونَ بها مَن ادَّعَى أنه مِنْ أَهْلِ الفتح والْمُكَاشَفَاتِ، وما خَاضَ فيه العارفون قَبْلَنَا مِنْ كَلَامٍ حَوْلَ الْمَوَاقِفِ وَالْمُخَاطَبَاتِ**

يُخَاطِرُنِي رَبُّ هَذِي الْمَبَانِي ... وَأُصْغِي إِلَيْهِ إِذَا مَا دَعَانِي
يُخَصِّصُنِي عِنْدَ ذَاكَ الْخِطَابْ ... وَأَنْسَى بِأَنِّي أَنَا مَنْ عَنَانِي
يُهَدْهِدُنِي وَكَأَنِّي رَضِيعٌ ... وَيَسْكُبُ لِي مِنْ رَحِيقِ الْمَعَانِي
وَيُسْكِرُنِي فِي سِيَاقٍ عَتِيقٍ ... وَيَبْعَثُنِي فِي عُهُودِ الْمَغَانِي
يُذَكِّرُنِي بِالزَّمَانِ الْبَعِيدْ ... وَيَذْكُرُ لِي مَا مَضَى مِنْ زَمَانِي
كَأَنِّي بِهِ فِي انْزِيَاحٍ أَصُولْ ... فَلَا مِنْ زَمَانٍ وَلَا مِنْ مَكَانِ
فَإِنْ مَا سُئِلْتُ عَدِمْتُ الْجَوَابْ ... فَمَاذَا أَقُولُ وَمَاذَا دَهَانِي؟
وَمَا ثَمَّ شَرْعٌ بِدِينِ الْحَبِيبْ ... سِوَى مَا دَعَتْنِي إِلَيْهِ دِنَانِي .[29]

يَأْتِي الْحَكِيمُ التِّرْمِذِيُّ رحمه الله تعالى على رأس مشايخ الطريق الذين خلفوا وراءهم أسئلة إعجازية، وضعوها لكي يجيب عنها كل من ادعى الولاية العظمى

وقد اشتهرت أسئلة الحكيم في الصحائف والأسفار، وتداولها أهل الشأن في جميع الأمصار، بعد أن عرضها في كتابه: ختم الولاية

هذه الأسئلة، أجاب عنها الشيخ محيي الدين ابن عربي رحمه الله تعالى في كتابه: **الفتوحات المكية**، كما لا يخفى على أحد. أجاب عنها أجوبة مستفيضة رغم اقتضابها. وقد لا حظنا على ابن عربي ما ذكرناه في كتابنا: الاستبشار، وقلنا ما نصه: وقد لمسنا عند ابن عربي جرأة في إفشاء الغيب أكثر من غيره، ولكني أرى أنه رحمه الله تعالى، في كثير مما قاله، وقع تحت تأثير أفقه ككثيرين غيره، ولذلك تعذر على زمرة من المسلمين الصادقين فهم أغلب كلامه

إننا نجد في أسلوبه سمات علوم أخرى، ازدهرت في عصره، وَنَهَلَ منها ما تيسر له، ومنها الفلسفة وعلم الكلام، وعلم الفلك والنجوم، وعلم الأسماء والحروف، وغيرها

إلا أنني أرى أن كلامه في القطبانية على الخصوص، تميز ببعض التجرد عما قلناه، ولو أنه لم يخل منه. انتهى

---

[29] من نظم المؤلف في المتقارب

وقبل أن نسترسل في كلامنا على هذه الأسئلة، وجب أن نعرض لأهمية موقعها في سلوك أهل الله تعالى، ونقيمها وفق ما تقتضيه شريعتنا السمحة

فإنك لو سألت الحكيم الترمذي رحمه الله تعالى، من أين اطلع على مواضيع هذه الأسئلة حتى يسأل عنها، لما أَحَالَكَ على الكتاب والسنة، وإنما عَزَاهُ إلى الإلهام الرباني. ويستلزم ذلك، أن الذي يجيب عن أسئلته لا يكون له ذلك إلا إذا ألهمه الله تعالى بأجوبتها، كما ألهم واضع الأسئلة

فما مدى مصداقية الإلهام عند الصوفية، وما مدى صحة مرجعيته في تَلَقِّي الخبر والإيمان به والعمل به؟

إن الْخَبَرَ الْمُعْتَبَرَ لدى المسلمين، هو الذي أتى به القرآن الكريم أو ثبتت روايته عن رسول الله ﷺ، رواية صحيحة بحسب ما تقتضيه شروط الرواية والتحديث. وما سوى ذلك لا يمكن اعتباره خبرا قطعيا، مهما كان ومهما كان صاحبه، خاصة إذا كان ما يقوله يزيد أو ينقص في أحكام الدين

ورغم أن ما أتى به الحكيم وغيره لا ينضوي في سلك الأحكام الشرعية، ولا يزيد ولا ينقص فيها شيئا، إلا أنه حسب رأينا، يبقى خبرا ظنيا لا يصدق ولا يكذب، وإنما يستأنس به، دأبه في ذلك دأب الحديث الضعيف الذي يجوز الاستشهاد به بصيغة التمريض، إذا تعلق بفضائل الأعمال في الرقائق والرغائب

أما لو اتخذنا إلهام العارفين مصدرا للتشريع واستنباط الأحكام، إذن لاختلف الأمر والتبس الدين على المكلفين من خاصة الناس وعامتهم، فلم يعرفوا من يأخذون عنه ومن يتركون

لا ينكر الشرع تحديث الله تعالى للناس ومخاطرتهم، بل والإيحاء إليهم، لا كَمِثْلِ إيحائه للرسل والأنبياء صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين، بواسطة جبريل الأمين عليه السلام

فقد أوحى الله سبحانه وتعالى إلى أم موسى

قال سبحانه: "وأوحينا إلى أم موسى أن ارضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني، إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين". القصص6

وكان عبد الله الخضر عليه السلام يأتمر بأمر الله فيما يصرفه فيه، وهو ليس بنبي ولا رسول

كما ثبت في التنزيل إمكان تنزل الملائكة خلا جبريل عليه السلام على صالحي المؤمنين

قال سبحانه: "إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون، نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلا من غفور رحيم ". فصلت29-31

وما يتلقاه المؤمن في روعه عن الله تعالى يكتسب مِصْدَاقِيَّتَهُ مِنْ مِصْدَاقِيَّةِ مُتَلَقِّيهِ، إذا صفا قلبه وصدق في أقواله وأفعاله. وقد يوحي الله تعالى إليه بما يشاء ويخبره بالغيب عن طريق الرؤى التي يشهدها المؤمن وغير المؤمن على حد سواء. فهذا ملك مصر رغم كفره، يحكي رؤيته الصادقة إلى ملئه فيؤولها يوسف عليه السلام، فتأتي كما قال

ومن جهة أخرى نقول: إذا كان المقصود من أسئلة الحكيم أن يَخْتَبِرَ الْوَلِيُّ نَفْسَهُ ليعرف أنه ولي، فذلك ما لا يستساغ حسب الشرع وقواعده، فماذا لوطرحنا هذه الأسئلة على صحابة رسول الله ﷺ ولم يجيبوا عنها؟ أنحسبهم أقل قدرا مما وضعهم الباري عز وجل؟

ليس الأولياء هم المكشوفون على الغيب المطلعون على ما في اللوح المحفوظ فحسب، بل إن الولي، هو كل من والى الله تعالى ورضي لرضاه وسخط لسخطه، وهم أغلبهم

وقد خلا تصور الولاية في عهد رسول الله ﷺ وصحابته وتابعيهم من مثل هذه الشروط والتفاصيل، فانظر رعاك الله إلى الرسالة القشيرية، فستجد الصوفية منكبين على مجاهدة أنفسهم وتجويعها، دائبين على الهروب من الناس والاستتار عنهم

وإنما قَوِيَ الكلام في السلوك واستفاض بعد ذلك بكثير، وألفت فيه الكتب، وأصبح لِكُلٍّ رَأْيُهُ في مقامات الصوفية وأحوالهم ومنازلهم، ولو أن دين الله عز وجل في غنى عن كل ذلك

عن أنس بن مالك قال: نُهِينَا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء، فكان يُعْجِبُنَا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل فيسأله ونحن نسمع، فجاء رجل من أهل البادية فقال: يا محمد، أتانا رسولك فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك؟ قال: "صَدَقَ"، قال: فَمَنْ خلق السماء؟ قال: "الله"، قال: فمن خلق الأرض؟ قال: "الله"، قال: فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل؟ قال: "الله"، قال: فَبِالَّذِي خلق السماء وخلق الأرض ونصب هذه الجبال، آلله أرسلك؟ قال: "نعم"، قال: وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا؟ قال: "صدق"، قال: فبالذي أرسلك، آلله أمرك بهذا؟ قال: "نعم"، قال: وزعم رسولك أن علينا زكاة في أموالنا؟ قال: "صدق"، قال: فبالذي أرسلك، آلله أمرك بهذا؟ قال: "نعم"، قال: وزعم رسولك أن علينا صوم شهر رمضان في سَنَتِنَا؟ قال: "صدق"، قال فبالذي أرسلك آلله أمرك بهذا؟ قال: "نعم"، قال: وزعم رسولك أن علينا حج البيت من استطاع إليه سبيلا؟ قال: "صدق"، قال: ثم وَلَّى. قال: والذي بعثك بالحق، لا أَزِيدُ عليهن ولا أنقص منهن. فقال النبي ﷺ: "لئن صَدَقَ لَيَدْخُلَنَّ الجنة". رواه مسلم

أسئلته رحمه

الله تعالى، لا علاقة لها بالغيب، بل كلها تَهُمُّ ظاهر الشرع، بل حتى ابن عربي لما أجاب عنها، تعلقت أجوبته بما تعلقت به أسئلة سَائِلِهِ

وذلك بخلاف ما سأل عنه الإمام أبو الحسن الشاذلي رحمه الله تعالى، مِنْ أسئلة مُوَجَّهَةٍ إلى مَنْ يَدَّعِي القطبانية، فإن ما سأل عنه رحمه الله تعالى، لا شأن لها بالظاهر، وإنما هو غيب بَحْتٌ

فقد حكى عنه ابن عطاء الله أنه قال: للقطب خمس عشرة كرامة، فمن ادعاها أو شيئا منها، فليبرز بمدد الرحمة والعصمة، والخلافة والنيابة، ومدد حملة العرش العظيم، ويكشف له عن حقيقة الذات وإحاطة الصفات، ويكرم

14/01/2026 15:45 تنزيل كتاب - 1-50 صفحات - MAFAHIM

بكرامة الحكم والفصل بين الوجودين، وانفصال الأول عن الأول وما انفصل عنه إلى منتهاه، ومن ثبت فيه؛ وحكم ما قبل وما بعد، وحكم من لا قبل له ولا بعد، وعلم البدء، وهو العلم المحيط بكل علم ولكل معلوم، بدءا من السر الأول إلى منتهاه ثم يعود إليه. فهذا معيار أعطاه الله الشيخ يختبر به من ادعى هذه الرتبة العظيمة القائمة بكفالة الأسرار، والمحيطة بمدد الأنوار. انتهى[31]

فها نحن سنجيب على بعض أسئلة الحكيم، وهي السبع الأوائل، وفي إمكاننا أن نجيب على مجملها، وإنما تركناه مخافة التطويل بما لا فائدة من ورائه، وإنما مقصودنا أن يَعِيَ القارئ ما ذهبنا إليه في صدر هذا المبحث.

وقد سبق أن عرضنا لخمسة من مجموع أسئلة الحكيم الترمذي، في كتابنا: الاستبشار، وهي كالتالي:

السؤال الثامن والعشرون: ما العدل؟

السؤال التاسع والثلاثون ومائة: والحروف المقطعة مفتاح كل اسم من أسمائه، فأين هذه الأسماء؟ وإنما هي ثمانية وعشرون حرفا، فأين هذه الحروف؟

السؤال الأربعون ومائة: كيف صار الألف مبتدأ الحروف؟

السؤال الثاني والأربعون ومائة: من أي حساب صار عددها ثمانية وعشرين حرفا؟

السؤال الثالث والأربعون ومائة: ما قوله: "خلق آدم على صورته؟"

كما أوردنا أجوبة ابن عربي، ثم ما تيسر لنا من أجوبة عليها بشيء من الاستفاضة، فليرجع إليه في محله، والله ولي التوفيق

وهذه إجاباتنا على أسئلة الحكيم السبع الأوائل:

يقول الشيخ أبو عبد الله بن الحسن، المعروف بالحكيم الترمذي رحمه الله تعالى، في كتابه: ختم الأولياء:

فكيف يخاطر المرء بنفسه وينخدع لها ويخالط ويباشر الأمور التي تتدنس نفسه فيها وتأخذ بنصيبها، ثم يزعم أنه ذو حظ من الله، هيهات

فهذا رجل لم يصبر على السَّيْرِ فَمَلَّهُ، ولن يرتفع له ما أمل من الوصول إلى الله تعالى، فأقبل على النُّسَّاكِ يَتَصَنَّعُ بأعمالهم، وينطق بكلام الأولياء إلى ما لا يعلمه، فكفى بهذا تَرَدِّياً في آبار المهالك

فيقال لهذا المسكين المتحيز:

السؤال الأول: صف لنا منازل الأولياء إذا استفرغوا مجهود الصدق، كم عدد منازلهم؟

ويجيب الفتح الجعفي صاحب هذا التأليف قائلا: اعلم رحمك الله تعالى وأنار بصيرتك، أن منازل الأولياء تكون على حسب ولايتهم، وإن شئت: كلما زادت معرفة الولي بمولاه كلما ارتقى إلى منزلة أسمى مما كان عليه، فإننا نرى

---

[31] لطائف المنن

https://fliphtml5.com/xdxqb/fygr/basic 157/212

أن منازلهم تتفاوت حسب تفاوت معرفتهم بالله تعالى، لأن هذا الطريق قائم على استجماع الصدق والهمة في بغية الوصول لدى المبتدئين، وعلى احتقار النفس وخشية المكر والبأس لدى السالكين، وعلى رد الفضل إلى المولى، ورجاء ما هو أولى، لدى الواصلين

فيكون الوصول إلى الله، حسب ما نراه، أمارة الأفول عما سواه

أما إن فهمنا من سؤالك عن صفة منازل الأولياء، كيف تكون في السلوك وما شأنها في الطريق المسلوك إلى مالك الملوك، فالمنزلة ما يضفيه الباري عز وجل، على الولي من رضاه حسب حسن نيته ونقاء سريرته، لا على حسب أعماله، فكلما زاد رضاه على وليه، زاد ترقيه في المنازل إلى مولاه.

وإن قصدت بصفة المنازل عددها، فاعلم أن الترقي في المنازل شوطان:

الأول شوط عامة الأولياء، ومنازله معدودة، وهي سبعة:

الأولى: منزلة الْمُقْبِلِينَ، وهم الراغبون، وقد استحقوا المنزلة الأولى لأنهم أحبوا الله تعالى حبا صادقا، ولو ما أحببهم ما أحبوه؛ كذا أحبوا أحباب الله تعالى من أوليائه الصالحين، فَهُمْ من حيث ما يعتقدون ويحبون ويكرهون أولياء، وَهُمْ، لِخَلَائِهِمْ مِنَ المعارف التي تُخَوِّلُ لَهُمْ التعرف، يَبْقَوْنَ في المنزلة الأولى حتى يُحَصِّلُوهَا

الثانية: منزلة الراجين: وهم الذين لما رغبوا في معرفة رب الأرباب تقطعت بهم الأسباب وسدت في وجوههم جميع الأبواب، فزاد رجاؤهم في مولاهم، وجأروا بالتوجه إليه في دعاهم في جهرهم ونجواهم

فلا يغادر الولي المنزلة الأولى ولازال في قلبه استشراف لغير المولى عز وجل

الثالثة: منزلة الصابرين: الذين لا يعترضون على الله تعالى فيما قضى وقدر، ويكثرون من الحمد والثناء، ويأخذون بالرضا على السراء والضراء؛ وهم إن شئت: أهل التسليم، يسلمون لله فيما صرفهم وصرفه عليهم من أمور الدنيا والدين، وكثير من غلبتهم هذه المنزلة وتوقفوا عن السير، وركنوا إلى التمني عند التدني

الرابعة: منزلة الاستوائيين: نسبة إلى الاستواء، وهو تساوي المجريات في المضرات والمسرات، فأهل هذه المنزلة لا يضطربون صابرين عند العسر، ولا ينفعلون فرحين عند اليسر.

ومنزلة الاستواء تختص عما سبقها بأنها منزلة كشوفات وفتوحات ربانية، يطلع أهلها على العلوم اللدنية والأسرار القدسية

الخامسة: منزلة الفانين: فنوا عن أنفسهم فلم يعد لهم بها متعلق لشدة اشتغالهم بمولاهم، فلا يحلوا لهم ذكر بغير اسم الذات بعد أن برموا بذكر الصفات، وتولهوا في الحبيب، فتحررت قلوبهم من غيره، ليس عليهم تتريب

السادسة: منزلة الزائلين: وهم الذين زالوا عن تدبير سبيل السلوك، وألقوا الحبل على الغارب، وفكوا قيود مراعاة الأصول والقواعد، ليس فيهم مذنب ولا تائب، لم تعد لهم إرادة، بل هم من إرادات الرحمن، مُرَادُونَ، يُقَلِّبُهُمْ كيف يشاء فيما يشاء، ذات اليمين وذات الشمال، وهم رقود

السابعة: نهاية منازل الشوط الأول من الولاية: وهي منزلة التصريف، لما يعرف أصحابها أن بعض المحدثات تنفعل لانفعالهم، ويؤثرون فيها بالسلب والإيجاب، في غفلتهم وانتباههم، بِإِذْنِ مَنْ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ، يفعلون ما يفعلون بقصد وبغير قصد، فلا يأخذك في أمرهم بعض الشك والارتياب

لا يفرحون بما وهبوا، ومن فرح منهم لبث في الباقين، ولم ينكشف على الحضرات، وَيَحْظَ بحقائق القربات

أما منازل الشوط الثاني من الولاية، فَقَلَّ من له بها دراية، لا يَعُدُّهَا عَادٌّ، ومن عدها جعل لمعرفة مولاه نهاية، ولا يحدها حاد، ومن حدها وقف دون الغاية

فحسبنا أن نكتفي بذكر أُولَاهَا، حتى يجد القارئ ما عنيناه بعزها وبهاها

تلك منزلة الْمُنْزَاحِينَ: ليس بملكهم بل بملك رب العالمين، انزاحوا عن الأين والحين، وخرجوا عن الشرع والدين، فلم يجر عليهم ما يجري على الأنام من قواعد وأحكام، رغم التزامهم بأصوله وأحكامه، اهتداء بهدي سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه وءاله وصحبه

أولئك خاصة الباري، يَضِنُّ بِهِمْ على بَرِيَّتِهِ، ولا يعرفهم أحد من الأبرار والفجار، ويتعرف عليهم سبحانه، بما لا يدركه إلا من سبق له من مولاه شيء من الِاختصاص والاستئثار

السؤال الثاني: وأين منازل أهل القربة؟

وجوابنا: سألت أين منازل أهل القربة، فإن قصدت بسؤالك أين هي من منازل الأولياء كافة، فهي لأولئك الذين قربهم المولى إلى حضرته، يستأنسون به في قرباه، ويستعذبون أنفاسه في نجواه، وينعمون بِقِرَاهُ

وإن قصدت أين هي من حيث الأين، فهي في عليين لا يدخل عليهم فيها أحد من العالمين، فقد حرم سبحانه أن يشاركه أحبابه أحد من الثقلين، أو ملك من الملائك المقربين

السؤال الثالث: وأين الذين جاوزوا العساكر، وبأي شيء جاوزوا؟

وجوابنا: ذكرت في سؤالك العساكر، وقد سميتهم بهذا الاسم، لقوتهم وجدهم في المسير، وإلا لأسميناهم بِالسَّيَّارَةِ في السالكين. وهؤلاء الذين جاوزوهم في المسير رغم شدة سيرهم، لم يقطعوا ما قطعوا، وإنما أخذ بهم ربهم، وكفاهم مشقة المسير، فهم في حضرته، قد جاوزوا العساكر بشدة محبتهم لله تعالى، فإن المحب لا يقطع المسير كغيره من السالكين، وإنما يستخلصه الحبيب، وينزل عليه دون تدبير، فإذا هو في حضرة مولاه، ليس بنفسه، ولكن بتوفيق العلي القدير

السؤال الرابع: وإلى أين منتهاهم؟

وجوابنا: وإن سألت عن منتهاهم، فأقول: الأجدى أن تسأل وتقول: وهل لهم من منتهى؟ لأنه كما أسلفنا، من المحال أن يكون لسبيل السير إلى الله تعال منتهى، لأنه سبحانه هو القديم الباقي الذي لا يسبقه العدم ولا يلحقه، فكيف ينتهي إليه المسير، وتتوقف معرفته، وهو لا يحيط أحد بعلمه إلا بما شاء

وَالسَّيْرُ تَعَرُّفٌ إلى الله تعالى، فإن انتهى انتهت معرفته، وَتَعَرَّفَ الولي إليه تعرفا كاملا، وهذا ما لا يجوز في حقه تعالى

السؤال الخامس: وأين مقام أهل المجالس والحديث؟

وجوابنا: أما مقام أهل المجالس والحديث، فَفِي مَرْتَعِ خاصته من المقربين، الذين يلهمهم بنجواه، ويشون إليه شكواهم، ليس من ضنك الدنيا، ولكن مما يجدون من تباريح الشوق إليه

السؤال السادس: وكم عددهم؟

وجوابنا: أما عدد أهل المجالس والحديث، فهم عدة خاصة خاصته سبحانه، أهل البشرى في الحياة الدنيا وفي الاخرة. فلا فائدة من ذكر عددهم، وإنما هم ثلة من الأولين وقليل من الآخرين، لا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين، جزاء بما كانوا يعملون

السؤال السابع: وبأي شيء استوجبوا هذا على ربهم؟

وجوابنا: وقد استوجبوا المقام في مرتع النجوى، لاتصافهم ببعض صفات الله تعالى، خاصة صفة الرحيم، وإن شئت استحقوا ما هم فيه بمحبتهم للخلق واستغفارهم لهم، فبرحمتهم للناس رحمهم الرحمن الرحيم، فهم رحماء حلماء، يغفرون لمن ظلمهم، ويرجون لغيرهم أكثر مما يرجون لأنفسهم في الدنيا والآخرة، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة، وأولئك هم المهتدون

فصل في ما فَتَحَ اللهُ به علينا مِنْ فَهْمٍ لِمَا ذكرناه آنفا مِمَّا اشْتَرَطَهُ الإمام أبو الحسن الشاذلي رحمه الله تعالى، في كرامات القطب

أورد ابن عطاء الله السكندري في كتابه: لطائف المنن، ما وضعه الإمام أبو الحسن الشاذلي رحمه الله تعالى، من كرامات يَخْتَبِرُ بها مَنْ يَدَّعِي الْقُطْبَانِيَةَ نَفْسَهُ. ولم يكن ما وضعه على شكل أسئلة، وإنما وضعه على شكل كرامات تخص القطبانية، ودعا مُدَّعِيَهَا إلى أن يبرز بهذه الكرامات بينه وبين نفسه، فإن كان كذلك فهو كما ادعى، وإن لم يكن كذلك، لم يكن له ذلك

وسنحاول بعون الله تعالى، أن نُقَرِّبَ القارئ العزيز إلى ما دعا إليه شيخنا رحمه الله تعالى، بتوضيح عباراته حسب الإمكان، والله يشرح صدورنا ويلهمنا الصواب

وإذا عَدَّدْنَا هذه الكرامات حسب ما عزاه إليه ابن عطاء الله، وجدناها لا تتعدى أربعة عشر كرامة، وليس خمسة عشر، لذلك سنعتمد في نظرنا فيها، على ما رواه الشيخ محمد أبو القاسم، المعروف بابن الصباغ في كتابه: **درة الأسرار**، فإنه أتى في نصه بخمسة عشر كرامة كاملة، وهو كالتالي:

للقطب خمس عشرة كرامة، فَمَنِ ادَّعَاهَا أو شيئا منها، فَلْيَبْرُزْ يُمَدَّ بِمَدَدِ الرحمة والْعِصْمَةِ، والإنابة والنيابة، وَمَدَدِ حَمَلَةِ العرش، وَيُكْشَفُ له عن حقيقة الذات وإحاطة الصفات، وَيُكْرَمُ بكرامة الْحُكْمِ والفصل بين الوجود، وانفصال الأول عن الأول وما انفصل عنه وما بُثَّ فيه؛ وَحُكْمِ ما قَبْلُ وَمَا بَعْدُ، وَحُكْمِ مَنْ لَا قَبْلُ وَلَا بَعْدُ، وَعِلْمِ الْبَدْءِ، وهو العلم المحيط بكل علم وبكل معلوم، بَدْءاً مِنَ السِّرِّ الأول إلى منتهاه ثم يعود إليه. انتهى من درة الأسرار

قال الفتح الجعفي: فأما قول الشاذلي رحمه الله تعالى: فليبرز يمد بمدد الرحمة. انتهى فنقول فيه أن القطب الذي يكون رئيس هيئة الأولياء، كما ذكرناه في كتاب غير هذا، أوتي هذه المهمة ليس لكونه أتقى الناس جميعا، وإنما لأنه تجمع فيه ما تفرق في غيره، فالتقى عليه الشريعة والحقيقة، وتضاربت عليه النقائض، وراعى البحرين دون إفراط ولا تفريط، فإذا رأيته مع أهل الدنيا ظننته منهم، وإذا رأيته مع أهل الدين ظننته منهم، فقد تحقق فيه ما يستوجبه التنزيل من قيامه على الوسطية والاعتدال، وذلك هَدْيُ سيد الأمة ﷺ، كما شهدت به السنة النبوية

وقد أَيَّدَ الله تعالى القطب بأمداده، والمدد عناية من الباري عز وجل يفيض بها عليه بالعلوم والأسرار اللدنية والأنوار القدسية، فتتنقى سريرته وتخمد نفسه عن اشتهاء المناكر، وَيُحَبِّبُ إليه مولاه الإيمان وَيُزَيِّنُهُ في قلبه

ففي هذه الكرامة الأولى، يقصد الشيخ بمدد الرحمة، ما وهب سبحانه القطب من رحمة عظيمة شملت كل الخلائق، هذه الرحمة يؤتيه إياها الرحمن الرحيم، ولا تَتَأَتَّى بالتعلم والتحصيل والتربية والتأديب، بل تَأْتِي مددا من عند الله

تعالى، يَطْبَعُهُ به فَيَتَطَبَّعُ، ويجدها في رَوْعِهِ وَمَكَامِنِهِ دون تَصَنُّعٍ وَتَكَلُّفٍ، فلا يفتأ يرحم الناس ويحسن إليهم، فَيَحْلُمُ على مَنْ جَهَلَ عليه، ويعفو عمن عاداه، ويدعو له بالهداية والنجاة

فهو مُحِبٌّ لبني جنسه، ولو ما أحبه المولى عز وجل، ما هيأ له حب خلقه، إذ أن حب الخلق ورحمتهم من صفات الله تعالى الرحمن الرحيم

أما قصد الشيخ بمدد العصمة، فلا نرى أنها عصمة من الذنوب، فذلك لا يكون إلا للأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين؛ بل الأقرب إلى الصواب أن المراد بالعصمة الوقاية، كما ينصرف إليه معناها اللغوي، وقاية من أذى الخلق، كما يشهد له ما سبق ذكره في مدد الرحمة

والإنابة الأوبة إلى المولى في كل شيء، فالقطب لا يَحِيدُ عن مولاه في جميع تصرفاته، فهو رباني، دائم على استحضار عظمة ربه في قلبه، مداوم على مراعاة مراقبته سبحانه وتعالى في السر والعلن

والنيابة إنابة واستخلاف في الخليقة، وَعَهْدٌ بالتصرف فيها بما شرعه الله تعالى لها في التنزيل من أمور التشريع، ومن أمور السلوك، مما يهم المكلفين عامة من الثقلين

فهو، أي القطب، يوازي بين الشرع والحق، ويقف بَرْزَخاً بين البحرين الشريعة والحقيقة، لا يبغيان، ولا يطغى هذا على ذاك، حتى يسيرا على المواتاة، كما يقتضيه الميزان الذي وضعه العدل سبحانه يوم رفع السموات وأرسى الأرضين

ومدد حملة العرش، يعني به رحمه الله تعالى، استمداد القطب من حملة العرش، والمعروف عن حملة العرش استغفارهم للمؤمنين، في قوله تعالى: "الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويومنون به ويستغفرون للذين ءامنوا، ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم، ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من ءابايهم وأزواجهم وذرياتهم، انك أنت العزيز الحكيم، وقهم السيئات، ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته، وذلك هو الفوز العظيم". غافر6-8

قوله: وَيُكْشَفُ له عن حقيقة الذات. انتهى المراد ذات الله تعالى، أما حقيقتها من حيث الماهية، فهذا ما لا يجوز في حقه تعالى، ولا يمكن لأي أحد من المخلوقات، الثقلين والملائكة المكرمين وغيرهم، أن يحيط بحقيقته؛ وإنما المقصود بحقيقة الذات، تَمَنُّعُهَا عن الكشف والإدراك، بالإيقان باستحالة كشف حقيقتها والعجز عن إدراكها، مما يترتب عنه الشعور بالقصور والعجز. وبهذا يكون المراد بالكشف عن حقيقة الذات، الاعتقاد بأن ذات الله تعالى لا تدرك بحال من الأحوال، والتحقيق بالقلب لقوله تعالى: "ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير". الشورى9

أما إحاطة الصفات، فليس هو الإحاطة بالصفات، فالصفات التي تُحِيطُ، وليس القطب الذي يُحِيطُ بها، كما تَرْمُزُ إليه العبارة، والمراد الكشف عما تُحِيطُ به الصفات الإلهية، وما تَشْمُلُهُ وَتُؤَثِّرُ فيه من حوادث وأحداث، وصروف وتصاريف، في كون التكليف، ومن ذلك إحاطة رحمته تعالى بكل شيء. "قال عذابي أصيب به من أشاء، ورحمتي وسعت كل شيء". الأعراف156

أما كرامة الْحُكْمِ وَالْفَصْلِ بين الوجود، على حسب رواية صاحب كتاب: درة الأسرار، فالوجود وجودان: ظاهر وباطن، ويشهد له ما ورد عند ابن عطاء الله في كتابه: اللطائف، من قول الشاذلي رحمه الله تعالى: الحكم والفصل بين الوجودين. انتهى لما جاء بالنص نفسه، وذكره

ولا ينصرف إلى الأذهان أن حكم القطب في الوجودين هو حكم الحاكم في رعيته بالأمر والنهي، وإنما هو حكم الفصل والوصل فيما حَادَ عن اتصاله وفيما مَالَ إلى انفصاله، كما سبق ذكره آنفا، والحرص على استواء الكفتين، حتى لا ترجح كفة بأخرى فَيَخْتَلَّ الميزان

قوله: وانفصال الأول عن الأول. انتهى فالأول الظاهر، انفصل عنه الباطن، واعتبر كلاهما أولا، لأنهما أُنْشِئَا في آن واحد

أما قوله: وما انفصل عنه. انتهى فالوجود الأول لم ينفصل عنه شيء، وإنما هو الذي انفصل عن شيء، هذا الشيء لا يعلمه إلا الله تعالى، وهو مِمَّا اسْتَأْثَرَ سبحانه بعلمه، وإن شئت: عِلْمُهُ مِنْ خصوصيات الألوهية

ويقوم الانفصال بانتفاء وجود الاتصال الْحِسِّي مِنْ قَبْلُ، وإنما انفصل بأن خرج إلى الوجود، وبقي ما سواه في حكم اللاموجود، باستحالة رؤيته وإدراك ماهيته وكنهه، ومنه ما خلق سبحانه خارج هذا الكون، كون السموات والأرضين، ومنه الأحكام والجزاء والعقاب

قوله: وما بث فيه. بث فيه المبثوثات. انتهى

قال سبحانه"إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة الآية". البقرة163

وإن شئت: بَثُّ الحوادث التي ظَهَرَتْ في الظاهر بهيكلها وظلها، والتي بَطُنَتْ في الباطن بكنهها ومغزاها

وقوله: وحكم ما قبل وما بعد. انتهى ليس المراد بالحكم هنا مفهوم الأمر والنهي، وإنما الحكم بمعنى المتعلق، اسم مفعول بفتح اللام المشددة، أي ما تَعَلَّقَ بما قَبْلُ وما تعلق بما بَعْدُ، وإن شئت: الحكم قضاء الله تعالى فيما مضى إلى ما قبل البدء، وفيما يأتي إلى ما بعد الانتهاء

فالحكمان تَفَرَّقَا في ظاهر الآن، وَاجْتَمَعَا بغير أوان، وفي افتراقهما إتاحة المجال لخلافة بني الإنسان، وفي اجتماعهما شَهَادَةٌ بحكمة الواحد الديان

وأما قوله: وحكم ما لا قبل ولا بعد. انتهى ما ذاك إلا حكمه الذي لم يطلع عليه أحد من خلقه، وهو قضاؤه وتدبيره في ميادين لا يحكمها الزمان ولا يحتويها المكان، ولا تعرف الفترة والاستغراق، ولا الْمُضِيَّ والاستقبال، ولا يَعْتَرِيهَا الْقَبْلُ فَيَصِمُهَا بِالْمُضِيِّ، ولا يَعْتَرِيهَا الْبُعْدُ فَيَصِفُهَا بِالتَّوَقُّفِ والانتهاء. لا علاقة لها بالبداية والنهاية، ولا شأن لها بالعلة والغاية، وإنما هي كما شاء مولاها، تجري حسب حُكْمِهِ فيما شاء لها، مُجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا، سبحانه مِنْ حكيم علام

قوله: وعلم البدء. انتهى يريد به علم الله القديم قِدَمَهُ سبحانه، لِاتِّصَافِهِ تعالى بصفة العلم التي لا تنفصل عنه بحال من الأحوال، بل هي صفة واجبة في حقه تعالى، وجوب ما تقتضيه الربوبية، وليس وجوب الفرض، كما يُتَصَوَّرُ مفهوم الوجوب لدى أذهان الحوادث. صِفَةٌ هُوَ هِيَ، كما هو مذهبنا العقائدي، وهو مذهب أهل السنة والجماعة.

وإن أمكن اطلاع القطب على علم البدء، فلا يمكنه أن يحيط به جملة وتفصيلا، وإنما يُطْلِعُهُ الله تعلى على ما شاء سبحانه منه، ويكون اطلاعه في الغالب غير مفصل، وإنما يُدْرِكُ من النص العناوين، ومن الرسوم ما يتجلى للرائي من بعيد، ببصيرته، بحيث تتجلى له مشاهد غير واضحة، يؤولها، وينطق بما ترمز به إليه

وقوله: بدءا من السر الأول إلى منتهاه، ثم يعود إليه. انتهى قلت فيه: قد استحق علم البدء ذلك، لأنه علم الكون وَالْمُكَوَّنَاتِ، وما يجري فيه من تصاريف، وما يطرأ عليها مما قضاه وقدره سبحانه في علمه الأول إلى انقضاء الأمر يوم الحساب، وإلى ما بعد يوم الحساب. وإن شئت: هو ما في الكتاب المسطور، بل هو ما في أم الكتاب

والسر الأول عندنا، علة الخلق والتكوين، وحكمته تعالى من إنشاء الكون بما فيه إلى منتهاه عند خلود أهل الآخرة في الجنة أو في النار

أما قوله: ثم يعود إليه. انتهى فضمير يعود راجع إلى علم البدء، الذي يعود إلى السر الأول، وهو سر الخلق وانكشافه لدى خاصته تعالى من المقربين

قال المؤلف: قلت: وللمزيد من تقريب القارئ اللبيب إلى ما قاله شيخنا الشاذلي رحمه الله تعالى، أقول ومن الله التوفيق:

للقطب خمس عشرة كرامة، فَمَنِ ادَّعَى معرفتها وتحصيلها، أو ادَّعَى شيئا منها، فَلْيَبْرُزْ لنا بالقطبانية التي تقتضي إمداده بمدد الرحمة، يستمده من الرحمن الرحيم، فيكون من شدة رحمته رَحْمَةً في العالمين، وليس رَحْمَةً للعالمين،

14/01/2026 15:45 تنزيل كتاب - 1-50 صفحات - MAFAHIM

فذلك من شأن رسول الله ﷺ خير الخلق أجمعين. فالقطب رَحْمَةٌ مِنْ رَحَمَاتِ الرحمن الرحيم للمرحومين. أما سيد الخلق ﷺ فهو رَحْمَةٌ أقامها سبحانه للعالمين كافة، تشملهم بالعفو والغفران والرضا والرضوان

وليبرز بمدد العصمة مِنْ أن يكون للشيطان لعنه الله تعالى، عليه سلطان، فَيَدَّعِي ما ليس له، أو تُعْجِبُهُ نفسه ويكون في الناس من العالين

وليبرز بمدد الإنابة، فيكون منيبا متوكلا على مولاه، راجيا محبته ورضاه، يتجلى سبحانه في أقواله وأفعاله، فإذا أبصر فبنور الله تعالى، وإذا سمع فبسمعه، وإذا مشى ففيما يرضيه، وإذا بطش فبقوته وجبروته

وليبرز بمدد النيابة، وهي أن ينوب عن الله تعالى وَيَخْلُفَهُ في خَلْقِهِ دون أن يَخْرُجَ عما قضاه وقدره سبحانه فيهم من خير وشر، يُنَابُ وَيُسْتَخْلَفُ، والله هاديه في نيابته واستخلافه، مُلْهِماً إياه بما يصلح وبما يفسد، حتى لا يَضِلَّ ويطغى

وليبرز بمدد حملة العرش، فتغشاه العرشيات، وَتَتَمَلَّكُ منه رَوْعَهُ، فيصبح عرشيا. وإن شئت: يَتَّسِمُ بالربانية، فلا يحب مع الله غيره ولا يخاف سواه، ولا يَتَوَكَّلُ على غير مولاه. فيكتسب صفة حملة العرش في الدعاء بالرحمة للمؤمنين، ويدعو للمؤمنين بالجنة ويدعو للكافرين بالهداية

وهذا المدد، مدد حملة العرش، يُمَكِّنُهُ مِنَ الاتصاف بالإملاء للخاطئين، والإمهال للظالمين، يرجو لهم التوبة، لأن الأعمال بخواتيمها، ما آذوه وأمعنوا في إذايته، ولا يَتَظَلَّمُ إلى مولاه وناصره مهما آذوه وأمعنوا في إذايته

وَيُكْشَفُ له عن حقيقة ذات الله تعالى من حيث مخالفته سبحانه للحوادث. فيزيد في تحقيق عبوديته لمولاه، والإذعان له والتذلل إليه، ولا يَحِيدُ عن صَغَارِهِ بعدما عرف من كِبَرِ الله تعالى وكبريائه وعظمته

ويكشف له عن إحاطة الصفات، أي عند تعامل الموصوف سبحانه، مع خلقه على حسب ما تقتضيه صفاته. فيشملهم برحمته، وَيُطْلِعُهُمْ على ما شاء من علمه، وَيَكْلَؤُهُمْ بحفظه ورعايته

وَيُكْرَمُ بكرامة الْحُكْمِ والفصل بين الوجود. فيكون واقفا على ما أقام الله عليه الوجودين، الظاهر والباطن أول مرة، مِنْ خاصيات وخصائص، إِذِ الوجود وجودان، ظاهر وباطن، لا ينبغي لأحد منهما أن يسبق الآخر، كما لا ينبغي لليل أن يسبق النهار، ولا للشمس أن تدرك القمر. فوجود القطب في الكون، بما يمده به الباري عز وجل من عنايات وألطاف، وجوده يتفاعل تلقائيا مع المكونات والحوادث والأحداث، دون أن يُقَرِّرَ وَيُدَبِّرَ، وينظر ويفكر، بل هو يمشي على الموازنة والتوازي، فإذا الظاهر يراعي الباطن وَيَقْتَصِرُ على الظهور، وإذا الباطن يراعي الظاهر ولا يَجْرُؤُ على السُّفُورِ. لأنه قطب الرحى كل شيء عليه يدور، فلا يَتَهَيَّأُ له الْمَيْلُ عن الحق، فإنه إن مال طغى الظاهر على الباطن، وغلب الباطل على الحق

فَحُكْمُهُ في الوجود حُكْمُ فَيْضٍ وليس حكم أمر ونهي

وإن شئت قلت: هو حُكْمُ وجود وتواجد، وليس حُكْمَ عَهْدٍ وَتَعَهُّدٍ

https://fliphtml5.com/xdxqb/fygr/basic 165/212

وإن شئت قلت: هو حُكْمُ انفعال وَتَفَاعُلٍ، وليس حُكْمَ اتصال وتواصل
وإن شئت قلت: هو حكم عَرْضٍ وَتَعْرِيضٍ، وليس حُكْمَ تفاوض وتفويض
وإن شئت قلت: هو حُكْمُ تَأَثُّرٍ وتأثير، وليس حُكْمَ تَغَيُّرٍ وتغيير
وإن شئت قلت: هو حُكْمُ مَدٍّ واستمداد، وليس حُكْمَ تَمَدُّدٍ وامتداد
وإن شئت قلت: هو حُكْمُ تَسَيُّبٍ وانسياب، وليس حُكْمَ تَنْصِيبٍ وانتصاب
وإن شئت قلت: هو حُكْمُ شعور واستشعار، وليس حُكْمَ تَأَمُّرٍ واستئمار

كما أن القطب يفصل بين الوجودين، حتى لا يكونا واحدا ظَاهِرَيْنِ، أو واحدا بَاطِنَيْنِ، فتلتبس بذاك المظاهر بالسرائر، أو تختلج البواطن في ما هو ظاهر

كما يحكم القطب فيما انفصل عن الوجود الأول حتى لا يعود إليه، فَإِنَّ ما انفصل عنه لا شأن للحوادث بعلمه، ولا دخل لهم في شأنه، لأنه مِنْ خصوصيات الواحد الأحد، بل هو عنده فيما عنده، لا سبيل إلى دِرَايَتِهِ لأحد مِنْ خَلْقِهِ، ويدخل فيما خَلَقَ مِمَّا لا علم لنا به

ويحكم فيما بث في الوجود الأول، مِنْ جميع ما ذرأ وبرأ سبحانه، وتناله وصايته ورعايته

ويفترض في القطب كذلك أن يدرك حُكْمَ الله فيما قَبْلُ وما بَعْدُ، هذا الْحُكْمُ القائم على ما ابتغاه عز وجل وقدره لخلقه منذ بَدْءِ الخليقة والتكوين

وحكم ما لا قبل ولا بعد، وذلك عِلْمٌ مِنْ اختصاص الله تعالى، وهو الحكم القائم على علم إلهي، يرتبط بذاته، ما له مِنْ بَدْءٍ وَلَا انتهاء

كما يُفْتَرَضُ في القطب أن يحيط بعلم البدء، مِنْ حيث مفهومه، وما ينصرف إليه، وليس من حيث درايته واستيعابه. وعلم البدء كما أسلفنا، الحكمة من النشأة والتكوين، وإن شئت: حقيقة الخلق والإنشاء، فإن الله تعالى قال في التنزيل الحكيم: "وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون". الذاريات56

فَبَيَّنَ سبحانه الْمَقْصَدَ مِنْ خَلْقِ الثقلين، وهو عبادته سبحانه. فالعبادة ما يجب أن يدركه الثقلان من علة لخلقهم، وليس من الضروري أن تكون العلة التي ابتغاها سبحانه مِنْ خَلْقِ الكون سمواته وأرضيه وما فيهن. فتدبر

ويكون بذلك علم البدء، ما رمى إليه سبحانه من التكوين

قلت: قد أحاط علم البدء بكل علم وبكل معلوم، لأنه علم جامع لكل علم، إذ كما أسلفنا، اشتمل على كل ما يَهُمُّ الخليقة، مِمَّا يتصرف عليها من أحداث، ومما تأتيه من أقوال وأفعال، وتكتسبه من ذنوب وتجري فيه من حسنات. وهو أصل العلوم ومصدر كل معلوم، لأنها لا تخرج عنه، حسب ماهيتها ومقدار ما يؤتى الإنسان منها، ومدى نفعها وضرها، لا تخرج عما حدده علم البدء، قبل إحداثها وإخراجها للناس

14/01/2026 15:45 MAFAHIM - تنزيل كتاب - 1-50 صفحات

وقول الشيخ رحمه الله تعالى: بَدْءاً مِنَ السِّرِّ الأول إلى منتهاه، ثم يعود إليه. انتهى بمعنى أن علم البدء ابتدأ من السر الأول، وهو علة الخلق والغاية منه في نظر الله تعالى، إلى منتهاه. أي إلى استيفاء الغاية منه، كما يستلزمه علم البدء الأزلي، ثم يعود إليه، أي أن علم البدء الذي يبتدأ بالسر الأول إلى منتهاه، متى أنهاه وأتى عليه يعود إليه، عودا على بدء، كما هي حكمته تعالى في خلقه، إذ قامت على الدور والتردد والمراجعة. قال سبحانه: "كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم، ثم يحييكم ثم إليه ترجعون". البقرة27

وقال سبحانه أيضا: "ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم، ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا". الحج5

فمتى حقق الباري عز وجل مراده من الخلق، حسب ما أودعه في علم البدء من السر الأول، عاد علم البدء ليتعلق مرة أخرى بالسر الأول، ليبدأ ما أنهى مِنْ أَوَّلِهِ ما دامت السموات والأرض. فهؤلاء أصحاب الجنة في الجنة لا يفتؤون يَطَّلِعُونَ على مشاهد حياتهم في الدنيا، لا يغيب عنهم منها شيء إلا ما شاء الله تعالى. وهكذا تتقابل حياة الدنيا وحياة الآخرة في سَيْرٍ واحد، لا تَتَقَدَّمُ هذه على تلك. ألا ترى إلى القرآن الكريم، كيف أخبر عن يوم الحساب، والجنة والنار بصيغة الماضي والحاضر، رغم أن موعد يوم القيامة لم يحن بعد؟ ومنه قوله سبحانه: "وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا، حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين، وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين". الزمر70 - 71

وهذا رسول الله ﷺ، يخبر ليلة الإسراء والمعراج عن الجنة وأهلها والنار وأهلها بصيغة الحاضر، وهم لم يبعثوا من قبورهم بعد. فتدبر أيها القارئ اللبيب

وفي الصحيح مرفوعا: "يا معشر النساء، أُريت النار فوجدت أكثر أهلها النساء والأغنياء".

https://fliphtml5.com/xdxqb/fygr/basic 167/212

السباعيات

قال الفتح الجعفي: وقد ارتأينا، والله الموفق للصواب، أن نضع سباعية من الأسئلة، يجيب عنها من ادعى على رؤوس الناس، أن الله كشف عنه الأستار، وعلم الحقائق والأسرار، حتى يختبر ما هو فيه، ويتبين له الحق من الباطل

وليس قصدنا من وضع هذه الأسئلة إعجازه وإفحامه، ولا ندعي بوضعها أننا أحطنا بما لم يحط به غيرنا، وإنما ذاك ما جاء به الإلهام الذي ساورنا، ووجدنا به ريح القربى والمحبة. والله أعلم بالصواب

والله يتجاوز عنا أن ركبنا بحرا بلا ساحل، وحاولنا هذه المسائل، ليس لنا عليها من حجج ودلائل، وإنما أدلينا بدلونا فيما خاض فيه الأوائل، وإلا فمعرفة المولى، لا تحتاج إلى كل هذه الوسائل.

نسأله سبحانه أن يهدينا سواء السبيل، ويغفر لنا ما أتيناه في الإجمال والتفصيل، هو أهل التقوى والمغفرة

السباعية الأولى

نَعَتَكَ الأتباع بالشيخ، فأصبحوا مُرِيدِينَ وأنت الْمُرَادُ، وَقَبَّلُوا مِنْكَ الْأَكُفَّ والأقدام وَتَمَسَّحُوا بتراب نَعْلَيْكَ، فهل أنت كما نَعَتُوا؟ وهل أنت مَنْ قَبَّلُوا منه الْأَكُفَّ والأقدام وَتَمَسَّحُوا بتراب النِّعَالِ؟ فلا تَسْكُنْ هداك الله للصواب، لهذا الْهَيْلَمَانِ، حتى تَعْرِفَ ما يُشْتَرَطُ أن تَعْرِفَ، مِمَّا بِمَعْرِفَتِهِ يَكُونُ لك ما وَضَعُوهُ فِيكَ

الأول: أخبرني هداك الله، عَنْ طَارِقِ حِرَاءَ أَنْ طَرَقَ وما طَرَقَ، طائرا أو سانحا، وعن الغُدَافِ الْيَمَانِيِّ وما له والطارق، وَمَا خَطْبُ هذا وذاك؟

الثاني: وأخبرني عن هَاجِرٍ في الْهَجِيرِ، وعن سَارٍ دون سَرِيَّةٍ، ما هجر وَلِمَا هجر ومما هجر، ومِمَّ سرى وإلى أين، وهل غادر حراء أم بقي فيه؛ وعن المهاجرين الذين هاجروا وما هاجروا، وعمن عادوا عن الهجرة ثم رجعوا، وعمن عادوا وما رجعوا، وما قاله المصطفى في هؤلاء وأولئك؟

الثالث: وأخبرني عن هُزَيْمَةَ، وما رأى في ليلة أنيس، وما حكى لزوجته مما رأى وما أسلم، وهل أدرك الفتح أم مات قبل الفتح، وكيف مات إن مات؟

الرابع: وأخبرني عن الهوجاء التي ساقت ما ضَلَّ مِنْ نُوقٍ، وما شأن المصطفى بها، ولمن تلك النوق، وما قصة الحادي أَنْ ضَلَّتْ نُوقُ مَوَالِيهِ؟

الخامس: وأخبرني عن أم المؤمنين التي ضحكت ضحك سارة، وما قال المصطفى لما ضحكت، وَمِمَّ ضحكت، وهل كان ما قال المصطفى كما قال؟

السادس: وأخبرني عن الأنصار لَمَّا جمعوا مالهم، وَلِمَ جمعوه، وهل أبقى عليه المصطفى لَمَّا جُمِعَ، أم رَدَّهُ عليهم، وإن رَدَّهُ، فهل رَدَّ لكل أنصاري ما جاء به أم خالف العطايا؟

السابع: وأخبرني عن بكاء الصِّبْيَةِ ومِمّ بَكَوْا، وكيف أوّل المصطفى بكاءهم، وما أضحكهم بعد بكائهم، وهل كان ذلك في مكة أم في المدينة؟

14/01/2026 15:45 تنزيل كتاب - 1-50 صفحات - MAFAHIM

السباعية الثانية

فإن أخبرتني عن الأولى حسبتك ممن شهد الأوقات شهودا واحدا، ولم يقل ثلاثة، وكنت من الشاهدين، وإن شئت أن أحسبك أفضل من ذلك، فأخبرني عن الثانية:

الأول: أخبرني رعاك الله عن دَارَةِ الْقُدْسِ مِنْ أين يأتيها مَنْ دُعِيَ إليها، وكيف يأتي، وما دعاه مِنْ دون أَهْلِ جنسه حتى يأتي؟

وَصِفْ لِي مَا أَهَّلَ وَارِدِيهَا حتى خَصَّهُمْ مَنْ لا يُحَاطُ بشيء من علمه إلا بما شاء بِخَوْضِهَا؟

وهل كُلُّ مَنْ خُصَّ بها قَوِيَ على تَخَطِّيهَا، أَمْ منهم النَّاجِي والهالك، ومن نجا كيف تكون نجاته؟ ومن هلك كيف يكون هلاكه؟

الثاني: وأخبرني عن دَارَةِ التَّهْيِيءِ وعلومها، وأين مَحَطُّ هذه العلوم منها، أَفِي طَلْعِهَا أم في صنعها أم في طبعها؟

وحتى لا تَتِيهَ، أُنَبِّؤُكَ بعلومها، وهي سبعة:

- علم التَّطَلُّعِ دون اطِّلَاعٍ: وهو حُكْمُ الْمُشْرِفِينَ
- علم الإقبال دون قبول: وهو حكم الراغبين
- علم العزم دون حزم: وهو حكم السالكين
- علم الشروع فيما هو مشروع: وهو حكم الكيسين
- علم الإنابة دون استجابة: وهو حكم البكائين
- علم الإبحار في سواحل البحار: وهو علم الهائمين
- علم الوقوف على ما هو موقوف: وهو حكم الطارقين

الثالث: وأخبرني عن دَارَةٍ لا محيط لها ولا عرض، تحيط بكل محيط، ولا يحيط بها سوى من وسع كرسيه السماوات والأرض

فإن قلت: فكيف أحيط؟ قلت: سألتك عن بعض علمها، إِذْ لِكُلِّ ذِي قَدَمٍ مِنْ عِلْمِهَا نَصِيبٌ، فما نصيبك؟

وأخبرني هل جمعت الدوائر في أكنافها، أم دارت بكل ما هو دائر، وشملت أوصافه بأوصافها؟

وإن كنت من أهل الدوائر، فما دائرتك مِنْ قُطْرِ الْوِهَادِ؟ وما وِجْهَتُهَا في شؤون السَّدَادِ؟ وأين تَسْفَحُ ما تَلَقَّتْ من أَمْدَادٍ؟ وَمِنْ أين تَسْتَقِي أدوارها فيما تَرَفَّعَ بغير اعتماد؟

الرابع: وأخبرني عن سير الدوائر فيما هو سائر، تجري بِقُدْرَةِ القادر، بما دَبَّرَ من تدابير وقضى من مصائر؟

https://fliphtml5.com/xdxqb/fygr/basic 170/212

كيف هو سيرها متى حان دورها، ومتى تسير وإلى أين المسير؟

ومنها دوائر الأقدار: متى دارت تفجرت أرواع العارفين بما عَذُبَ من رقائق الأسرار، وانطبعت معاني كل سيار في قلوب الأحرار، وَعَدُّهَا خمسة:

فأما الأولى: فدائرة كشف ما هو مكشوف عن أولي الأنظار، كما هو معروف

وأما الثانية: فدائرة الفتح الأصغر، تُتَابِعُ الفتوح على مَنْ عَفَّ وصبر، لا يدركها سوى مَنْ حَسُنَ تَوَكُّلُهُ

وأما الثالثة: فدائرة التَّرَقِّي من موقف الإنظار إلى رِفْعَةِ التَّلَقِّي، تمشي بعلائقها من الدارجين، حتى إذا بلغت شأوها دخلت في الخارجين

وأما الرابعة: فدائرة الوصول إلى بداية الموصول: مَنْ رَكِبَهَا أَخَذَتْهُ من المعقول إلى اللامعقول

وأما الخامسة: فدائرة الشُّمُولِ لكل ما هو مسؤول، لا مكان فيها للفضول

أخبرني عن أهلها، كيف تَشَكَّلُوا بِشَكْلِهَا وَهُمْ مائلون، فلما مالت، مَالُوا بِمَيْلِهَا وهم ثابتون؟

الخامس: وأخبرني عن تَقَابُلِ الأقطار، متى تقابلت انْقَلَبَتِ الأقدار، وَلَحِقَ الليل بالنهار

هل سبق أن تقابلت مِنْ قَبْلُ أم لم تتقابل، فإن كان ذلك ما خَطْبُ الْبَلَابِلِ، وهل سَتَتَقَابَلُ مِنْ بَعْدُ فيما هو حاصل، فإن كان كذلك، ماذا سيكون في الْمُقَابِلِ؟

السادس: وَالدَّوَّارَةُ لا دَوْرَ فيها حَوْلَ قُطْرٍ ليس في الْقُطْرِ، تريد أن تتخذه قُطْراً، ولا يَثْبُتُ على حال حتى تدور حوله، ولو دارت حوله، بَرِمَ العالمون بالحياة وفرحوا بالمنون. فأخبرني رعاك الله تعالى، ما الحكمة في كون الدوارة دائبة ونقطة الْقُطْرِ غائبة، هل فيهما من غالبة؟

السابع: وأخبرني عن شأن الْمَدْحُوَّةِ الضَّامِرَةِ من جوانبها، غير سليمة بالقوة، آمرة ناهية، لا خوف من عواقبها، قطبها ثابت على ما هُوَ، أَهْلُهَا في شِعَابِهَا، ما سِرُّ انْحِنَائِهَا وما سِرُّ ثبات قُطْبِهَا، وَمَنْ أَهْلُهَا في الآمنين؟

السباعية الثالثة

فإن أخبرتني عن الثانية حَسِبْتُكَ مِنْ أَهْلِ الدوائر، في ثُلَّةٍ من عباد الله الصالحين، وإن شئت أن أحسبك أفضل من ذلك، فأخبرني عن الثالثة:

الأول: وأخبرني رعاك الله عن قُطْبِ الوجود، في أي قُطْرٍ هو موجود، وما اسمه في الغيب والشهود، وما أمارته في جسده، وما كُتِبَ عليه من أحرف لا يراها سوى ذَوُو الأبصار الحديد؟

وما أَهَّلَهُ لِلْقُطْبِيَّةِ حتى أُوتِيَهَا، وهل تَدَرَّجَ في الْبَدَلِيَّةِ قبل أن يؤتاها، وهل نالها بالتقوى، أم بالعلم، أم كان ذا حظ عظيم؟

وكيف أخفاه الباطن بشدة الظهور، وأظهره الظاهر بغير ظهور؛ ذاك قُطْبُ الرَّحَى، كل ما حوله يدور، وهو قائم كالألف المسطور؛ وما علاقته بالألف، غَيْرِ تَسَاوِي عدد الحروف بِالْجُمَّلِ الصغير والكبير، وما تَمَيَّزَ به حرف الابتداء عن باقي حروف المعجم، أليس مَهَامُّ الحرف مِنْ مَهَامِّ القطب؟ أما علاقة القطب بِالصِّفْرِ فقد أَطْلَعْنَا عليه مَنْ يَلِينَا، فلا داعي للسؤال عنه؟

الثاني: وأخبرني عن علومه، ما أَخَذَ مِنَ الْمُلْكِ، وما أُلْهِمَ مِنَ الْمَلَكُوتِ، فَلَهُ مِنْ عالم الملك:

– عِلْمُ الدَّلَالَةِ، يَكْشِفُ به اسْتِعْدَادَ الْمُرِيدِ لِتَحَمُّلِ وَدَائِعِ الجلالة

– ومنه علم الِاطِّلَاعِ يَسْتَطْلِعُ به قلوب الأتباع، حيث هو في جميع البقاع

– ومنه علم الْمُخَاطَبَةِ، يخاطب به الناس بما تقتضي المناسبة

– ومنه علم التَّدْبِيرِ، يُدَبِّرُ به معادن التابعين ويصفيها، يُكَلِّسُ منها ما يَلِينُ، وَيُقَوِّيهَا، وَيُلَيِّنُ الصَّلْدَ الْمَتِينَ ولا يَكْسُوهَا

– ومنه علم القلوب، يَعْرِفُ به مِنْ أين يُوقِدُ عليها حتى تذوب، وكيف يُقَلِّبُهَا ويغسلها مِمَّا شَابَهَا مِنْ كروب، ويصقلها حتى تعكس من الأنوار ما تَنَزَّلَ مِنْ أسرار الغيوب

– ومنه علم الدَّوْرَةِ، بما يُعِيدُ على بَدْءٍ مِمَّا قَطَعَ المريد من أشواط، وما جَازَ مِنْ أشراط، دون تفريط ولا إفراط.

– ومنه علم الوقت والساعة، يَعْرِفُ به سَعْدَ الليالي والنهارات، ونحوسها في كل الساعات، جَرْيَهَا وركودها، صفاءها وَكَدَرَهَا، حتى لا يُبَشِّرَ في النحس أصحابه، وحتى لا ينذر بالبأس أترابه؛ بل يرسل دون لَبْسٍ ما تَيَسَّرَ له، لِمَنْ جَاءَهُ أو طَرَقَ بَابَهُ

وله من علوم الملكوت:

– عِلْمُ التَّرَقِّي، ما لِأَدْرَاجِهِ من تمام، يقوم على الذكر وَالتَّلَقِّي، ابتداء بالخواطر والأوهام

– ومنه عِلْمُ الْخَوَاطِرِ يُصَنِّفُهَا لِذَوِي البصائر، ما كان منها من الباري عز وجل، أو من ملاك مخاطر، وما كان من الشيطان أو من النفس، بالسوء آمرا، كُلٌّ قَدْ عَلِمَ مَالَهُ مِنْ مصادر، وَعَنْ أَيِّهِمْ هو صادر، ومتى يبدأ ومتى يغادر

– ومنه عِلْمُ الْأَرَضِينَ كما هي، وعلاقة أرض بأرض، وهل لكل أرض نبي، وعلاقة الستة بالتي نحن فيها، وما يروج في هذه وتلك من ظاهر وخفي، وما بقاؤها إن زالت هذه، وإن بقيت، هل يبقى منها بقي

وما شأن الأرضين السبع والسماوات، وما ألوانها، وما سكانها، وما لسانها، وما مكانها، وما شرعها وسننها، ومابنبيك غير خبير

– ومنه عِلْمُ الْحَضْرَةِ وآدابه، لا يَتَلَقَّاهُ صاحبه إلا وهو فيها، متى رَضِيَ جَنَابُهُ، يُعْرَفُ بالسكينة أَصْحَابُهُ، لا يغضبون ولا يَرْعَدُونَ، بل هم كالغيث يُبَشِّرُ النَّاسَ سَحَابُهُ؛ وَمَنْ حَضَرَ مع مولاه استقامت نجواه، وَتَخَلَّقَ بأخلاق الملوك، وصفا قلبه صفاء الذهب المسبوك، وَتَذَلَّلَ لعزة المولى، تَذَلُّلَ العبد المملوك

ومن لم يحضر، إذا تَكَلَّمَ لم يُجِدْ، وإذا تَعَلَّمَ لم يُفِدْ، وإذا استفاد لم يَزِدْ، وإذا سَلَكَ لم يَبْتَعِدْ

– ومنه علم الخليقة لِأَهْلِ الشُّهُودِ، متى بدأت ومتى تعود، ما وضعها وما طبعها، وما نوعها، متى تنقص ومتى تزيد

– ومنه علم الموازين، حتى يُقْسِطَ فيما أُوتِيَ من رب العالمين، تَفَرَّعَتْ منه الْحِكَمُ والألطاف كالغصون، مَا حَدُّهُ وما وَضْعُهُ في العلوم، وكيف يكون التلقين؟

– ومنه علم التَّلْوِينِ: يَتَبَدَّلُ صاحبه في كل حين، ولا يتغير منه شيء في الدنيا والدين، كل يوم هو في شان، كما شاء أن يكون كان، في الحين

الثالث: وأخبرني عن خَتْمِ الْوِلَايَةِ، هل يكون قُطْباً مِنْ هَيْئَةِ النهاية، أَمْ وَلِياًّ لا شأن له بذاك منذ البداية

الرابع: وأخبرني عن الأَبْدَالِ، هل لهم شأن بِالتَّبَدُّلِ وَالتَّبْدِيلِ، أَمْ سُمُّوا بذلك لِسِرٍّ أخفاه الجليل، وهل لَهُمْ بالقطب وَصْلَةٌ وَاتِّصَالٌ، وكيف يسيرهم في كل حال، وهل يجتمعون به أَمْ أن اجتماعهم به من المحال؟

وما مُهِمَّةُ الأبدال في الكون، ما دينهم وما تقواهم، وما ذكرهم ونجواهم؟

الخامس: وأخبرني عن الأوتاد ما يفترقون به عن الباقين، وما أَهَّلَهُمْ لِلْوَتَدِيَّةِ في السالكين، وما علاقتهم بالقطب حاضرين وغائبين؟

السادس: وأخبرني عن الإمامين، ماذا يَؤُمَّانِ، وما وصفهما في بني الإنسان، وهل هما مع القطب في ذات المكان، وما يُمَيِّزُ الأول منهم عن الثان؟

السابع: وأخبرني عن رجال التَّوْبَةِ هَلْ لَهُمْ على القطب اختلاف، أَمْ هُمْ في استقلال عنه في الأطراف، وَلِمَ سُمُّوا برجال التوبة حَسَبَ الأعراف، وهل هُمْ في افْتِرَاقٍ أَمْ هُمْ في ائْتِلَافٍ؟

السباعية الرابعة

فإن أخبرتني عن الثالثة حَسِبْتُكِ مِنْ أَفْرَادِ الْهَيْئَةِ، متى تَهَيَّأَتْ لحفظ الاعتدال في العالمين، وإن شئت أن أحسبك أفضل من ذلك، فأخبرني عن الرابعة:

الأول: وأخبرني رعاك الله، عن توبة العارفين، مِمَّ تكون وكيف تكون؟ فإذا كانت توبة العامة من الذنوب لها شروط ثلاثة أو أربعة، فَتَوْبَةُ العارفين مِنْ أَنْ يَأْتُوا ما لا يرضاه علام الغيوب، وشروطها سبعة:

كَمَالُ الأدب في الْحَضَرَاتِ

وسلامة الْخَوَاطِرِ في الْخَطَرَاتِ

ودوام المراقبة في اللَّفَتَاتِ

ولزوم الأقدار في الصَّوْلَاتِ وَالْجَوْلَاتِ

والإيقان بالاستجابة في الدَّعَوَاتِ

وَرَدُّ الْفَضْلِ إلى الله فيما وُفِّقُوا إليه مِنْ طَاعَاتٍ

وَتَرْكُ الطمع في بلوغ الدرجات

الثاني: وأخبرني عن تَوَكُّلِهِم إذا اتَّكَلُوا، أيكون بإتيان الأسباب أم بتركها، سواء أَكْثَرُوا أو أَجْمَلُوا؟ وهل يَتَوَكَّلُونَ بعد إقدامهم على ما عليه عَوَّلُوا، أَمْ يشتغلون بانتظار ما سَأَلُوا، أم يخشون أن ينشغلوا بالانتظار بعدما حَمَلُوا، وإذا تركوا الاشتغال فَبِمَ انشغلوا؟

الثالث: وأخبرني عن التَّسْلِيمِ، هل هو الرضا بالمقادير، أَمِ السَّيْرُ وِفْقَ التدابير، وإذا سار العارف كذلك، فكيف يسير، ترى إذا هَمَّ بالأمر يستخير، أَمْ لا يَهُمُّ بشيء في المسير؟

الرابع: وأخبرني عن استواء الْخَنَفَاءِ، هل يَخُصُّ تَسَاوِي الْبَلَاءِ بِالنَّعْمَاءِ، أم كل شيء لَدَيْهِمْ سواء؟

وهل كل شيء يَشْمُلُ جميع ما خلق، أَمْ يَنْحَصِرُ في شؤون الأقدار وَيَنْطَبِقُ؟ وإذا سَرَّهُمْ مِنَ الأقدار ما طَرَقَ، هل يفرحون لِمَا بِالسَّوَابِغِ تَعَلَّقَ؟

وما استواء الأستار في طلوع النهار على قلوب الأحرار؟

وما استواء الذُّرَى بِالثَّرَى في شجون السُّرَى؟

وما استواء الْجَنَاحَيْنِ، في فضاء الْوَصْلِ وَالْبَيْنِ لَدَى الثقلين؟

وما استواء السَّارِينَ، دَارِينَ وَغَيْرَ دَارِينَ فِي الْأَمْرَيْنِ؟

وما استواء العوارف بَعْدَ تَفَاوُتِ المعارف على بِسَاطِ اللطائف؟

وما استواء الأنفاس في رِحَاب الْإِينَاسِ لَدَى الْأَكْيَاسِ؟

وما استواء الْحَذْوِ في الْأَنَا وَالْهُوْ بِتَرْكِ لَيْتَ وَلَوْ؟

ومتى استوى الْمُسْتَوِي هل أَدْرَكَ رُشْدَ الْمُنْضَوِي، أَمْ لا زال لم يَنْضَوِ، وإذا انْضَوَى متى يَكْتَوِي، وإذا اكْتَوَى، هل يَظْمَأُ أم يَرْتَوِي، وإذا ظمأ هل يَرْعَوِي، وإذا ارتوى، هل يفرح السَّوِيُّ؟

الخامس: وأخبرني عن فنائهم في الباقي، هل يَبْقَوْنَ في انْضِوَائِهِمْ أم لا يبقى منهم بَاقٍ؟ وَمَنْ بَقِيَ، هل يَلْحَقُ بالبواقي، ومن فَنِيَ، كيف يكون جَمْعاً وهو في افْتِرَاقِ، وهل يناجي ربه عند التَّلَاقِي، أم يَنْمَحِي في الجلال ويبقى في اشتياق؟

فإذا بَقُوا مُنْضَوِينَ، تُرَى يكون ذاك حتى حين، أم لا رِجْعَةَ لَهُمْ في الراجعين؟

وإذا لم يَبْقَوْا، هل يكون ذلك بشهود أو بغيبة، وإذا شَهِدُوا ما يشهدون؟ وإذا غابوا كيف يغيبون؟

وَمَنْ بَقِيَ وَيَلْحَقُ بِالْبَوَاقِي، هل يخبرهم عن فَنَاهُ، وَيُطْلِعُهُمْ عَمَّا رآه، أم يكتم ما اعتراه؟

أما جَمْعُ الفاني في افتراق، ففيه سِرُّ وَحْدَةِ الْخَلَّاقِ، واختصاصه بالألوهية، عند الْجَمْعِ وَالتَّلَاقِي، ولزوم العبد عبوديته بعد الْإِبَاقِ

وإذا ناجى الفاني ربه، هل يسأله أم يدعوه أم يُسَبِّحُهُ وَيُثْنِي عليه؟

وإذا امَّحَى في الجلال، هل بقاؤه بالاشتياق يَنْقُصُ مِنْ فَنَاهُ، أم لا يناجي إلا وهو مشتاق إلى مولاه؟

وَمَنْ فَنِيَ وَانْضَوَى حتى حين، هل يبقى حاضرا في الفانين، أم غائبا في الباقين، وكيف يكون الحين، أياما أم شهورا أم سنين؟

وَمَنْ لَمْ يَرْجِعْ، هل يبقى في العالمين وَاعِياً، ويكون لهم مُوَافِياً، أم يَنْزَاحُ عنهم نائياً؟

وإذا لم يبقوا، هل غادروا البقاء، حين شهدوا أم حين غابوا؟

فإن قلت: حين شهدوا، اعتبرت البقاء غيبة، وإن قلت: حين غابوا، اعتبرته شهودا

فأخبرني ماذا تعتبر، وأطلعني عن الخبر، إن كنت منهم، وإلا فاسكت واعتبر؟

وأما ما يشهدون، فهو به فيه

وأما ما يغيبون، فهو به عنهم. فتدبر

السادس: وأخبرني عن زوال الهائمين، هل يكون مَحْواً مِنَ الْكَوْنَيْنِ، أم بإزاحتهم عن العالمين، وكيف يزولون بالله ويكون زوالهم بقاء؟ وكيف ينزلون على الله ويكون نُزُولُهُمُ اغْتِبَاقاً؟ وكيف يَزِلُّونَ إلى الله وتكون زَلَّتُهُمُ اتِّفَاقاً؟

وهل يَعْقِلُ مَنْ زال مِنْ أموره ما نَسِيَ، أَمْ عَقْلُهُ مِنَ الْمُحَالِ بَعْدَمَا مُحِيَ؟

وهل يَعْقِلُ مَنْ زال مِنْ أموره ما رَاحَ، أَمْ عَقْلُهُ اسْتَحَالَ بعدما انْزَاحَ؟

وإذا ذاب الزائل، هل تنقطع نجواه، أم يتلذذ بانبهاره في مولاه، أم تُرْفَعُ عنه الأقلام حتى يلقاه؟

وما بقاء الزائلين، إن زالوا ولم يبق لهم بقاء؟

وما عبوديتهم إن حالوا وغادرهم الإفضاء؟

وما رِضَاهُمْ إن ذهبوا وَخَانَهُمُ الإباء؟

وما يُرْضِيهِمْ وقد رُدُّوا إلى الابتداء؟

وما قَدَرُهُمْ وقد صَدُّوا عن الأقدار في انطواء؟

وما أمانيهم وقد يئسوا من تَمَنِّي ما يشاء؟

وما بَعْثُهُمْ وقد أشرفوا على العالمين في خفاء؟

السابع: وأخبرني ما حُكْمُ الْمُتَصَرِّفِينَ في تَصَرُّفِهِمْ، وَفِيمَ صَرَفُوهُ؟ هل يَتَصَرَّفُونَ في الدنيا والدين، بما وُهِبُوهُ، أم يَنْصَرِفُونَ عنه، وإذا انصرفوا فقدوه؟

وهل تَصَرُّفُ الزَّائِلِ إثبات، وإلا كيف يَتَصَرَّفُ وقد مات، أم أنه بَعْثٌ نَاقِلٌ للأموات، مِنْ ملكوت التَّوَاكُلِ إلى مُلْكِ الْقُدُرَاتِ؟

وهل يكون نهاية المنازل، أم هو بداية المنازل، وهل يَتْبَعُهُ غَيْرُهُ، أَمْ لَمْ يَبْقَ مَا يُنَازِلُ، أم لا يضاهيه مَنْزِلٌ في الْمُقَابِلِ؟

السباعية الخامسة

فإن أخبرتني عن الرابعة حَسِبْتُكَ مِنْ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ في أحكام سلوك السائرين، وإن شئت أن أحسبك أفضل من ذلك، فأخبرني عن الخامسة:

الأول: وأخبرني رعاك الله عما يَتَنَزَّلُ على العارفين مِنْ أملاك، هل يكون تَنَزُّلُهُ مِنْ عنده تعالى، أو من المعمور أو من السموات والأفلاك؟ وإذا تَنَزَّلَ هل يبقى أو يرجع إلى هناك؟

وكيف يكلمون العارف، يَنْبِسُونَ بِالشِّفَاهِ، أو يُوحُونَ بما أَوْحَاهُ، وهل يكون إيحاؤهم لفظا إذا سمعه أدرك معناه، أو إلهاما متى تَلَقَّاهُ وَعَاهُ؟

وما سِمَةُ عُمَّارِ السموات، كُلُّ سماء، ما وصفها وما وضعها في الطبقات، وَكُلُّ عُمَّارٍ على ما خُلِقُوا لَهُ مِنْ مُهِمَّاتٍ، وما ذِكْرُ عامريها؟ هل يذكرون بالإسم أم بالصفات، أو يسبحون ويحمدون باسم الذات، وهل ذِكْرُهُمْ بلسان واحد أم تضاربت اللغات واللهجات؟ وكيف يذكرون؟ هل ذِكْرُهُمْ باللسان أم بِالْجَنَانِ يكون، أم لا بهذا ولا بذاك، وإنما بدون، وإن يكن الأمر كذلك فكيف يكون؟

وما علامة من خاطبته الأملاك جهارا، هل تخاطبه ليلا أو نهارا، وهل يتبدل حاله بعد الخطاب مرة أو مرارا، وإذا تَبَدَّلَ حاله، هل يزيده التَّبَدُّلُ هيبة ووقارا، أم ينسى نفسه أطوارا؟

ذاك الْمَلَائِكِيُّ السَّامِي، الذي حاول النورانية وهو رُغَامِيٌّ؛ ما وَضْعُهُ بين الناس، وما سِمَتُهُ في الأنام، مخفوض الجناح، يمشي الْهُوَيْنَى ثِبْتُ الأقدام، وإذا خاطبه الجاهلون قال: سلاما

الثاني: وأخبرني ما مَوْضِعُ أملاك العذاب وما الْمُسْتَقَرُّ، هل في السموات في انحجاب، أَمْ في الأرض أو في سَقَرٍ، وهل لهم بأمور الْخَلْقِ صِلَةٌ فيما ذُكِرَ، أم ليس لهم في الخلق نظر، سوى إذا أزفت الآزفة يوم المحشر؟ ما ذِكْرُهُمْ إذا ذَكَرُوا، وما وُقُوفُهُمْ على مَنْ بَطَرُوا، وما موعدهم إذا ما انتظروا؟

وهل لهم وَصْلَةٌ بالأملاك الراحمة، أم لا صِلَةَ بين هؤلاء وأولئك قائمة، وهل الرَّاحِمَةُ تَهْلَكُ إذا ما دَمْدَمَ ربهم وأضحت قاصمة؟

الثالث: وأخبرني عن مصير الملائكة بعد البعث والحساب، إلى الجنة يسيرون أم في الأمر ارتياب، وإذا أُورِدُوهَا هل يخرجون منها لحضرة رب الأرباب، وإذا خرجوا هل يكون ذلك لبعض الأسباب؟

وَمَنْ يَتَلَقَّوْنَ مِنْهُمُ النَّاجِينَ في الجنان، كيف يكونون، كما خلقهم الرحمن، أم في غيره يتمثلون؟ وهل يتمثلون في بني الإنسان أم في صور معرفتها ليست بالإمكان؟

الرابع: وأخبرني عن الزَّمْهَرِيرِ، هل هو القمر المنير، أم هو الْقَرُّ أيها الخبير، أم لا هذا ولا ذاك، وإن كان الأمر كذلك، فكيف تَسْتَنِيرُ؟

وهل يبقى الجِنَانُ كُلَّ يوم على حاله، أم هو في تَغَيُّرٍ وَتَبَدُّلٍ في أحواله، فما سبب تغيره وتبدله واستبداله؟

الخامس: وأخبرني عن الْعَذْرَاءِ إذا رَفَلَتْ في الجِنَانِ، هل يزوجها الباري عز وجل من الرجال أم من الولدان؟ وعن الأعزب من الفتيان، كيف يكون زواجه وبمن يكون الْقِرَانُ، وعمن تزوجت أكثر من واحد في الدنيا، أيهم يواتيها من الخلان، ومن يواتون من النسوان؟

وكيف يكون الصبيان عصافير الجنان، وهل يبقون صبيانا أم يَشِبُّونَ وَيَشِيبُونَ على مَرِّ الزمان؟ وإذا شبوا هل يزوجهم ربهم بالحور أو بالنسوان

السادس: وأخبرني عن الْوِلْدَانِ، هل خُلِقُوا من نور أم من طين كالإنسان، وهل طينهم من الأرض أم من الجنة أخذه الرحمن، وهل هُمْ مُكَلَّفُونَ بخدمة السعداء، أم لهم مَهَامٌّ غير السِّقَايَةِ والإيواء؟

وما نُورُهُمْ إذا هَلَّتْ وُجُوهُهُمْ، وما ظَرْفُهُمْ إذا أَضْحَكُوا المؤمنين وَتَفَكَّهُوا، وهل ينتقلون في الجنان مشيا على الأقدام، أم يطيرون من مقام إلى مقام، وهل يأكلون ويشربون في بعض الأوقات، أم هُمْ كالأملاك خَلَوْا من الشهوات؟ وإذا طَعِمُوا هل يَطْعَمُونَ مع المؤمنين في المأدبات، أم لهم معزل يطعمون فيه في الْعَرَسَاتِ؟

السابع: وأخبرني عن قَاصِرَاتِ الطَّرْفِ أيها الإنسان، هل نورهن كالأملاك في الْغُرْفِ، أم بين الْخَلْقَيْنِ شتان؟

غَضَّتْ فأشرقت شمس الحياء في مُحَيَّاهَا، وَأَبَتْ فزاد الإباء جمالها وبهاها، وَأَذْعَنَتْ في عزة واعتلاء، فَوَاتَتْ أول من رآها؛ كأنها حُلْمٌ في يَقْظَةِ الْوَسْنَانِ؛ تَزَيَّتْ بأثواب أشواقي، تَدَلَّتْ فَنَناً في الأفنان تَمِيدُ في اشتياق، لم يُبْصِرْ بها إنسان، فأنا أول مَنْ تُلَاقِي؛ هَمَسَتْ بِجَرْسٍ مَلَكَ عَلَيَّ إحساسي، وَأَمْسَتْ بلا لُبْسٍ تَمْخُرُ في أنفاسي؛ تُشَاطِرُنِي نَجْوَايَ، وقد وَاتَى حديثها شُجُونِي، كأنها إِيَّايَ، في وَرَعِي وَمُجُونِي؛ تُحِبُّنِي حُبَّ الحبيب الأول، لا تُطِيقُ وِصَالِي، وأحبها حب رَضِيعٍ مُحْوِلٍ، قبل الْفِصَالِ

لكنني بالله عنها في انشغال وَتَفَانٍ، فأنا منها مَأْخُوذٌ ببهاء ليس له مثال في كون من الأكوان. أُعْذُرِينِي حَضْرَاتَةَ ولا تَغَارِي، فما أَحْبَبْتُ سوى مَنْ كَلِفْتِ به مثلي في الجوار، إلا أَنَّ لي سَبْقاً في هواه، قَبْلَ بَعْثِي في تلك الدار

السباعية السادسة

فإن أخبرتني عن الخامسة حسبتك مِمَّنْ عَلَّمَهُمُ الله مِنْ لَدُنِهُ علماً، وكنت من اللَّدُنِيِّينَ، وإن شئت أن أحسبك أفضل من ذلك، فأخبرني عن السادسة:

الأول: وأخبرني رعاك الله عن عَوَارِمِ الطَّيِّ، متى أجاءها الدَّاعِي لم تظلم منه ولم تزد مِنْ شَيْ، تُرَدِّدُهُ على أفئدة في اطِّلَاعٍ إلى ما انبسط لها مِنْ كل مَنْسِيٍّ، أصحابها هَالَهُمْ ما تَوَارَى منهم مما هو إنسي، في ظَوَاهِرَ تَخَالُهَا إذا رأيتها وَاحِدَةً في الْحَيِّ، ذِكْرُهَا متى ذكرتها يُنْسِي؟

واذكر لي من العوارم الأصناف، وإن كنت بها غير عالم فَالْزَمِ الإنصاف، ولا تترامى إلى ما ليس لك به علم في إسراف وإجحاف، فيأتيك منها ما لا تشتهي، وتَضِيقُ عليك الدنيا بما رحبت، وتهوي بك الظنون في اللامنتهي، وَتُحْرَمُ التَّوْبَةَ مُمْعِناً في غَيِّكَ غير حافِلٍ أو مُنْتَهٍ؟

هي الْخَوَالِفُ لا يقوم رَكْبُهَا حتى يَسْتَيْئِسَ الرَّاجُونَ مِنَ الدَّوَالِفِ، إذا طلعت أزعجت كُلَّ ثِبْتٍ، وَحَنَّثَتْ كل حَالِفٍ، تَسْتَرِقُ أبصار الخاشعين، وَتَسْتَرِقُّ عزائم الصابرين، متى فَرَّقَتْ لا تُؤَالِفُ، خَانَهَا التَّآلفُ.

يُرْسِلُهَا مِنْ مَكَامِنِ الأنفاس، ليس إلى كل الناس، وَيُسْبِلُهَا في أَزْمِنَةِ الْبَاسِ، متى رأى أَحْبَابُهُ لِلْبَاسِ شَانَا، حتى لا يعيرونه اهتماما، ويمشوا في البلاء على القياس. مَنْ أصابه منها مُصِيبٌ، اِعْتَرَاهُ الشوق مِنْ غير سلوك إلى الحبيب، لا تفريق بين سالك ومجذوب، كلاهما عندها سواء، أيها اللبيب

فإذا هو بنفسه عن الناس لا يهتدي إلى حال، وإذا ذِكْرَاهُ فيما مضى من أزمان، أضحت بُشْرَاهُ فيما يأتي في الاستقبال من أهوال، أَيَّانَ استوطن شؤون الْمُحَالِ، وَانْفَكَّ بَعْدَ اعتقال، وَعَقَدَ بَعْدَ انْحِلَالٍ، ثم جَابَ الأواصر بغير سَفْرَةٍ وانتقال

الثاني: وأخبرني عن يِلْنُورَ، وقد تَوَلَّى مُكْفَهِراً بعيدا عن المنازل وَالدُّشُورِ، لم يَحْتَمِلْ ما غَشِيَهُ مِنْ نور، فَانْبَرَى يسعى في البوادي، في حَيْرَةٍ وَحُبُورٍ

ما قوله إذا قال يُخَفِّفُ مِنْ هَوْلِ الأحوال، وما فَعَلَ لِأَجْلِ ذاك من الأفعال، وكيف يَعْرِفُ مولاه متى تَعَرَّفَ إليه شديد الْمِحَالِ؟ أَيَعْرِفُهُ بمراسيم الجلال، أم يَعْرِفُهُ إذا تَوَخَّى سبيل الدلال؟ فإن عَرَفَهُ بمراسيم الجلال، ما تُجْدِيهِ معرفته في الْوِجْهَةِ والإقبال؟ وإن عَرَفَهُ بالدلال، كيف يُجْدِيهِ التَّذَلُّلُ في حضرة الهيبة والجلال، وقد تَوَخَّى سبيل الدلال؟

له عندنا صفة مَنْ تَدَاعَتْ منه سابقات مَنْ صَدَقَ، مِنْ غير تَرَدُّدٍ وَكِيَاسَةٍ متى طَرَقَ، يَهِيمُ في الأورفة على حين غِرَّةٍ، ولا يَتَحَقَّقُ، أقمناه نُجَلِّي به الراحمين، وبَلَيْنَاهُ بشدة الدين، وَأَشْرَبْنَاهُ مِنَ الشِّرْبِ الْمَعِينِ. لا يَعْرِفُ عَنَّا غير ما عَرَّفْنَاهُ، ولا يُنْكِرُ مِنَّا إذا أَنْكَرْنَاهُ، أَفْتَيْنَاهُ ثم أَفْنَيْنَاهُ حيث أَلْفَيْنَاهُ، وَأَمَتْنَاهُ يوم أَحْيَيْنَاهُ، وَأَحْيَيْنَاهُ بعدما أَمَتْنَاهُ.

الثالث: وأخبرني عن هوامش الأفنان، ما أقصاها عن بُؤْرَةِ بني الإنسان، ما لهم عليها من سلطان. ما دَخْلُهَا في التنزيل، وما فَضْلُهَا على التاويل، لا يَفْقَهُهَا إلا القليل؟ تَشُدُّ سَارِحَاتِ الحقائق حتى لا تسيح، وَتَرْقُبُ سافلات الحرائق حتى لا تلوح، وَتُؤَازِرُ مَنْ أَمَّلَ في يأسه، وَعَزَمَ على ألا يهدأ ويستريح؟

أخبرني عن مَكَامِنِهَا طَفْرَةً، وَنَبِّئْنِي عن عَوَارِضِهَا ولو مَرَّةً، إذا ألهمك رب القدرة، واذكر لي نوادرها إذا شاعت الأفكار، اَلْكَرَّةَ تِلْوَ الْكَرَّةِ.

وأخبرني، إن حاولت عوالم الأهوال، بما يَهُولُ فيها من أمارات الإذلال. وإن قلت فيها فاحذر القول، فإن الهائلات فَصْلٌ وليست بِالْهَزْلِ. فَكُنْ منها على حذر، وَاسْكُبْ مِنْ زُعَافِهَا ما يكفيك واصطبر، ولا تعجل علينا إن ما أبقيناك هناك، ولا تخش الخطر

هل من خروج لمن عاقرها، وهل من عروج لمن طاولها، لا تنفتح إلا لمن انْدَمَلَ قلبه من القروح، وَتَعَوَّدَ جسمه على الجروح. متى ضَجَّ انْزَاحَ، ومتى حَجَّ لم يلتفت إلى الألواح، ليس له فيما أعددناه مُنْيَةٌ، بَلْ مُنَاهُ في الْكَيِّ، متى تَكَالَبَتْ عليه الصوارم والرماح؟

تُرَاكَ أيها الْمُدَّعِي تَظْفَرُ إذا اطَّلَعْتَ على الجواب؟ أم تُرَاكَ تخسر بما ادَّعَيْتَ على مَنْ عنده علم من الكتاب؟ لا عليك إذا أَقْرَرْتَ بالعجز وطمعت في الثواب

الرابع: وأخبرني عن سِجِّينٍ، وما أدراك ما سِجِّينٌ، وقد أقامه قبل الحين، ينتهي إليه كُلُّ مَن لَفَظَهُ الْعَالَمُونَ، في الدنيا قبل يوم الدين، إذا قال لا يسمعون، وإذا لم يقل لم يسألوه مُتَعَالِينَ

سِجِّينٌ أهملنا في بطنه الْمُهْمِلِينَ، لا نَدَعُهُمْ يتآكلون إذا ما أَصَرُّوا على البقاء، ولا نُوَدِّعُهُمْ إذا عزموا على اللقاء، ولا نُودِعُهُمْ أَمَانَاتٍ في أيدي الأمناء. نَغُرُّ بهم المسرفين، وَنُغَرِّرُ بهم إذا حسبوا أنفسهم من الناجين، من رآهم حسبهم في عِلِّيِّينَ، وَمَنْ عاشرهم أَوْرَثُوهُ ما توارثوا مِنْ ذلة الطين، وإنا بمكرهم لعالمون، ليس لهم حظ في قلوب المذعنين

الخامس: وأخبرني إذا أفضى لك بمن تكون، كيف تكون، وكيف يكون، أهو كما كان، أم ينقشع عنك الزمان وينخسف المكان، وتتلافاك المنون، فلا تعود واحدا في بني الإنسان؟

أتبقى في الْحَيِّزِ لا تَلْوِي على شي؟ أم تُرَاوِحُ ما تَمَيَّزَ وَتَسْرِي في قوافل الْفَيِّ؟ سواء عليك هذا أم ذاك، حَسْبُكَ نواياك إذا أخلصتها ولم تَرْكَنْ لِلْغَيِّ.

السادس: وأخبرني عن غاية الأسباع، وما لها وما عليها، في جميع الأزمنة والبقاع، وكيف تَتَوَحَّدُ في التَّعَدُّدِ، وَتَتَرَكَّبُ دون تَمَدُّدٍ، في الأفئدة والأسماع؟ وإذا عرفت الغاية، فهل غرفت من فيوضات الألطاف والعناية. وإذا اسْتُخْلِصْتَ دون الناس، فهل شَرِبْتَ من الأنفاس؟

فإنك متى عَرَفْتَ تَعَظَّمَ المولى في عَجْزِكَ، وَاسْتَصْغَرْتَ سواه في أَوْجِكَ وَعِزِّكَ

وإنك متى غَرَفْتَ لم تظمأ لغيره، ولم تَسْتَسِغْ خمرا غير خمره

الواقفون على هذي القضايا، جُلُّهُمْ خبايا، والصادعون بهذي النوايا، لا يُصَدِّقُهُمُ البرايا

فإن تسأل عن الرهينة، فاعلم أنها ما فَتِأَتْ في سَرَاحِهَا سجينة؛ وإن تَتَكَاثَرْ بالأحكام، فَاحْتَمِلِ شدة الزحام؛ وإن احْتَمَلْتَ أَوْكَلَكَ إلى بعض الْحُكَّامِ، شَرْعُهُمُ المحبة وَالْهُيَامُ، وَأَقْعَدَكَ على ألسنة الأقسام، لا تُطْلَبُ ولا تُرَامُ، وإن شئت أعادك إلى التَّدَلِّي والانقسام، تَتَوَزَّعُ على الموحدين ولا تَسْأَمُ من الكلام

السابع: وأخبرني كيف يكون الموت في الحياة، وكيف تكون الحياة في الممات، وكيف يكون الحي حيا في كل الأزمنة والأوقات، لا يَحْفَلُ لما فات، ولا يفوته الآت؛ هو عن الزمان في تمنع وانفلات، والزمان عنه لا ينال منه، مهما تآكلت بِمُجْرَيَاتِهِ الفانيات؟

فأما الموت في الحياة، فما هو بموت القلب كما في بعض الآيات، فاعرف ما سألتك إن كنت من أهل الإشارات؛

وأما الحياة في الممات، فما هي حياة القلب، كَمَا حَصَّلْتَ بغير ريب، فَتُبْ عن التحصيل، واقرأ في ألواح الغيب

وأما الحي في جميع الأزمنة والأوقات، فأخبرني لِمَ حَكَمَ الباقي ببقائه، وما أَمْرُهُ في الخلائق بعد انتقائه، وما شأنه بالسافلات بعد ارتقائه. وَأَيُّ الدولتين تستوي به على المداولة، إذا طالعها بغير التقاء ومقابلة، وَتَسَنَّى لها بإذن الرحمن تصحيح البدء عند المحاولة. ذاك الذي يَحْيَى في الموت، يُزَاوِلُ ما حَيِيَ في ائتلاف، لا حياة سوى بالموت، ولا وحدة بغير تَعَدُّدٍ واختلاف، سواء تَبَدَّلَ في الدهور، بَاقٍ والدهر في انصراف، إلا ما شاء الله، هو أعلم بمن أبقى وبمن أفنى، بَادٍ وَخَافٍ، عِنَايَاتٌ وَأَلْطَافٌ، فافهم ما أَهِيجُ به، وَخُضْ عَرْضَ البحر بغير شراع ولا مجداف، وَارْبَأْ بنفسك عن الإشراف والاستشراف، لاتُزَاوِلُ الحواشي والأطراف

السباعية السابعة

فإن أخبرتني عن السادسة حسبتك مِمَّنْ تَطَبَّعَتْ نفوسهم بطبائع الأرواح، بعدما خَلَصُوا إلى بَرَاحٍ، وَكُنْتَ من الشاهدين، وإن شئت أن أحسبك أفضل من ذلك، فأخبرني عن السابعة:

الأول: وأخبرني رعاك الله عن مهبط الأنفاس، يَنْفَحُ بها الرحمن أَحِبَّتَهُ مِنْ بَيْنِ الناس، هل يكون هبوطها مِنْ مَعَاقِلِ التَّوَلِّي حِرْصًا على البشارة، أَمْ يكون مِنْ مَحَافِلِ التَّمَلِّي تأتي كالإشارة، أم يَدْخُلُ في وسائل التفصيل لِمَا هو كُلِّيٌّ من مفاهيم الحيارى؟

فإن كان هبوطها من معاقل التولي، فكيف تنساب على الأحباب، وهل تستسيغها الأفئدة والألباب، وهل يكون مُتَلَقِّيهَا حاضرا أَمْ يكون في تَلَاشٍ وغياب؟

وإن كان من محافل التملي، فَمَنْ أَهْلُهَا من المقربين، وما منزلتهم في منازل أهل التَّمْكِينِ، وما تُشِيرُ به إليهم من أمارات الرِّضْوَانِ حتى يكونوا راضين؟

وإن كان يدخل في وسائل التفصيل فيما هو كُلِّيٌّ مِنْ مفاهيم الْحَيَارَى، فَعَرِّفِ الْكُلِّيَّ بالعبارة، وقل لي، عُفِيتَ، كيف يكون التفصيل، ولمن يكون، إن شَهِدْتَ جَزَّهُ وَانْشِطَارَهُ؟

واذكر لي كيف تَتَنَوَّعُ الأنفاس حسب المتلقين

فإما أن يكون الْمُتَلَقِّي من أهل الرغبة، فلا تغشاه إلا عند القربة؛ فأخبرني كيف يمسي لَمَّا تغشاه، وهل تزيده قربة إلى قربه، ومتى يَحْظَى بأرقى منها ما لم يفرح بما آتاه مولاه؟

وإما أن يكون الْمُتَلَقِّي من أهل الأذكار، فلا تغشاه إلا عند الأسحار، وتغادره في النهار؛ فأخبرني عَمَّا تُحَفِّزُهُ من سجايا الأبرار، وما يُعْوِزُهُ لكي يُضَاهِيَ قوما اقْتَصَرُوا في ذكرهم على الذِّكْرَى وَالِادِّكَارِ؟

وإما أن يكون الْمُتَلَقِّي من أهل الجذب، فتغشاه متى انْتَشَى وَطَرِبَ، وَتُفْلِتُهُ متى تَوَلَّى عن الرب؛ فأخبرني هل تزيد في جذبه واضطرابه، أم تَسْكُنُ أوصاله ولا يزيغ عن انصبابه، أَمْ يَحَارُ في أمره ولا يدري بِمُصَابِهِ؟

وإما أن يكون الْمُتَلَقِّي من أهل الفناء، فتغشاه متى يشاء؛ فأخبرني هل يزول عن الأرض والسماء، أم يبقى فانيا ولا يزيد في الارتقاء، يظن نفسه شارف على الانتهاء؟

وإما أن يكون الْمُتَلَقِّي من أهل الزوال، فكيف يلقاها وهو بربه في وَصْلَةٍ واتصال، تُرَاهُ واحد وإياها، يزيد بها في التَّلَاشِي وَالِانْحِلَالِ، أَمْ تراها إذا هَبَّتْ عن مولاها، أَخَذَتْ بِرَوْعِهِ فلا يقوى على الاحتمال؟

وإما أن يكون الْمُتَلَقِّي من أهل الله، الْمُفْرَدِينَ، أحباب الْوَلِيِّ الْمُوَلَّهِينَ، هُمْ في أنفاسه أنفاس، لا تغشاهم أنفاسه كما تغشى الناس، وإنما يَسْتَجْمِعُونَ بها إذا جَمَعَتْهُمْ ما تَعَارَفُوا عليه مِنْ حيرة وَالْتِبَاسٍ، تُزْعِجُهُمْ مِنْ هَوْلِ ما تَحْمِلُ مِنْ لَهْفَةِ الانطلاق وَالِانْحِبَاسِ؟

الثاني: وأخبرني عن الْمُسْتَوْلِي في غُضُونٍ، كيف يستولي إلى حين، إذا تَلَاهُ غيره في أمور الإعراب وَالتَّسْكِينِ؟

كيف يكون وكيف تكون، وما شأنه بقضايا العارفين، وهل يعلم أنه من أهل التصريف، أم يباشره من غير تكليف، وإن كنت تعرف وقت مَنِ اسْتَوْلَى، فأخبرني قبل أن تَتَوَلَّى عن مدة استغراقه، وهل يستوي وقته بوقت رفقائه، أَمْ كُلٌّ حَكَمَ الباري بامتيازه وافتراقه؟

وهل الْمُسْتَوْلُونَ يمشون في ولايتهم على التَّنَاوُبِ، أم يتقابلون في أدوارهم ليس على التَّرَاتُبِ؟

وما خَطْبُ الْمُسْتَوْلِي إذا أَزِفَتِ آزفة الواصلين، وما حَظُّهُ في حضراتهم حاضرين وغائبين، متى أَذِنَ المولى بانكشافهم على الأسرار، وأذن مؤذن: أيها الأحباب هنيئا لكم بما أوتيتم، إن ربكم الواحد القهار؟

يَتَقَدَّمُ إليهم بما تَفْرِضُهُ آداب الاستقبال، وَيُذَكِّرُهُمْ بمراسيم الجلال، وَيُوحِي إليهم متى غَالَوْا، بمعاني الاعتدال؟

هل يكلمهم إذا أَوْلَوْا أمرهم إلى مولاهم، وَاخْتَلَوْا عن غيرهم يَكْتُمُونَ ما اعْتَرَاهُمْ؛ وإن كَلَّمَهُمْ كيف يكون الكلام، أبالسؤال أم بالتعجب والاستفهام؟

وهل يرونه إذا كلمهم، ويعرفونه إذا علمهم؟

وإن رأوه كيف تكون رؤياهم، وإن عرفوه فما شأنه وإياهم؟

الثالث: وأخبرني عن عِبَادِ الله في الْخَافِينَ، يَتَصَرَّفُونَ بأمره بالخير والشر في العالمين، وِفْقَ ما اقتضاه قبل الخلق والتكوين، في كثير من الأمر، لا يُبَالُونَ بما فاتهم أَنْ كانوا من الباقين؟

ما أصنافهم إن كنت بهم على دراية، وما أعرافهم في الهداية والغواية، وفيما انصرافهم عن أنفسهم وإقبالهم على الرعاية، بعيدا عن الشهرة والدعاية؟

فَأَنَّى لك أن تعرفهم، وقد طَوَاهُمْ في رداء العز وَشَرَّفَهُمْ، وَمَحَاهُمْ مِنْ دواوين الأمجاد فيما صَرَفَهُمْ؟ فَمَهْمَا وقفت على موقف لم تدرك فيما أَوْقَفَهُمْ

فهل كلهم أحياء يرزقون، أم فيهم نفوس الموتى تتصرف بعد المنون، أم هؤلاء وأولئك متى حَيَوْا لا يموتون؟

فالصنف الأول الْمُلْهَمُونَ، يرحمون الناس ويبكون، يُهْلِكُونَ بالقوة وَالْبَاسِ كُلَّ مُعْتَدٍ على الأنام مفتون

والصنف الثاني طَالَتْ منهم الأيادي، واشتغلوا بالأحباب والأعادي، لا يُعْجِزُهُمُ الْكَفُّ وَالتَّمَادِي

والصنف الثالث وَقَفُوا على جَرَيَانِ الأحكام، وحافظوا على الالتزام، لا يَتَصَرَّفُونَ على التَّمَامِ

والصنف الرابع انْصَرَفُوا إلى الأقطار، وَتَفَقَّدُوا عَرْضَ البحار، يَحْرُسُونَ الرسوم والديار

والصنف الخامس اشتغلوا بانكفاف الأرضين عن بعضها، كل ساكنة لا تخرج عن أرضها، إلا إذا أَذِنَ المولى بإخراجها وعرضها

والصنف السادس يَعْبُرُونَ العوالم، ويشتغلون بانفصالها عند التَّمَاسِّ وَالتَّصَادُمِ، وَيَخْرُجُونَ بما فيها على أهل الصبر والعزائم

والصنف السابع يتلقون عن الله ما يقولون وما يفعلون، ويستغرقون في نجواه حين يفرغون، لا يعرفون سواه، وبالأديان لا يدينون

الرابع: وأخبرني عن لَيْلَةِ الْأَنْوَاءِ، كيف تَخْتَلِفُ على الساهرين في الأنباء، تَتَضَارَبُ وهي سَوَاءٌ، وَتَتَفَارَقُ في اسْتِوَاءٍ، تَحْسِبُهَا متى عَصَفَتْ بِخُلْدِكَ واحدة، وهي تَتَعَدَّدُ على حَسَبِ ما يشاء، وَتَحْسِبُهَا مُتَعَدِّدَةً، وقد تَوَحَّدَتْ على السَّوَاءِ؟

ما لَنَا أيها الْمُدَّعِي فيها من أخبار، وما تَأَدُّبُنَا فيها قبل أن يطلع النهار، وما دَأْبُنَا في النَّدَامَى إذا الْكَاسُ دار؟

أَنَحْمِلُهُمْ على السُّكْرِ جِهَاراً، أَمْ نُحِيلُ ليلهم نهارا، أَمْ نُفْنِيهِمْ عَنْهُمْ وَهُمْ سُكَارَى؟

لَيْلَةُ الأنواء تَرْتَجِفُ فيها الأفئدة، وَتَتَهَاوَى الأعمدة، لا يَغْشَى ظَلَامُهَا مَنْ في قلبه مثقال ذرة مِنْ مُوجِدَةٍ على مَنْ أَوْجَدَهُ

أهل الأنواء الرَّاضُونَ بالبلاء، الرَّاضُّونَ أماني نفوسهم بالصبر والرجاء، لا يعرفون البغض والجفاء، ولا يعرفهم من الناس مَنْ يُنْزِلُهُمْ منزلة الأمراء، لا يَأْبَهُونَ لِلسَّوَاكِبِ إذا سَالَتْ على الرزايا والمصائب، ولا تَبْهَتُهُمُ الدرجات والمراتب، ولا يَبْهَرُهُمْ أحد الفريقين إذا كان هو الغالب؛ هُمْ في حالهم لا يَحْفَلُونَ بما حَوْلَهُمْ، ولا يَأْبَهُونَ بِمَا خَوَّلَهُمْ، لا يُجَادِلُونَ مولاهم فيما أَوْلَاهُمْ

الخامس: وأخبرني عَمَّا يَسْتَوْجِبُه الكتاب، إذا انقضى أَجَلُ الْإِمْهَالِ دون ارتياب، متى حار الْمُمْعِنُ فيما كُتِبَ له وارتاب، فلم يَدْرِ ما الصواب؟

أَيَكُونُ الإمهال بِتَرْكِ السائبات تُغَالِبُ الثوابت بالعرائض، أَمْ يكون بالمكر والإملاء في السائبات، متى حَسِبَتْ نفسها تُحَارِبُ الْبَوَاغِتَ وَتُعَارِضُ؟

فإن كان بِالْأُولَى، فما وَقْعُهُ في نفوس أهل الإرجاء، وإن كان بالثانية فكيف يكون الإجراء؟

وما صَوْلَةُ الْحِينِ قبل يوم الدين، إن كنت أيها الْفَتَى مِنَ العارفين؟

هل يُعَاوِدُ الْأَحْيَاءَ قَبْلَ موتهم، أَمْ يُرَاوِدُ الأموات قبل بعثهم، أم يَبْتَغِي بين هؤلاء وأولئك سبيلا؛ فإن كان كذلك، فهل تَجِدُ له في تصاريف الحوادث دليلا، وإن قام لديك الدليل، فما وقوفك على التنزيل، أليس لك فيما عَرَفْتَ سَرَاحٌ من العلائق، وَانْسِرَاحٌ بأسارير الحقائق؟

فلا تَبْتَهِجْ بنشوة الإدراك، ولا تَرْكَنْ رعاك الله لِمَا اعْتَرَاكَ، فإنك لست الفاني، حتى تَقْبَلْ بِهَذِي التَّهَانِي، وإنما انزل عن الفرح والسرور، وَارْقَ عن الويل والثبور، حتى لا تَتَصَابَى وقد بَلَغْتَ من الْكِبَرِ عِتِياً، وحتى لا تُكْرَمَ وَتُحَابَى فتقول: يا ليتني مِتُّ قبل هذا وكنت نسيا منسيا

السادس: وأخبرني عن موقع الكون في متاهات الكاشفين، ما هو إلا أَيْنٌ حيث لا أَيْنَ، أنشأه بغير تكوين، يُتَصَوَّرُ لمن خاتم الصواب في العين، ويتراءى لخاصته سبحانه، وَهْماً إذا كانوا من المبصرين؟

فما مَسَارُ زمانه في خلاء الأزمان، وما انهياره في اشتداد الأوان، وما عَمَارُهُ في خراب الإمكان، وفي أي كون يعيش مَنِ انْزَاحَ عن كون العالمين، وأي زمان يَحْكُمُهُ إذا أَفْلَتَ من قبضة الأيام والشهور والسنين؟

أولئك أهل الإنْفِصَامِ، تَرَدَّدَتْ عليهم النَّقَائِضُ، فُصِلُوا قبل الْفِطَامِ، وَاسْتَعْصَوْا على الفرائض، تَحْسِبُهُمْ في الوجود، وَتُبَادِلُهُمْ ما يَسْتَلْزِمُهُ القعود، فيتظاهرون بما تريد، أَسَاوِرُهُمُ القيود، وأعمارهم لا تزيد، فإن لَاقَيْتَ أحدا منهم أَرْبَكَكَ التَّجْرِيدُ، وَدَاخَلَكَ مِنْ حاله ما لا تريد؟

السابع: وأخبرني عن الكتاب، وهو ثلاث: الأول خُصَّ بالاكتتاب، وهو ما أنزله الباري عز وجل على رسله وأنبيائه، وَحْياً عن طريق جبريل من حكيم وهاب، والثاني دستور ما قضى وَقَدَّرَ، وَحَكَمَ وَدَبَّرَ، في العالمين والأكوان، ما تقدم وتأخر، إلى يوم الحساب

والثالث أُمُّ الكتاب، هو مِنْ أَمْرِ رب الأرباب

فأخبرني كيف امْتَازَ أُمُّ الكتاب عن الكتاب، وهل شَمَلَ الأول الثاني، وما زاد عليه حتى يَتَقَدَّمَ في العنوان، وهل هُمَا في الغيب سَيَّانِ، وَأَيُّهُمَا يُطْلِعُ المولى على بعضه مَنْ شاء من بني الإنسان؟

أُمُّ الكتاب يُرَاوِحُ بين البدء والنهاية، في عَرْضِ ما تَنَزَّلَ به جبريل، ليس له غاية، لا يَرُدُّ قَضَاءَ ما حَكَمَ بانقضائه التفصيل حسب الرواية، يَتَمَدَّدُ على التأويل، وَيَنْقَبِضُ على الحدود والزوايا، ليس بالفصل في الأمور، كما فصلنا لأحبابنا في الكتاب المسطور

وأي كتاب رعاك الله، عَنِيَ الرحمن بقوله: **قال الذي عنده علم من الكتاب**، أهو المنشور أم المسطور، أم الكتاب، إن ما الْتَبَسَتْ عليك الأمور؟

وكيف يكون له عِلْمٌ مِنَ الكتاب؟ أَبِالتَّلَقِّي أَمْ بِالْإِلْهَامِ، وهل اختص به وحده بين الأنام؟

فإن اخْتَصَّ ما خَصَّصَهُ، وإن لم يَخْتَصْ فكيف يكون لك عِلْمٌ مِنَ الكتاب، أَبِالْكَرَامَةِ إن اصطفاك الباري، أم بالاستقامة ومراعاة الحكم الجاري؟

فإن أخبرتني عن السابعة حسبتك من خاصة المولى، صيارفة الأهلية في الترقي، وحكماء الإيحاء والتلقي

فاعرف فضل الله عليك وما والاك، واكتم أمرك عن أهلك وأصحابك ومن والاك، فبذلك تلزم ما أوقفك فيه مولاك

فصل في المواقف والمخاطبات

أَوْقَفَنِي مَوْقِفَ الاضطرار بعدما سُدَّتْ في وَجْهِي جميع الأبواب، فلما سألته أجاب، ولما دعوته استجاب وَتَجَلَّى إلي بما أجابني برحمته التي وسعت كل ذنوبي وأوزاري، وبما شملني بحلمه الذي ذاب فيه تعنتي إصراري فما عدت بعدها أدعو سواه، ولا أستشرف غير رضاه

أنا ذاك الجاني الذي جَحَدَ فضل مولاه عليه، وطاف يُبَجِّلُ مَنْ لا يملك له نفعا ولا ضرا

فلما نبذه أولئك الذين حسبهم أنصارا، وتبرأت منه الأكوان، أن تولى عن مولاه وولى إلى كل من فتنته نفسه وشغله تراثه عن شكر سيده، والاعتراف بما أنعم عليه من آلاء

لما كان كل ذلك، عاد إلى ربه ذليلا، لا يقوى على النظر إليه استحياء منه، بعد أن لجأ إلى غيره فخذلوه لكن ربه قابله بالبشاشة والرضا، وفرح بعودته إليه، أشد مما تفرح الأم الرؤوم بعودة وليدها إليها بعد فقده واليأس من العثور عليه، وقال لي: عبدي لا تقصد سوانا بعد اليوم، فإني لا أتحمل أن يردك أحد وأنت عبدي.

يقول أبو الفتح الجعفي عفا الله عنه: تعارف زمرة من أقطاب التصوف، أمثال النفري والسهروردي وابن عربي وغيرهم رحمهم الله تعالى، على كتابة ما ادَّعَوْا أنه تعالى خاطبهم به وخاطبوه، على شكل مخاطبات ومكاشفات وقد فهم البعض مما كتبوه، أنهم خرجوا عن الشرع وادعوا ما ليس لهم، وما لا يكون إلا للأنبياء والمرسلين. وقد أسلفنا أيها القارئ العزيز، ذِكْرَ ما ثبت في القرآن والسنة من إمكان إيحاء الله تعالى لغير الأنبياء والمرسلين صلواته تعالى وسلامه عليهم أجمعين، وما شهدت به السنة من وجود مُحَدَّثِينَ في أُمَّةِ رسول الله ﷺ، فلا يجوز أن نُنْكِرَ على صالحي الأمة هذه المخاطبات، سوى إن كان فيها ما يخالف الكتاب والسنة

فإذا قال أحدهم: قال لي كذا وكذا، وَقَصَدَ بالقائل رَبَّهُ سبحانه وتعالى، وكان ما ادَّعَى أن الله قال له، جَارِياً معناه في الكتاب والسنة، فلا حرج عليه

فقد يقول أحد العامة: قال لنا الله تعالى: صلوا وصوموا ولا تطمعوا في الجنة تدخلونها بأعمالكم، وإنما يكون ذلك برحمتي

إذا قال العامي هذا الكلام، فلا من معترض عليه، ولو أن لفظ كلامه لم يثبت في الكتاب والسنة كما قاله، فما بَالُنَا نعترض على مَنْ هُمْ أتقى منه وأعلم؟

وَكَثِيرٌ من هذه المخاطبات تدخل في إطار المواعظ، لأنها تتضمن توجيها وجدانيا إلى التعرف إلى الله تعالى، وتنطق بما نطق به القرآن الكريم والسنة المطهرة، في سياق بديع يأخذ بِلُبِّ المستمع أو القارئ، وَيُخَالِجُ خُلْدَهُ، ويزيد في إيمانه، ويقربه إلى مولاه

وَمِنْ شِدَّةِ ما قرأنا ما كتبوا وتأثرنا به أَيَّمَا تأثر، جزاهم الله عنا وعن أمة رسول الله ﷺ كل خير، مِنْ شِدَّةِ ذلك، حاكيناهم فيما كتبوا، ووضعنا مخاطبات متواضعة رأينا أن نسميها بالمخاطرات بدل المخاطبات، لأن الخاطر الرباني يمكن أن يكون لكل عباد الله تعالى، وبهذه التسمية تكون أقرب إلى حقيقة استقائها وعرضها. عسى الله تعالى أن ينفع بها كل من ألقى السمع وهو شهيد، لا إلا هو رب العرش العظيم.

مخاطرات أبي الفتح

الأولى: قال لي ربي لما خاطرني: أَبْدَعْتُكَ لِلْبَرِيَّةِ وَأَوْدَعْتُ فيك ما به أُعْرَفُ، غَيْرَ أَنِّيَ أَبْدَيْتُ مِنْكَ للعارفين ما خَفِيَ مِنِّي، وَأَخْفَيْتُ مِنْكَ على الْمُتَشَرِّعِينَ ما ظَهَرْتُ به على الْمُحَقِّقِينَ

الثانية: وقال لي: أَخْلَصْتُكَ لنفسي، فَخَلَصَتْ لك قلوب الْوَالِهِينَ تُقَلِّبُهَا كَيْفَ شِئْتَ، وَمَنِ استعصى عليك قَلْبُهُ، فاعلم أننا صَرَفْنَاهُ عنك لأن فيه بَقِيَّةُ كِبْرِيَاءٍ، ولا يَنَالُ رَحْمَتِيَ الْمُتَكَبِّرُونَ

الثالثة: وقال لي: لَنْ تكون أَرْحَمَ مِنِّي، لأنني أنا الرحمن الرحيم، فإن رأيت مِنَ الْخَلْقِ ما لم أَرْحَمْهُ، فاعلم أنني رَحِمْتُهُ مِنْ حيث لم أرحمه، وَأَمَّا رَحْمَتُكَ، فَمَهْمَا وَسِعَتْ مِنْ شَيْءٍ نَقَصَتْ، حتى لا يَرْحَمَ غَيْرِي ما خَلَقْتُ

الرابعة: وقال لي: ما خِفْتَ ذنبك إلا زِدْتَ انقباضا، وما أَعْجَبَتْكَ حَسَنَاتُكَ إلا زِدْتَ انبساطا، فما ذَنْبُكَ خَيْرٌ مِنْ طاعتك، ولا طَاعَتُكَ خَيْرٌ مِنْ ذَنْبِكَ، وَإِنَّمَا الْخَيْرُ في أن تُذْنِبَ دون إِصْرَارٍ، وَتُطِيعَ مِنْ غَيْرِ اقْتِصَارٍ، حتى لا تكون غير أنت، فلا تَعْرِفَنِي على أَنَّنِي أنا الله

الخامسة: وقال لي: فَرِحْتَ لِمَنْ لم يَعْرِفْ قَدْرَكَ، وكفاك ما عَرَفَت ملائكتي، فَدَرَأْتَ الشُّهْرَةَ بِالِاشْتِهَارِ؛ حَسْبُكَ ما عَرَفْتُ لَكَ مِنْ فَضْلِي عليك، ولا تَظْهَرْ على ملائكتي بما تَفَضَّلْتُ به عليك فَتَرْدَى

السادسة: وقال لي: أنت أَوْحَدُ زمانك، ولست أَكْرَمَ الناس على الله، ولو كُنْتَ أتقاهم ما تَفَرَّدْتَ، وإنما تَفَرُّدُكَ في تقواك وفجورك، ولولا تقواك ما فَجَرْتَ، ولولا فجورك ما اتَّقَيْتَ، فما أَقْرَبَكَ مِنْ رِضَايَ، وما أَقْرَبَكَ مِنْ غَضَبِي، ومتى أَرْضَيْتُكَ غَضِبْتَ، ومتى أَغْضَبْتُكَ رَضِيتَ، ولولا ذلك ما اتَّخَذْتُكَ خَلِيلاً

السابعة: وقال لي: متى اكْتَفَيْتَ أَحْوَجْتُكَ إلى الناس، ومتى افْتَقَرْتَ أَحْوَجْتُكَ إِلَيَّ، فَإِنْ أَعْجَبَكَ اكتفاؤك أَخْرَجْتُكَ تَتَكَفَّفُ الناس، وَإِنْ بَرِمْتَ بِفَقْرِكَ اشْتَقْتَ فيه إلى احْتِيَاجِكَ إِلَيَّ، أخاف إذا أغنيتك أن تنسى مَنْ أَحْوَجْتُهُ إليك وَتَنْسَانِي

الثامنة: وقال لي: سَأَرْزُقُ بك الناس وأقضي حوائجهم، متى رَزَقُوكَ وقضوا حوائجك؛ ومتى مَنَعُوكَ مَنَعْتُهُمْ، ومتى خَذَلُوكَ خَذَلْتُهُمْ، فَمَنْ لي إذا أَغْنَيْتُكَ عنهم أُعْطِي به وَأَمْنَعُ، وَأُعِزُّ وَأُذِلُّ، ما يُضِيرُكَ وَأَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي؟

التاسعة: وقال لي: ما سَأَلْتَ إلا أَجَبْنَاكَ، وما اسْتَنْصَرْتَ إلا نَصَرْنَاكَ، وما اسْتَعَذْتَ إلا أَعَذْنَاكَ، وما سَأَلَ الناس وَأَجَبْتَ، اِسْتَنْصَرُوا وَنَصَرْتَ، اِسْتَعَاذُوا وَأَعَذْتَ، فلا تَبْتَئِسْ إذا خَذَلْنَاكَ مرة بعد مرة، حتى تَعْرِفَ شريعة الخِذْلَانِ، فلا تَخْذِلْ بَعْدَهَا أَحداً

العاشرة: وقال لي: عَزَفْتَ على أوتار القلوب، فَأَطْرَبْتَ كُلَّ مَكْرُوبٍ؛ أنا مَنْ دَلَلْتُكَ على مَقَاتِلِ أوليائي حتى أَحْيَيْتَ منهم بالقتل ما عَجَزَ عنه الرَّاقِي، فلا تَعْزِفْ سوى على قلوب خَاوِيَةٍ مِنْ غيري، فإنك متى عَزَفْتَ على العامرة لم يَكُنْ لها رَنِينٌ

الحادية عشرة: وقال لي: لا تَطْمَعْ في الْبِشَارَةِ ولا تَخَفْ مِنَ الشَّرَارَةِ، فما لذلك خَلَقْتُكَ، وإنما خَلَقْتُكَ لِمُنَاجَاتِي، فَإِنْ بَشَّرْتُكَ لم تَعُدْ شَقِياً، وَإِنْ أَخَفْتُكَ لم تَعُدْ نَجِياً؛ أنا مَنْ أَيْأَسْتُكَ مِنْ هذه وتلك فلم تَعُدْ فيك بَقِيَّةٌ، فلما اسْتَيْأَسُوا منه خَلَصُوا نَجِياً

الثانية عشرة: وقال لي: لا تُبَالِ بِمَنِ احْتَقَرَكَ، فمهما احْتَقَرُوكَ عَظُمْتَ، ومهما عَظَّمُوكَ صَغُرْتَ وَهُنْتَ، لو عَظَّمَكَ الناس جميعا كنت عندنا حَقِيراً، مُحَالٌ أن يَعْرِفَ الناس عبادي فَيُعَظِّمُوهُمْ جميعا، عبادي لم يَصْغُرُوا في عيني حتى أَفْضَحَهُمْ عند الناس، أنا مَنْ أَظْهَرْتُكَ صغيرا في أعين أَهْلِ الصَّغَارِ حتى أَخْفِضَهُمْ بك، وأنا مَنْ أَظْهَرْتُكَ كبيرا في أعين أَهْلِ المرحمة حتى أَرْفَعَهُمْ بك؛ فلا تَعْتَرِضْ على ما أَظْهَرْتُكَ في أعين الْخَلْقِ، لأنك عبدي والْخَلْقُ خَلْقِي، أَفْعَلُ بك وبهم ما أَشَاءُ

الثالثة عشرة: وقال لي: لا تَرَ لنفسك فَضْلاً على الناس فَأَخْفِضَكَ، لولا خِدْمَتُكَ للناس ما الْتَفَتُّ إليك، فَاحْقِرْ نفسك وَاعْرِفْ فَضْلَ الناس عليك؛ قد أَغْفِرُ ذنوبك مهما تَعَاظَمَتْ، ما لا يَغْفِرُهُ صيام ولا قيام، ولكن بابتسامة في وَجْهِ رجل عَبَسَ في وَجْهِكَ

الرابعة عشرة: وقال لي: إذا شَكَوْتَ مِنْ قِلَّةِ يَدٍ، فقد كَثُرَتْ أياديك على الناس، وإذا شَكَوْتَ مِنْ ضَيْقِ مَسْكَنٍ، فالأرض مَسْكَنُكَ، لا يَحْبِسُكَ عن سهولها وَوِهَادِهَا أَحَدٌ، وإذا شَكَوْتَ مِنْ قِلَّةِ سَفَرٍ، فالأرض تُسَافِرُ بك حيث تدري ولا تدري، فلا تَشْكُو مِنْ شيء غير قائم، ولا تَسْأَلْ شيئا وهو عندك، وقل: رَبِّ وَفِّقْنِي لِأَشْكُرَكَ على ما أَنْعَمْتَ به عَلَيَّ حتى لا أَكُونَ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِياً

الخامسة عشرة: وقال لي: نَظَرْتَ في مُلْكِي فرأيت الكريم مُهَاناً، وَرَأَيْتَ اللَّئِيمَ مُهَاباً، وَرَأَيْتَ الفاجر غَنِياً، وَرَأَيْتَ المؤمن فَقِيراً، فلم تَفْهَمْ، وَسَلَّمْتَ تَسْلِيماً

لو عَرَفْتَ معنى الْمَهَانَةِ والْكَرَامَةِ والغنى والفقر لَرَأَيْتَ كُلَّ شيء في مَحَلِّهِ، وَلَكِنَّكَ ما فَهِمْتَ سوى بمعاني الحوادث؛ فَاحْذَرْ أن تَفْهَمَ في الْمَلَكُوتِ بما فَهِمْتَ به في الْمُلْكِ، فَتَهْوِى في مَكَانٍ سَحِيقٍ

السادسة عشرة: وقال لي: كُفَّ لِسَانَكَ عن الناس حتى أَكُفَّ عنك بَأْسِي فلا تَسِرْ في طريق الْإِفْلَاسِ، ما تَعِيبُ في خَلْقٍ خَلَقْتُهُ بِيَدَيَّ، دُونَكَ عَيْبَكَ فَاشْتَغِلْ به حتى لا أَفْرَغَ لَكَ

السابعة عشرة: وقال لي: أَنْطَقْتُكَ بِأَسْرَارِي، فَبَهَرْتَ مَنْ حَوْلَكَ، ولو لم تَنْبَهِرْ ما أَبِهَ لكلامك أَحَدٌ، متى أَعْجَبَ النَّاسَ ما قلت فلا زالت مَحَبَّتِي في شِغَافِكَ، ومتى بَرِمُوا به، فَافْزَعْ إلى الاستغفار، عَلِّي أَرْزُقُكَ مَحَبَّتِي مِنْ جَدِيدٍ

الثامنة عشرة: وقال لي: أَدَّبْنَاكَ بِالسَّوْطِ حتى رَشَدْتَ، ثُمَّ قَرَّبْنَاكَ بِالْبُعْدِ حتى دَنَوْتَ، ثم أَزْعَجْنَاكَ بِالنِّقَمِ حتى اسْتَوَيْتَ، ثم أَطْلَعْنَاكَ على الْمَلَكُوتِ فَتِهْتَ وَمَا رَجَعْتَ، فَفَتَنَّاكَ فُتُوناً حتى قلت: **يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِياً**

التاسعة عشرة: وقال لي: إذا نَظَرَ إليك أَهْلُ الدِّينِ رَأَوْا فيك إِفْرَاطاً في الدنيا، وإذا نَظَرَ إليك أَهْلُ الدنيا رَأَوْا فيك تَفْرِيطاً في الدِّينِ. أنت مِرْآةُ الْخَلْقِ، لا يَرَى فيك الناظر إلا نَفْسَهُ، ولو كُنْتَ مُتَدَيِّناً لم تَصْلُحْ لِأَهْلِ الدنيا، ولو كُنْتَ دُنْيَوِياً لم تَصْلُحْ لِأَهْلِ الدِّينِ، هؤلاء وأولئك عِيَالِي، فَلْتَكُنْ مِرْآةً لأولئك وهؤلاء

العشرون: وقال لي: ظَهَرْتَ حتى خَفِيتَ، وَخَفِيتَ حتى ظَهَرْتَ، وَحَيِيتَ حتى فَنِيتَ، وَفَنِيتَ حتى حَيِيتَ، وَأَطَعْتَ حتى أَيْقَنْتَ، وَأَذْنَبْتَ حتى فَجَرْتَ، فَلَمْ يَفْهَمِ الْأَنَاسِيُّ بأنني قَلَّبْتُكَ بين الأشياء وأضدادها، فلا يَنْتَفِعُ بك سوى مَنْ أَرَيْتُهُ الْأَضْدَادَ مُتَسَاوِيَةً

الواحدة والعشرون: وقال لي: إذا أَطَعْتَنِي فأنت عَبْدِي الْمُطِيعُ، وإذا عَصَيْتَنِي فأنتَ عَبْدي الْعَاصِي، وإذا أَحْبَبْتَنِي فأنت خَلِيلِي، ما فَخَرْتَ بِأَنَّنِي أنا مَوْلَاكَ وما بَاهَيْتُ بك الْمَلَائِكَةَ

الثانية والعشرون: وقال لي: طَيْرُ مَحَبَّتِي يَعْصِفُ بِجَنَاحَيْهِ في أقفاص صَدْرِكَ، وَتَكَادُ مَحَبَّتِي لَكَ تَغَارُ منها الملائكة، فَمَنْ أَحَبَّكَ أَحْبَبْتُهُ، وَمَنْ أَحَبَّنِي أَحَبَّكَ، وَمَنْ أَبْغَضَكَ مَهْمَا قَرَّبْتَهُ أَبْعَدْنَاهُ، فلا يَغُرَّنَّكَ رِضَاكَ عَنْهُ ما دُمْتُ عَنْهُ غَيْرَ رَاضٍ

الثالثة والعشرون: وقال لي: رَغَّبْنَاكَ حتى إذا أَمِنْتَ أَرْعَبْنَاكَ، ولولا عِزَّةُ الْجَبَرُوتِ ما أَرْعَبْنَاكَ، ولو خَوَّفْنَاكَ ما أَلْجَأَكَ غَيْرُ الرُّعْبِ، فَابْقَ على ذلك، فمهما تَذَلَّلْتَ لِمَوْلَاكَ تَعَزَّزْتَ في الملك والملكوت، ولا تَخْلَعْ رِدَاءَ الذُّلِّ فَأُرْعِبَكَ مِنْ جَدِيدٍ

الرابعة والعشرون: وقال لي: مَا أُعْطِيكَ ولم تَعُدْ تَطْمَعُ في شيء، وما أَمْنَعُكَ ولم تَعُدْ تَأْسَى على شيء، وما أَرْفَعُكَ ولم تَعُدْ تَتَرَفَّعُ على شيء، وما أَخْفِضُكَ وقد عَلَوْتَ كُلَّ شيء، وما أُكَافِؤُكَ وأنت لا تَطْلُبُ أَجْراً، وما أُحَاسِبُكَ وأنت حَبِيبِي؟

الخامسة والعشرون: وقال لي: خَالَطْتَ حَضْرَتِي فَغِبْتَ عن الشُّهُودِ، وَطُوِيَتْ لك الأكوان طَيّاً، فما عَادَ مِنْ شاهد ولا مشهود، وَأَطْلَعْتُكَ على سِرِّ عُبُودِيَّتِي، فَقُلْتَ: سبحان المعبود.

فلا تَشْتَقْ للموت، فَمَهْمَا أَبْقَيْنَاكَ مع مَنْ أَبْقَيْنَا تَسْرَحُ في الوجود حتى يَاتِيَ الله بأمره، فلا تفرح بشيء ولا تحزن على شيء غَيْرِ مَوْجُودِ

السادسة والعشرون: وقال لي: لولا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ فُتِنْتَ بِجَمَالِ ما صَنَعْنَا، ولولا أن فَتَنَّاكَ لم تَعْذُرِ العالمين فيما فُتِنُوا، وَرَأَيْتَ لنفسك فضلا ليس لك، ما أنت والناس بِمُعْجِزِي رَبِّكُمْ، سَوَاءٌ عليكم ثَبَتُّمْ أم فُتِنْتُمْ؛ ليس لكم مِنَ الأمر شَيْءٌ، إِنِ الْأَمْرُ إِلا لله

السابعة والعشرون: وقال لي: اِعْرِفْ قَدْرَكَ ولا تُجَاوِزْ عِزَّتِي، أَصُنْكَ عن الكبرياء، وَاخْفِضْ جناحك لِلْخَلْقِ أَحْفَظْكَ مِنَ الذُّلِّ، وَاعْرِفْنِي كما أشاء أَنْ أُعْرَفَ، أُعَرِّفْكَ مَنْ تَكُونُ؛ ولا تَأْبَهْ لِأَدْعِيَاءِ مَعْرِفَتِي مِنْ غَيْرِ العارفين، فَلَيْسُوا مِنِّيَ وَلْسُت منهم في شيء، مَهْمَا لَبِسُوا مِنَ الْمَرَاقِعِ، وَعَمَرُوا الْمَسَاجِدَ، ما لم يَتُوبُوا عن تَتَبُّعِ زَلَّاتِ الناس

الثامنة والعشرون: وقال لي: فَرَقْتُكَ على نفسك حتى أُسِرَّ لك بما لا تَفْهَمُهُ النفس، وَجَمَعْتُكَ بِنَفْسِكَ حتى تَتَشَرَّعَ في مُنَاجَاتِي، فإذا أَنْطَقْتُكَ لم تَدَّعِ الْأُلُوهِيَّةِ، وإذا أَسْكَتُّكَ أَلْهَتْنِي

التاسعة والعشرون: وقال لي: عبادي شُهُودُ أُلُوهِيَّتِي، وأنا شَاهِدُ عُبُودِيَّتِهِمْ، ولولا عِبَادٌ أَهْوَنِي بَدَّلْتُ خَلْقاً بِخَلْقٍ، ولولا أنني أنا الله، ما قَامَتِ السماوات والأرض على الْحَقِّ، ولولا أنني الواحد، ما أَعْلَمَ الرَّعْدُ بِالْبَرْقِ؛ مَنْ غَيْرِي مَالِكُ يوم الدين، لا يُجَادِلُنِي أَحَدٌ متى رَحِمْتُ العباد جميعا ما أشركوا بي؟

الثلاثون: وقال لي: متى أَحَبَّكَ الناس، فذاك دليل على أنني أُحِبُّكَ، ومتى أَبْغَضَكَ الناس، فما أَبْغَضُوكَ سوى لأنني أَبْغَضْتُكَ؛ أَحْبِبْ مَنْ أَحَبَّكَ يُحْبِبْكَ أكثر، فيزداد بذاك حبي لك، ولا تُبْغِضْ مَنْ أَغْضَبَكَ، حتى لا أُبْغِضَكَ متى أَغْضَبْتَنِي؛ فإنك متى أَبْغَضْتَهُمْ أَبْغَضُوكَ، ومتى أَبْغَضُوكَ بُؤْتَ بِغَضَبِي. فَكُنْ بالحب في كَوْنِي دائِناً، أَكُنْ حَبِيبَكَ، وَمَنْ كُنْتُ حَبِيبَهُ لا يُبْغِضُهُ سوى عَدُوِّي

الواحدة والثلاثون: وقال لي: إذا ادَّعَيْتَ أنك عرفتني، فذاك لأنك جهِلْتَنِي، وإذا ادَّعَيْتَ أنك جهِلْتَنِي، فذاك لأنك لم تعرف نفسك؛ تَقَرَّبْ إلي بالعجز تَعْرِفْ قُدْرَتِي، وَتَقَرَّبْ إلي بالجهل أُعَلِّمْكَ بعض غَيْبِي، وَتَقَرَّبْ إلي بِالتَّذَلُّلِ أَبْهَرْكَ بِعِزِّي، وَتَقَرَّبْ إلي بالسؤال أَكُنْ وَلِيَّكَ، ولا تَدَعْ سؤالي، فإنك إذا تركت سؤالي لم آبَهْ لك

الثانية والثلاثون: وقال لي: عَرَفْتَ أنها فانية، فلم تَدَّخِرْ منها عِقَالاً، فلما أَصَابَتْكَ الْعَيْلَةُ قلت: زدني، فلما زدتك قلت: زدني مالا يَفْنَى، لو زدتك ما لا يَفْنَى أَمْسَكْتَ عن الإنفاق، فلا تسألني ما تشتهي نَفْسُكَ، حتى لا تكون سوى عبدي، واسألني ما قَسَمْتُهُ لك، أُغْنِكَ عَمَّنْ سِوَايَ

الثالثة والثلاثون: وقال لي: كَثُرَ تُرَاثُكَ فَفَرِحتَ وَحَمِدْتَنِي، وَقَلَّ تُرَاثُكَ فَحَزِنْتَ وَنَسِيتَنِي، أَتَحْسِبُ أَنَّ غِنَاكَ يَرُدُّ عنك بَأْسِي؟ أَمْ تَحْسِبُ أَنَّ فَقْرَكَ يَمْنَعُكَ مِنْ إِحْسَانِي؟ لا تفرح بالغنى، ولا تَخْشَ الفقر، وَلَكِنِ افْرَحْ بمولاك وَاخْشَ مولاك، فإني متى ألقاك أُقْعِدْكَ حيث لا تَحْتَسِبُ

الرابعة والثلاثون: وقال لي: تُرَى مَنْ خَلَقَ الكون تُعْجِزُهُ لُقْمَةُ يَوْمِكَ؟ تُرَى مَنْ أَحْيَى العظام وهي رَمِيمٌ يَغْلُبُهُ سُقْمُكَ؟ تُرَى مَنِ الْأَرْضُ جميعا قَبْضَتُهُ يوم القيامة والسموات مَطْوِيَاتٌ بيمينه تَهُمُّهُ نُصْرَتُكَ؟

الخامسة والثلاثون: وقال لي: كيف لا تثق بأنني أنا الرزاق، وعندي خزائن كل شيء؟ كيف لا تثق بأنني أنا الشافي، وأنا الذي أحيي وأميت؟ كيف لا تثق بأنني أنا الناصر، ويسبح الرعد بحمدي والملائكة من خيفتي؟

السادسة والثلاثون: وقال لي: أَتَحْقِرُ مولاك وَتَضْرِبُ أَلْفَ حساب لسواه، يكفيك أنني أنا الله، حتى تَتَّخِذَ معي إِلَهاً آخر، انْصَرِفْ عَنْ شَكْوَاكَ، وَإِلَّا تَنْصَرِفْ، أَصْرِفْكَ إلى ما شَكَوْتَ منه، فَتَشْكُونِي ولا أَسْتَجِيبُ لك

السابعة والثلاثون: وقال لي: عَرَجْتَ في الْعَارِجَاتِ إلى حَضْرَتِي كي تَلْقَانِي، فَلَمْ تَلْقَ سوى ما عَرَجْتَ إليه، وَأَفْضَيْتَ بِالْمُبْهَمَاتِ كي تُرْضِيَنِي، فَلَمْ تُرْضِ سوى مَنْ أَفْضَيْتَ إليه، وَعِشْتَ بِالْفَانِيَاتِ كي أُخْلِصَكَ لنفسي، فَلَمْ تُسْتَخْلَصْ سوى لِخَاصَّةِ نَفْسِكَ

أَلَا بَقِيتَ حيث أنت ودعوتني؟ لَسْتُ حيث تظن، وَلَسْتُ كما تظن، أنا كما أنا، فَدَعْنِي أَتَجَلَّى لك حيث أنت فَتُدْرِكَنِي، فإنك متى حاولت، ما زِدْتَ عَنِّي إلا بُعْداً، ألا تَعْرِفُ أنني لا أُدْرَكُ؟ ولو كنت أُدْرَكُ ما كُنْتُ أنا الله

الثامنة والثلاثون: وقال لي: جَادَلَتْنِي فيك الأملاك كي أَرْفَعَ عنك بعض بَأْسِي، ولو تَدْرِي الأملاك أنني لا أُصِيبُ بِبَأْسِي سوى أولي البأس، ما جادلتني. ودعتني الأملاك إلى أَنْ أُخْلِيَ سبيلك؛ ألا تَعْلَمُ أنني لو أَخْلَيْتُ سبيل أَحِبَّائِي لم يَعُدْ لي ما به أَشْتَغِلُ؟

التاسعة والثلاثون: وقال لي: أَقَمْتُكَ للناس دَاعِياً، فَمَهْمَا فَعَلْتَ، سواء كنت جاداً أَوْ لَاهِياً، أنت شيء عُجَابٌ في دُعَاتِي؛ قُلْ ما شِئْتَ وَافْعَلْ ما شِئْتَ، فَكُلُّ ما تقول وتفعل يُحَدِّثُ الناس عَنِّي، فَمَا فَتِؤُوا لا يَشْبَعُونَ منه، كيف يَشْبَعُ عبادي مِنَ الحديث عَنِّي؟

الأربعون: وقال لي: أنت لساني، أنت سمعي وبصري، أنت بطشي، فلا تَتَأَلَّهْ، ولا تكن أنا، ولكن كُنْ بي وإِلَيَّ حتى لا أَمْحَقَكَ، فلا تُحَدِّثُ أَحَداً

الواحدة والأربعون: وقال لي: أنت وأوليائي كَبَصِيرٍ في الْعُمْيَانِ، فمتى أَتَيْتَهُمْ، تَظَاهَرْ بِالْعَمَى حتى تَبْقَى وَلِيِّي، فإنك إن أَبْصَرْتَ في عَمَاهُمْ أَعْمَيْتُكَ، وَإِنَّهُمْ متى عرفوا أنك بَصِيرٌ، أَهْوَكَ فَبُؤْتَ بِإِثْمِكَ وَإِثْمِهِمْ، وَإِنْ شِئْتَ أَلَّا يكون هذا ولا ذاك، فلا تَأْثِمْ

الثانية والأربعون: وقال لي: ما تَرَكْنَاكَ بَعْدَ مَوْتِكَ تَرُوحُ بين الناس، إلا لأنك سَأَلْتَنَا ذلك، هَلَّا بَقِيتَ عندنا حتى لا تنشغل بغيرنا عنا؟ ولكني بَاقٍ لك ما بَقِيتَ في أكنافها، تُؤْنِسُ عبادي، فَيَوْماً تأتيني فَأُؤْنِسَكَ

الثالثة والأربعون: وقال لي: الشمس والقمر يَجْرِيَانِ كما شِئْتُ، وَالصَّوَاعِقُ تُصِيبُ مَنْ أشاء، وَالْخَبْءُ يَنْزِلُ بإذني؛ فما بال قوم يَجْرُونَ كما شاؤوا، وَيُصِيبُونَ ما شاؤوا، وَيَنْزِلُونَ متى شاؤوا؟ قُلْ لَهُمْ: لَئِنْ لَمْ يسيروا بِإِمْرَتِي أَوْكَلْتُهُمْ إلى إِمْرَةِ أَنْفُسِهِمْ، ومتى أَمَّرْتُهَا عليهم شَقَوْا في الدنيا والآخرة، لا يُفْلِحُ قوم وَلَّوْا أَمْرَهُمْ امرأة

الرابعة والأربعون: وقال لي: لا تَلُمْ نَفْسَكَ كُلَّمَا فَرَّطْتَ في ذِكْرِي، فَمَا لُمْتَ نفسك سوى لأنك مِنَ الذاكرين، ولو كُنْتَ مِنَ الغافلين ما فَطِنْتَ لِتَفْرِيطِكَ

الخامسة والأربعون: وقال لي: لا تَعْجَبْ مِنْ عجائبي وأنت أَعْجَبُ مِنَ الْعَجَبِ، فيك أَوْدَعْتُ أَبْهَى الفتن، فَمَنْ خَاضَكَ في الناس واعيا اِفْتَتَنَ، وَمَنْ خَاضَكَ في الناس غائبا لم يَفْتَتِنْ. الْأَوَّلُ قَرَأَ فيك فَفَهِمَ بهائي، والثاني قَرَأَ فيك فَفَهِمَ أسمائي، فلا تَأْبَهْ لهذا ولا لذاك، ولكن دونك وَمَنْ قَرَأَ فيك ولم يَفْهَمْ شيئا، ذاك منك وإليك، سَنُقْرِئُكَ فلا تَنْسَى

السادسة والأربعون: وقال لي: ظَنَنْتَ أَنَّ ما تَلَقَّيْتَ مِنْ علومي ينفع الناس، فَطَفِقْتَ تُعَلِّمُهُمْ ما لا يَنْفَعُهُمْ.

قَدْ صُنْتُ علومي عن أن تَنْطِقَ بها الْأَلْسُنُ وَتَسْمَعَهَا الآذان، إذا شِئْتَ أن تُعَلِّمَهُمْ ما عَلِمْتَ، فَدَعْنِي أُعَلِّمُهُمْ ما عَلَّمْتُكَ، مَنْ يُعَلِّمُ علومي وأنا الحكيم الْعَلَّامُ؟

السابعة والأربعون: وقال لي: أَيُّ سِرٍّ هذا الذي أَفْشَاهُ الْعِبَادُ، وَأَيُّ عَبْدٍ هذا الذي أَفْشَى أسراري؟ وَأَيُّ إله هذا الذي يُفْشِي الْعِبَادُ سِرَّهُ؟ وَأَنَّى لِلْعِبَادِ أَنْ يُفْشُوا ما خَبَّأَهُ الله
لو كانت أسراري أَخَافُ إِفْشَاءَهَا، ما خَشِيَنِي رسلي وأنبيائي، أنا الله الذي لا إله إلا أنا، فَمَنْ تكونون؟

الثامنة والأربعون: وقال لي: اَلطَّيْرُ لَمَّا تَسْنَحُ في السماء صَافَّاتٍ تَحْمَدُنِي، وَالْمُزْنُ لَمَّا يَسِيحُ في الفضاء هَائِماً يُمَجِّدُنِي، وَالسِّبَاعُ لَمَّا تَسْطُو كَاسِرَاتٍ على الظِّبَاءِ تَسْجُدُ لِي، وَالسَّنَابِلُ لَمَّا تُبْهِجُ يَانِعَاتٍ في الرَّخَاءِ تَعْبُدُنِي، وَالنَّحْلُ لَمَّا أَوْحَيْتُ لها سَالِكَاتٍ في الْخَفَاءِ تَشْهَدُ لِي، فما حَاجَتِي لِخَلْقٍ متى قَرَّبْتُهُمْ أَبْعَدُونِي، ومتى آوَيْتُهُمْ نَبَذُونِي، ومتى تَعَرَّفْتُ إليهم أَنْكَرُونِي؟

التاسعة والأربعون: وقال لي: إذا تَأَدَّبْتَ مع ربك، فاعلم بأنني أمسكت عنك جَهْلَكَ، فوالله لو أَوْكَلْتُكَ إلى جَهْلِكَ أَسَأْتَ الأدب مع ربك، وَكُنْتَ وكثيرا مِنْ خَلْقِي سَوَاءً، فاسألني أن أُمْسِكَ عنهم جَهَالَتَهُمْ، كما أَمْسَكْتُ عنك جَهَالَتَكَ، ولا تَرَ نفسك خيرا منهم، حتى لا أُطْلِقَ ما أَمْسَكْتُ فتكون من الجاهلين

الخمسون: وقال لي: أَتَدْرِي ما الحكمة؟ الحكمة ألا تَتَحَكَّمَ في رَعِيَّةٍ ولا تَحْكُمَ في قَضِيَّةٍ، الحكمة أن تَدَعَ الْمُلْكَ وَالْمَلَكُوتَ لِلْحَيِّ الذي لا يموت، يَتَحَكَّمُ فيهما ويَحْكُمُ عليهما بما يشاء

الواحدة والخمسون: وقال لي: ليس في عبادي سَيَّانِ، وليس في الراحمين رَحْمَنٌ، وليس في العالمين مَنْ لا يُحِيطُ أَحَدٌ بِعِلْمِهِ، وليس في المالكين مَنْ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السموات والأرض، وليس فيك ما لا أَرْضَاهُ

الثانية والخمسون: وقال لي: إذا لم تَعُدْ تَخَافُ الساعة، فلا زِلْتَ حَبِيسَ وَقْتِكَ، وإذا لم تَعُدْ تَخَافُ الوقت، فلازِلْتَ عَبْدَ نفسك، وإذا لم تَعُدْ تَخَافُ الفقر، فلا زِلْتَ حَبِيسَ التَّصَارِيفِ، وإذا لم تَعُدْ تَخَافُ السُّقْمَ، فلا زِلْتَ فَانِياً، وإذا لم تَعُدْ تَخَافُنِي، فلا زِلْتَ لم تَعْرِفْنِي، وإذا لم تَعُدْ تَخَافُ نَفْسَكَ، فقد ادَّعَيْتَ الألوهية
وإذا صرت تَأْمَنُ في رُبُوعِي، فأنت أَحْمَقُ، وإذا صرت تَأْمَنُ مَكْرِي، فأنت سَفِيهٌ، وإذا صرت تَأْمَنُ غضبي، فأنت مَغْرُورٌ، وإذا صرت تَأْمَنُ عَذَابِي، فأنت شَقِيٌّ، وإذا صرت تَأْمَنُنِي، فأنت لست بِعَبْدِي
لا تَخَفْ ولا تَأْمَنْ ما دُمْتُ رَبَّكَ، وَخَفْ وَأْمَنْ ما دُمْتَ عبدي، وإلا أَرْعَبْتُكَ في أَمْنِكَ، وَأَمَّنْتُكَ في خَوْفِكَ، فَضَلَلْتَ السَّبِيلَ

الثالثة والخمسون: وقال لي: أَنْزَلْنَا القرآن وَعَلَّمْنَا الإنسان ما لم يَعْلَمْ، فَعَلِّمِ النَّاسَ مِمَّا عَلَّمْنَا عِلْماً، وَفَهِّمْ أَهْلَ الْعِرْفَانِ مِمَّا أَنْزَلْنَا فَهْماً، وَهُبَّ بِنَسَمَاتِ السُّلْوَانِ، مِنْ خزائن رحمتنا، على قلوب أحبابنا، وانْفَخْهُمْ بِطِيبِهَا نَفْحاً.
فَمَنْ تَعَلَّمَ تَصَدَّقَ، وَمَنْ فَهِمَ تَحَقَّقَ، وَمَنْ انْتَفَحَ احْتَرَقَ

الرابعة والخمسون: وقال لي: خَلَقْنَاكَ في الْمُنْحَدَرِ حتى تَصْعَدَ، ولما أُصْعِدْتَ أَسْكَنَّاكَ فيما انْخَفَضَ حتى تَرْتَفِعَ، فلما ارْتَفَعْتَ، أَسْكَنَّاكَ فيما ارْتَفَعَ حتى تَتَرَفَّعَ، ولما تَرَفَّعْتَ أَعَدْنَاكَ لِلْمُنْحَدَرِ، حتى إذا أُصْعِدْتَ، سَاوَيْنَاكَ بالبحر حتى تَرْسُوَ، فإياك إذا رَسَوْتَ أن تُبْحِرَ، فَنُلْقِيكَ في الْيَمِّ

الخامسة والخمسون: وقال لي: تُفْلِتُ مِنَ الموت وَتَنْفَلِتُ منك الحياة، فلا أنت بالموت موجود، ولا أنت بالحياة مفقود؛ ومتى أَفْلَتَّ مِنَ الموت لا تفرح، ومتى انْفَلَتَتْ منك الحياة لا تَيْأَسْ، فإنك إذا أَقَمْتَ بين الحياة والموت والفرح والأسى، لم تعرف إلينا سبيلا

السادسة والخمسون: وقال لي: لو تَدْرِ هَلْ تَدُورُ بالأكوان أَمْ تَدُورُ بك الأكوان، لأنك كَوْنٌ لا يَدُورُ
و لو كنت تدري ما دَوَّرْتُهُ بك لم تَعُدْ ثابتا، ولو كنت تدري مُحِيطَ دائرتك وَقَفْتَ عن الدَّوَرَانِ

السابعة والخمسون: وقال لي: دارت دوائر الإرادات بتدابيري، ودارت دوائر الْقُدُرَاتِ بمقاديري، ومتى دارت دائرتك، فليس تدور عَبَثاً، ولكن وِفْقَ ما أَرَدْتُهُ بإرادتي وَقَدَرْتُهُ بقدرتي، فلا تعجب إذا لم أحبسك عن الدوران، فَإِنَّ أقداري ما فَتِئَتْ دَائِبَةً، وأنت قَدَرٌ من أقداري

الثامنة والخمسون: وقال لي: خَلَقْتُ بني آدم للأرض لأكرمهم، فما بالهم متى ضاقوا بِضَنَكِهَا، تَمَنَّوْا لو خَلَقْتُهُمْ لِلْجِنَانِ
لَعِبُهَا وَلَهْوُهَا، نِعَمُهَا وَنِقَمُهَا، أسقامها وأمراضها، مَسَرَّاتُهَا وأحزانها، لولاَ أَنْ تَصَرَّفْتُ بِكُلِّ هذا فِيهِمْ، وَسُقْتُهُمْ إلى الْجِنَانِ، ما ذاقوا لِلْجِنَانِ طَعْماً، إنما تَهُونُ الدنيا بِذِكْرِ الْجِنَانِ، وإنما يَطِيبُ الْجِنَانُ بِذِكْرِ الأيام الْخَوَالِي

التاسعة والخمسون: وقال لي: خَلَا أَهْلُ البرزخ من الأجساد والعقول، ولو شِئْتُ لما أَخْلَيْتُهُمْ منهما؛ هُمْ نفوس في أرض البرزخ لا تَعْقِلُ، ولو كانوا نُفُوساً عاقلة لَأَدْرَكُوا ما هُمْ فيه، وما هُمْ فيه حَسْرَةٌ وَنَدَامَةٌ؛ أُشْفِقُ على عبادي أَنْ أذيقهم مَرَارَةَ طول الانتظار، وَلَمَّا يأتي يوم الحساب

الستون: وقال لي: قالت السموات والأرض: ربنا أتيناك طائعين، فَهَلَّا أَبْقَيْتَنَا؟

فقلت: لو كُنْتُمْ لَأَبْقَيْتُكُمْ

قالا: فما بال بني آدم؟

قلت: لأنه حَمَلَ الأمانة يَوْمَ أَشْفَقْتُمْ منها

قالا: وَهَلْ قَدَرَ على حَمْلِهَا؟

قلت: منهم مَنْ قَدَرَ وَمَنْ لم يَقْدِرْ

قالا: فمالك أَبْقَيْتَ مَنْ لم يَقْدِرْ؟

قلت: لأنه لم يَرُدَّ عَلَيَّ ما عَرَضْتُهُ عليه، وَأَبَيْتُنَّ

الواحدة والستون: وقال لي: عَجِبَتْ أملاكي مِنْ بعض خَلْقِي، يُحِبُّونَ لِغَيْرِهِمْ ما يُحِبُّونَ لأنفسهم، وَتَعَجَّبَتْ مِنْ بعض خَلْقِي، يُحِبُّونَ لغيرهم أَكْثَرَ مِمَّا يُحِبُّونَ لأنفسهم

وَاسْتَغْرَبَتْ ملا ئكتي مِنْ خَلْقٍ يمشون في أرض الله، ويأكلون نِعَمَهُ، ويعبدون سِوَاهُ

هَلَّا خرج هؤلاء مِنْ أرضي، وتركوا نِعَمِي، وسألوا مَنْ عَبَدُوا سِوَايَ، أَنْ يُؤْوِيَهُمْ وَيُطْعِمَهُمْ؟

وقالت ملائكتي: ما صَبْرُكَ على قوم هذا حالهم؟

قلت: **إني أعلم ما لا تعلمون**

الثانية والستون: وقال لي: في الفردوس الأعلى قوم، ما إن يدخلوها حتى يسألوا عني، وفي الحشر قوم، ما إن يُحْشَرُوا حتى أسأل عنهم، أولئك الذين كانوا متى جَدَّ جِدُّهُمْ لم يسألوا أحدا غير الله

الثالثة والستون: وقال لي: أبناؤكم وبناتكم وَدَائِعُ الله عندكم، اِسْتَأْمَنَكُمْ عليها، فلا تخونوا، وَالْمُودِعُ اللهُ

أزواجكم شَقَائِقُكُمْ، جَعَلْتُهُنَّ لكم متعة وَمِحْنَةً، ثُمَّ عَهِدْتُ إليكم بِهِنَّ، فلا تَنْقُضُوا عهودي، وقد عَهِدَ إليكم الله.

آباؤكم وأمهاتكم، خُلَفَائِي عليكم، مَكَّنْتُهُمْ مِنْ مفاتيح جِنَانِي وناري، فَتَوَدَّدُوا إليهم، فَوَاللهِ لا أَفْتَحُ بَاباً مِنْ جِنَانِي وناري غَلَّقُوهُ، ولا أُغْلِقُ بَاباً مِنْ جِنَانِي وناري فَتَحُوهُ

الرابعة والستون: وقال لي: أَغْنَيْتُ الأرض بالدفائن والكنوز، وَدَلَلْتُ الْخَلْقَ عليها، فَظَنُّوا أنها مُلْقَاةٌ على الثرى، فطلبوها على وجه الأرض، فلم تُغْنِهِمْ

ألا يعلمون أَنَّ الدفائن والكنوز لا تكون إلا في خبايا الأرض، ولا تُدْرَكُ سوى بِالْحَفْرِ. أُطْلُبُوا الرزق في خبايا الأرض

فإذا حَفَرْتُمْ ولم تَعْثُرُوا على شيء، فاعلموا أنكم لم تَبْلُغُوا الرُّشْدَ، ومتى رَشَدْتُمْ أُورِثْتُمُوهَا. **فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك**

الخامسة والستون: وقال لي: لَمْ أَخْلُقِ الجنة للمُحسنين، وَلَمْ أَخْلُقِ النار للمُسيئين، وإنما خَلَقْتُ هذه وتلك، لأعلم مَنْ يعبدني لوجهي

السادسة والستون: وقال لي: ما أَخْوَفُ ما تخاف يوم القيامة؟

قلت: أن يَنْقُصَ شوقي إليك، فقد كُنْتُ أشتاق إليك بعيدا عنك في حياتي، فَلَعَلَّ الْقُرْبَ منك بعد مماتي يَنْقُصُهُ.

قال: ما زاد الْحُبُّ إلا وَزَادَ الشوق، وما نَقَصَ في الدنيا زَادَ في الآخرة. **لِلَّذِينَ أحسنوا الحسنى وزيادة**

14/01/2026 15:45 تنزيل كتاب - 1-50 صفحات - MAFAHIM

السابعة والستون: وقال لي: إذا أَرَدْتُ أَنْ أُصَلِّيَ على أحبابي، هَدَيْتُهُمْ للصلاة على محمد، حتى إذا صَلَّوْا عليه صَلَّيْتُ عليهم

إذا أَرَدْتُ أَنْ أُصَلِّيَ على أحبابي، اِبْتَلَيْتُهُمْ بِالْمِحَنِ، وَأَلْهَمْتُهُمُ الصَّبْرَ، حتى إذا صَبَرُوا صَلَّيْتُ عليهم. أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون

وَمَنْ صَلَّيْتُ عليه، أَسْكَنْتُهُ في الفردوس الأعلى مع مَنْ صَلَّى عَلَيْهِ

الثامنة والستون: وقال لي: ما سَوَّيْتُ بَشَراً مِثْلَ مُحَمَّدٍ، وما أَنْعَمْتُ على بَشَرٍ مِثْلَ مُحَمَّدٍ، وما حَمِدَنِي بَشَرٌ مِثْلَ مُحَمَّدٍ، وما أَمَّنْتُ بَشَراً مِثْلَ مُحَمَّدٍ، ليس لأنه رسولي وخاتمي، ولكن بِمَا صَبَرَ على أُمَّتِهِ

التاسعة والستون: وقال لي: كن بمن حولك رؤوفا رحيما، واعف عنهم واصفح واصبر عليهم إذا ما جهلوا عليك، فإنك كلما صبرت على عبادي صبرت عليك

فإن كان صبرك على جهلهم عليك، فإنا صبرنا على جهلك علينا، حين أجبنا دعاءك وقضينا حاجتك، وما كففت عن سؤالنا رغم تفريطك فيما عهدنا به إليك

السبعون: وقال لي: عجبت ملائكتي من عباد خلقتهم ولم يعرفوني، ومن عباد رزقتهم ولم يعبدوني؛ ومن عباد عرفوني وعبدوني لكنهم تجرؤوا على خلقي ولم يأبهوا لي

وغبطت ملائكتي قوما ليسوا برسل ولا أنبياء، أتى الناس يوم القيامة وفي صحفهم ما لا يحصى من العبادات والقربات، وأتوا وصحائفهم ليس فيها من شيء، سوى أن قلوبهم كانت تخفق، ودموعهم كانت تسيل، كلما ذكر اسمي

https://fliphtml5.com/xdxqb/fygr/basic 198/212

14/01/2026 15:45 تنزيل كتاب - 1-50 صفحات - MAFAHIM

القصيدة الهمزية في مدحِ خير البرِّية

لأبي الفتح الجعفي عفا الله عنه

لَيْسَ لِلْوَاجِدِ الْمُعَنَّى عَزَاءُ   طَافَ يُثْنِي حَتَّى شَجَاهُ الثَّنَاءُ
قَدْ بَكَى حَتَّى أَشْفَقَتْ لَهُ قَوْمٌ   مِنْهُمُ الْعَاذِلُونَ وَالرُّقَبَاءُ
إِنْ جَرَى دَمْعِي بِالدِّمَاءِ هَتُونًا   لَيْسَ يَكْفِينِي فِي دُمُوعِي الدِّمَاءُ
مَا أَنَا إِلَّا عَاشِقٌ فِي جُنُونٍ   مَا لِعِشْقِي فِي الْعَاشِقِينَ انْتِمَاءُ
أَوْرَثَتْ أَشْوَاقٌ سُقَامًا بِقَلْبِي   حَارَ فِيهِ الرَّاقُونَ وَالْحُكَمَاءُ
لَيْسَ لِي إِلَّا اللَّيْلُ فِيهِ أُنَاجِي   طَيْفَكُمْ أَسْتَجْدِيهِ وَالظَّلْمَاءُ
كَيْفَ يُجْدِينِي مَا خَلَصْتُ نَجِيًّا   أَوْ يُدَاوِي مِنْ سُقْمِيَ اسْتِجْدَاءُ؟
وَفَيَافٍ إِنْ مَا تَرَامَتْ بِخُلْدِي   طُفْتُ أَدْعُو مَنْ لَا يَرُدُّ الدُّعَاءُ
لُمْتُمُ يَا عُذُولُ فِيمَا اعْتَرَانِي   طَابَ لِي مَهْمَا لُمْتُمُ الْإِصْغَاءُ
قَدْ ذَكَرْتُمْ لَمَّا عَذَلْتُمْ حَبِيبِي   فَاسْتَزَدْتُمْ شَوْقِي وَزَادَ الْبُكَاءُ
إِنَّ لِي حَالًا فِي الْهَوَى يَا عُذُولِي   فَالْحَيَا وَالْمَوْتُ عِنْدِي سَوَاءُ
وَاقِفٌ أَرْنُو لِلرُّسُومِ وَأَرْثِي   أَعْهُدًا لَا يُعِيدُهُنَّ الرِّثَاءُ
كَانَ فِيهَا ذَاكَ الصَّبِيُّ نَبِيهًا   نَزَلَتْ عِنْدَ رَأْيِهِ النُّبَهَاءُ
وَضَعَتْهُ الْغَرَّاءُ سَهْلًا بَهِيًّا   لَمْ تَضَعْ فِي بَهَائِهِ نُفَسَاءُ
سَاجِدًا لِلرَّحْمَنِ مِنْ غَيْرِ شَرْعٍ   سَاهِمًا فِي السَّمَا رَعَتْهُ السَّمَاءُ
اِبْنُ بَيْتٍ وَأَهْلُهُ أَهْلُ عِزٍّ   فِيهِمُ الصَّالِحُونَ وَالْأَتْقِيَاءُ
اِصْطَفَاهُ الرَّحْمَنُ نُورًا مُبِينًا   فَاسْتَضَاءَتْ مِنْ نُورِهِ الْبَطْحَاءُ
أَخْجَلَ الْأَنْجُمَ الَّتِي فِي سَمَاهَا   طَالِعٌ وانْحَنَتْ لَهُ الْجَوْزَاءُ
بِصَبِيٍّ حَازَ الْهُدَى فِي خِصَالٍ   زَانَهَا الصَّبْرُ وَالْوَفَا وَالْحَيَاءُ
لَهُ رَبٌّ يَحْمِيهِ مِنْ كُلِّ رُزْءٍ   وَحَفِيظٌ مِنَ الرَّزَايَا وِجَاءُ
عَفَّ حَتَّى دَانَتْ لَهُ مَكْرُمَاتٌ   جَادَ حَتَّى هَامَتْ بِهِ الْكُرَمَاءُ
وَأَمِينٍ فِي أُمَّةٍ لَا يُضَاهَى   عَزَّ فِيهَا مَا اسْتُؤْمِنَتْ أُمَنَاءُ

https://fliphtml5.com/xdxqb/fygr/basic 199/212

وَصَدُوقٍ كَمَا دَعَوْهُ جَمِيعًا سَلْهُمُ إِنَّهُمْ بِهِ عُرَفَاءُ

يَافِعًا يَرْعَى بِالْقَرَارِيطِ ضَأْناً أَنِفَتْ مِنْ قَبُولِهِنَّ الرِّعَاءُ

سَلْ أَبَا طَالِبٍ حَدِيثَ بَحِيرَا فِي غُلَامٍ جَادَتْ بِهِ الْبَيْدَاءُ

قَالَ: عُدْ بِالْيَتِيمِ وَاحْفَظْ نَبِيًّا مِنْ يَهُودٍ إِنَّ الْيَهُودَ وَبَاءُ

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ هَذَا رَسُولٌ ذِكْرُهُ فِي التَّوْرَاةِ فِيهِ جَلَاءُ

كَيْفَ كُنْتُمْ تَسْتَفْتِحُونَ بِخَتْمٍ بَشَّرَتْكُمْ بِبَعْثِهِ الْأَنْبِيَاءُ

ثُمَّ أَنْكَرْتُمُوهُ لَمَّا أَتَاكُمْ نَالَهُ مِنْكُمْ جَفْوَةٌ وَعَدَاءُ؟

فَاعْلَمُوا أَنَّ النُّورَ مَهْمَا نَفَخْتُمْ بِهِ لَمْ يُسْعِفْكُمْ لَهُ إِطْفَاءُ

وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ عِبَادٌ لِرَبِّي لَا تَقُولُوا أَنْتُمْ لَهُ أَبْنَاءُ

وَاقْرَؤُوا فِي التَّوْرَاةِ أَوْصَافَهُ كَيْ تُدْرِكُوا قَوْلِي إِنَّكُمْ قُرَّاءُ

بَعْدَ مُوسَى نَبِيِّكُمْ جَاءَ عِيسَى بِبِشَارَاتٍ لَيْسَ فِيهَا مِرَاءُ

هَلْ مِنَ الْمُرْسَلِينَ فِيمَنْ أَتَاكُمْ بِالَّذِي جَاآكُمْ بِهِ مَا جَاؤُوا؟

ثُمَّ لَمَّا رَأَتْهُ خَيْرُ نِسَاءٍ هَالَهَا مِنْهُ ظَاهِرٌ وَخَفَاءُ

رَاقَهَا لَمَّا اسْتَأْجَرَتْهُ بِصِدْقٍ لَمْ يَرُقْهَا مِنْ قَبْلِهِ الْأُجَرَاءُ

عَرَضَتْ نَفْسَهَا عَلَى خَيْرِ زَوْجٍ زَوْجُهَا شَهْمٌ بَاسِلٌ مِعْطَاءُ

غَيْرَ أَنَّ اللهَ بَلَاهُ بِأَمْرٍ فَاخْتَلَى فِي غَارٍ دَعَوْهُ حِرَاءُ

طَالَ فِي الْغَارِ مِنْهُ مُكْثٌ وَنَاجَى رَبَّهُ كَيْ يَأْتِيهِ مِنْهُ اهْتِدَاءُ

إِذْ بِجِبْرِيلَ غَطَّهُ فِي احْتِضَانٍ عِنْدَهَا كَانَ الْبَثُّ وَالْإِلْقَاءُ

فَانْبَرَى عَائِدًا إِلَى أَهْلِهِ فِي فَزَعٍ رَاعَتْ رَوْعَهُ الرَّوْعَاءُ

وَإِذَا بِابْنِ نَوْفَلٍ فِي مَقَالٍ يُخْبِرُ الْهَادِي أَنَّهُ الْإِيحَاءُ

قُمْ فَأَنْذِرْ قَوْمًا نَسُوا مَنْ بَرَاهُمْ صَدَّهُمْ عَنْ مَوْلَاهُمُ الشُّرَكَاءُ

تَعْبُدُونَ الَّذِي صَنَعْتُمْ هَبَاءً أَنْتُمُ قَوْمٌ جُلُّكُمْ سُفَهَاءُ

هَلْ إِلَهٌ إِلَّا إِلَهُ الْبَرَايَا كُلُّ مَا أَشْرَكْتُمْ بِهِ أَسْمَاءُ؟

أَنْتُمُ سَمَّيْتُمْ بِهَا مَا أَتَيْتُمْ فَأَتَاكُمْ مِمَّا أَتَيْتُمْ عَنَاءُ

مَنْ سِوَى رَبِّي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ يُنْزِلُ الْخَبْءَ يَعْقُبُهُ الرَّوَاءُ؟

مَنْ سِوَى رَبِّي الْأَرْضَ أَرْسَى ذَلُولًا   هَلْ بِأَيْدِي أَسْمَائِكُمْ إِرْسَاءُ؟
ثُمَّ لَمَّا دَعَاهُمُ لِلْهُدَى لَمْ   تَسْتَجِبْ إِلَّا زُمْرَةٌ رُذَلَاءُ
ذَاكَ شَأْنُ الْمُحِقِّ فِي قَوْمِهِ إِنْ   مَا دَعَا لَمْ يُؤْمِنْ لَهُ الْوُجَهَاءُ
أَيُّهَا السَّارِي فِي بَهِيمِ اللَّيَالِي   طَابَ مِنْكَ الْبَهِيمُ وَالْإِسْرَاءُ
بَيْتُكَ الْمُبْتَدَا بِمَكَّةَ لَمَّا   طُفْتَ تَسْرِي وَالْمَقْدِسُ الْإِنْتِهَاءُ
تَمْتَطِي أَلْطَافًا مِنَ اللهِ سَفْرًا   قَصُرَتْ عَنْهَا قَبْلَكَ السُّفَرَاءُ
حِينَ أَفْضَتْ لَكَ السَّمَاءُ بِأَمْرٍ   هَمَّ أَمْلَاكًا هَالَهَا الْإِفْضَاءُ
يَا إِمَامَ الرُّسْلِ الَّذِينَ أَقَرُّوا   لَكَ بِالْفَضْلِ لَيْسَ فِيهِمْ كِفَاءُ
عَارِجًا بَعْدَهَا لِمَلْقَى حَبِيبٍ   لَكَ مِنْهُ التَّقْدِيمُ وَالْإِصْطِفَاءُ
مِنْ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ صُعُودًا   طِرْتَ كَالْبَرْقِ شَعَّ مِنْهُ السَّنَاءُ
وَامْتَطَيْتَ الْبُرَاقَ مِنْ فَضْلِ رَبِّي   عَارِجًا لَيْسَ يَعْتَرِيهِ عَيَاءُ
هَذِهِ سِدْرَةٌ وَفِي مُنْتَهَاهَا   تَمَّ لِلْمُرْتَقِي إِلَيْهَا ارْتِقَاءُ
ثُمَّ مَعْمُورٌ بِالْمَلَائِكِ طَافَتْ   حَوْلَهُ لَمْ يَنَلْهُ مِنْهَا خَوَاءُ
وَالْأَمِينُ الَّذِي هَدَاكَ أَمِينًا   نَابَهُ عِنْدَ الْحَضْرَةِ الْإِنْتِحَاءُ
قَابَ قَوْسَيْنِ كُنْتَ أَدْنَى وَرَبِّي   قُرُبَاتٌ مَا بَعْدَهَا إِقْصَاءُ
وَرَأَيْتَ الْحِجَابَ نُورًا تَجَلَّى   مِنْ جَلِيٍّ أَخْفَاهُ عَنْكَ الْجَلَاءُ
ثُمَّ نَاجَاكَ حَاضِرًا بِمَعَانٍ   قُدْسِيَاتٍ أَفْنَاكَ مِنْهَا النِّجَاءُ
ثُمَّ أُثْبِتْتَ فِي صَحَائِفِ طُهْرٍ   وَشَهِدْتَ الْبُشْرَى وَكَانَ اللِّقَاءُ
غِبْتَ بِالْأَنْوَارِ الَّتِي كُنْتَ فِيهَا   مُبْصِرًا لَمْ يَحْجُبْكَ عَنْهُ غِطَاءُ
حَيِّ ثَوْرًا لِمَا أَوَى مِنْ نَبِيٍّ   شَرَّفَ الْغَارَ عَنْ سِوَاهُ الْإِيوَاءُ
وَابْنَةَ الصِّدِّيقِ الَّتِي لَا تُرَاعِي   تَحْمِلُ الزَّادَ وَاسْمُهَا أَسْمَاءُ
كَيْفَ قَدَّتْ نِطَاقَهَا فِي إِبَاءٍ   وَمَضَتْ فِي مُضِيِّهَا اسْتِحْيَاءُ
وَأَبُو بَكْرٍ خَافَ بَطْشَ جُمُوعٍ   خَالَفُوا دَاعِيًا وَهُمْ أَدْعِيَاءُ
وَأَبُو جَهْلٍ وَاقِفٌ حَائِرًا فِي   مَدْخَلِ الْغَارِ حَوْلَهُ الْجُهَلَاءُ
عِنْدَهَا الْعَنْكَبُوتُ حَاكَتْ نَسِيجًا   أَوْهَمَ الْوَاقِفِينَ وَهْوَ هَبَاءُ

14/01/2026 15:45 تنزيل كتاب - 1-50 صفحات - MAFAHIM

بَيْتُهَا أَوْهَنُ الْبُيُوتِ بِنَاءً صَدَّ كُفَّارًا وَهُمُ الْأَقْوِيَاءُ

زَادَ فِي شَكِّهِمْ مَبِيضُ حَمَامٍ حِينَ بَاضَتْ فِي عُشِّهَا الْوَرْقَاءُ

مَا قَضَى رَبِّي فِيهِمُ مِنْ قَضَاءٍ كَانَ فِيهِمْ لِمَا قَضَى إِمْضَاءُ

لَا يَرُدُّ الْقَضَاءَ بَأْسُ خَمِيسٍ إِنْ حَكَمَتْ بِانْكِفَائِهِ الْهَيْجَاءُ

مَا قَضَى مِمَّا شَاءَ أَجْرَاهُ قَسْرًا أَنْتُمُ تَمْنُعُونَهُ مَا يَشَاءُ؟

هَؤُلَاءِ الْأَنْصَارُ لَمَّا تَغَنَّوْا طَرِبَتْ آرَامٌ وَهَاجَتْ ظِبَاءُ

قَدْ لَقَوْا خَيْرَ النَّاسِ فِيمَنْ أَتَاهُمْ هَالَهُمْ عِنْدَمَا أَتَى الْإِيتَاءُ

أَكْرَمُوا ضَيْفَهُمْ بِطِيبَةَ عَفْواً فَاسْتَطَابَتْ خِلَالَهَا الْأَحْيَاءُ

وَبَنَى الْمُسْلِمُونَ أَوَّلَ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ الْإِلَهِ وَهْوَ قِبَاءُ

وَعَلَا صَوْتٌ بِالْأَذَانِ رَخِيمٌ لِبِلَالٍ فِيهِ الشَّجَا وَالصَّفَاءُ

وَاسْتَتَبَّ الْأَمْرُ الَّذِي كَمْ تَفَانَى فِي جِهَادٍ مِنْ أَجْلِهِ الْحُنَفَاءُ

فِيهِمُ مِنْ يَهُودِ يَثْرِبَ قَوْمٌ غَمَطُوا حَقاًّ هُمْ بِهِ خُبَرَاءُ

ثُمَّ مَنْ نَافَقَ النَّبِيَّ كَفُوراً وَغَدَا مِمَّا سَرَّهُ يَسْتَاءُ

وَانْطَفَا كَيْدٌ لِلْيَهُودِ بِعَدْلٍ نَابَهُمْ مِنْهُ الْحَرْبُ وَالْإِجْلَاءُ

يَا نَبِيَّ الْهُدَى جَرُأْتُ بِمَدْحِي مَا أَنَا إِلَّا مُذْنِبٌ خَطَّاءُ

عَقَّ جَفْنِي النَّوْمُ اشْتِيَاقاً إِلَيْكُمْ واعْتَرَانِي الظَّمَا وَعَزَّ الْمَاءُ

وَاغْتِرَابٌ فِي عِتْرَتِي وَرُبُوعِي لَمْ يُجَرِّبْ نَظِيرَهُ الْغُرَبَاءُ

كَيْفَ أَلْقَى رَبِّي إِذَا مَا تَوَفَّى مَنْ غَوَتْهُ الْأَوْهَامُ وَالْأَهْوَاءُ؟

مَا نَهَانِي شَيْبٌ غَزَا مَا بِرَأْسِي مِنْ سَوَادٍ سُيُوفُهُ بَيْضَاءُ

غَيْرَ أَنِّي وَالنَّاسُ فِي نَوْمِهِمْ لَا زِلْتُ يَسْتَهْوِينِي الدُّعَا وَالرَّجَاءُ

هَلْ لِمِثْلِي غَيْرُ الْحَبِيبِ طَبِيباً إِنْ تَفَشَّى دَائِي وَعَزَّ الدَّوَاءُ؟

قَدْ مَضَى عُمْرِي فِي ارْتِكَابِ مَعَاصٍ لَامَنِي عَنْهَا لُوَّمٌ نُصَحَاءُ

مَنْ شَفِيعِي فِي حَسْرَتِي عِنْدَ بُؤْسِي يَوْمَ يَنْسَانِي الْأَهْلُ وَالرُّفَقَاءُ؟

كَمْ تَوَسَّلْتُ لِلْحِسَانِ ذَلِيلاً لَمْ تُرَاعِي تَذَلُّلِي حَسْنَاءُ

فِي مِلَاحٍ أَسْهَرْتُ لَيْلِي حَزِيناً وَنُجُومُ السَّمَاءِ لِي نُدَمَاءُ

https://fliphtml5.com/xdxqb/fygr/basic 202/212

حِينَ نَادَيْتُ مَنْ أُحِبُّ وَأَهْوَى وَأَجَابَتْ نِدَائِيَ الْأَصْدَاءُ

وَالْقَوَافِي مَهْمَا قَرَضْتُ تَأَبَّتْ كَيْفَ آبَتْ فِي مَدْحِكُمْ جَمْعَاءُ؟

وَعَرُوضٍ كَمْ خُضْتُ مِنْهُ بُحُوراً سَخِرَتْ فِيهَا مِنِّيَ الْأَنْوَاءُ

كَيْفَ أَنِّي فِي مَدْحِ غَيْرِكُمُ لَمْ يَسْتَقِمْ لِي فِي شِعْرِيَ الْإِنْشَاءُ

وَمَتَى خَصَّصْتُكُمْ بِمَدِيحِي عَجِبَتْ مِمَّا قُلْتُهُ الشُّعَرَاءُ

أَعْجَزَ الْمَادِحِينَ أَبْيَاتُ شِعْرِي لَمْ يُضَاهِينِي مِنْهُمُ الْفُصَحَاءُ

وَمَدَحْتُ الْمُلُوكَ أَرْجُو عَطَاءً لَمْ يَنَلْنِي مِنْ مَدْحِهِمْ عَطَاءُ

مُعْلِياً مِنْ شَأْنِ الْأُلَى أَكْرَمُونِي وَمَنِ اسْتَعْلَى كَانَ مِنِّي الْهِجَاءُ

ثُمَّ لَمَّا عَنَيْتُكُمْ طَارَ شَأْنِي فِي الْأَعَالِي كَأَنَّهُ الْعَنْقَاءُ

سَاجَلَ الْبَدْرِيُّونَ أَعْتَى عَدُوٍّ أَبْرَمَتْ أَمْرَهُ وَغًى شَعْوَاءُ

شَهَرُوا مِنْ أَحْقَادِهِمْ كُلَّ سَيْفٍ يُغْرِيهِمْ فِي خَيْلِهِمْ خُيَلَاءُ

قِلَّةُ الْمُسْلِمِينَ لَمَّا تَرَاءَوْا هَابَهَا مَنْ أَعْمَتْهُمُ حَصْبَاءُ

وَالْوَغَى لَمَّا حَمَّ مِنْهَا وَطِيسٌ وَدَوَتْ فِيهَا صَيْحَةٌ رَعْنَاءُ

تَرْتَمِي هَامَاتٌ وَتَجْرِي دِمَاءٌ سَكَبَتْهَا فِي بَتْرِهَا الْأَشْلَاءُ

أُزْهِقَتْ أَنْفُسٌ بِبَدْرٍ وَكَانَتْ تَرْتَجِي الْعَيْشَ أُمُّهَا ثَكْلَاءُ

وَصِغَارٌ قَضَى أَبُوهُمْ بِبَدْرٍ يَتَعَالَى صُرَاخُهُمْ نُدَبَاءُ

رَجَحَتْ كَفَّةُ الْهُدَاةِ بِبَدْرٍ وَمَشَتْ بِانْتِصَارِهِمْ أَنْبَاءُ

يَا رُمَاةَ السِّهَامِ فِي أُحُدٍ قَدْ نَزَلُوا وَاسْتَهْوَاهُمْ إِغْرَاءُ

لَوْ ثَبَتُّمْ لَمْ يُؤْذَ مِنْكُمْ شَهِيدٌ قَدْ غُلِبْتُمْ وَحَسَّكُمْ جُبَنَاءُ

عِنْدَمَا صَدَّتْ أُسْلَهُمْ بِصُدُورٍ أَنْفُسٌ لِلرَّسُولِ هُنَّ الْفِدَاءُ

فَهَنِيئاً لَهُمْ فِدَاهُ وَطُوبَى لِهُدَاةٍ جَمِيعُهُمْ أَحْيَاءُ

بِأَبِي الْمُصْطَفَى وَأُمِّي إِذَا مَا مَسَّهُ مِنْ أَعْدَائِهِ إِيذَاءُ

فَالرَّدَى فِي سَبِيلِ ذَاكَ حَيَاةٌ وَالْحَيَا إِنْ مَا مِتُّ فِيهِ هُرَاءُ

لَيْتَنِي فِي جَيْشِ النَّبِيِّ شَهِيداً أَثْخَنَتْنِي أُسْلٌ بِبَدْرٍ ظِمَاءُ

يَرْتَوِي عَزْمٌ لِلْهُدَاةِ وَيَقْوَى بِدِمَاءٍ أَلْوَانُهَا حَمْرَاءُ

وَاذْكُرِ الْأَحْزَابَ الَّذِينَ تَدَاعَوْا فِي جُمُوعٍ ضَاقَتْ بِهَا الْأَرْجَاءُ

طَوَّقُوا الْمُسْلِمِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ وَتَبَاهَوْا بِالْكَمِّ وَهْوَ غُثَاءُ

آذَنُوا رَبَّهُمْ بِحَرْبٍ فَأَنَّى يَغْلِبُ اللهَ خَلْقُهُ الضُّعَفَاءُ

فَإِذَا رِيحٌ صَرْصَرٌ فِي خِيَامٍ قَلَعَتْ أَطْنَاباً لَهَا هَوْجَاءُ

كَسَرَتْ رِيحٌ عَزْمَهُمْ فَتَوَلَّوْا لَمْ يَعُدْ لِلْغَازِينَ مِنْهُمْ بَقَاءُ

وَغَدَا الْأَوْلِيَاءُ فِي فَرْحَةٍ مَا بَعْدَهَا فَرْحَةٌ وَزَادَ الْوَلَاءُ

أَنْتُمُ الصَّابِرُونَ عِنْدَ الْبَلَايَا مَا أَهَمَّتْ وَكَانَ فِيهَا اسْتِيَاءُ

كُنْتُمُ لِلرَّسُولِ خَيْرَ نَصِيرٍ فِي الرَّزَايَا أَعْلَامُكُمْ شَمَّاءُ

قَدْ بَنَيْتُمْ صَرْحاً قَوِيمَ الزَّوَايَا طُوبُهُ الصَّبْرُ وَالتُّقَى وَالْإِخَاءُ

مَعْشَرَ المحْرِمِينَ صَدَّهُمُ عَنْ بَيْتِهِمْ لَمَّا أُحْصِرُوا الْأَعْدَاءُ

أَبْشِرُوا إِنَّ الْفَتْحَ لَا شَكَّ آتٍ فَاصْبِرُوا لَا يُغِيظُكُمْ إِرْجَاءُ

مَا رَآهُ الرَّسُولُ فِي النَّوْمِ وَعْدٌ عَنْ قَرِيبٍ بِالْوَعْدِ يُوفِي الْقَضَاءُ

إِنْ رَجَعْتُمْ عَنْ بَيْتِكُمْ لَا تُرَاعُوا فَغَداً إِنْ صَبَرْتُمْ وَفَاءُ

مَا تَوَلَّيْتُمْ مُحْرِمِينَ احْتِسَاباً لَمْ يُخِفْكُمْ مِمَّا أَتَوْهُ دَهَاءُ

فِي الْحُدَيْبِيَّةِ السَّلَامُ تَبَاهَى بِرَعِيلٍ رُعَاتُهُ سُمَحَاءُ

أَذِنَ الْمَوْلَى لِلنَّبِيِّ بِفَتْحٍ لَمْ يَعُدْ لِلْهُدَاةِ عَنْهُ غَنَاءُ

خَرَجُوا طُرًّا جَيْشُهُمْ فِي أُلُوفٍ أَلَّفَتْهُمْ شَرِيعَةٌ سَمْحَاءُ

وَأَبُو سُفْيَانَ الَّذِي كَانَ خَصْماً بَاتَ يَأْوِي لِبَيْتِهِ الْخُصَمَاءُ

هَلْ ظَنَنْتُمْ أَنِّي بِكُمْ لَا أُبَالِي؟ اِذْهَبُوا أَنْتُمْ كُلُّكُمْ الطُّلَقَاءُ

يَا حَلِيماً مَا مِثْلُهُ مِنْ حَلِيمٍ وَكَرِيماً اِغْتَنَى بِهِ الْفُقَرَاءُ

بَاسِمَ الثَّغْرِ يَسْتَحِي فِي إِبَاءٍ بَاسِطَ الْكَفِّ دَأْبُهُ الْإِقْرَاءُ

وَتَجَلَّى مِنْ جَبِينِهِ مَا تَجَلَّى مِنْ ضِيَاءٍ خَبَتْ لَهُ الْأَضْوَاءُ

خَطْوُهُ إِنْ مَشَى الْهُوَيْنَى سَحَابٌ فِي سَمَاءٍ سَرَى بِهِ إِبْطَاءُ

حُبُّهُ فِي كُلِّ الْقُلُوبِ مَكِينٌ قَدْ أَحَبَّتْهُ الصِّيدُ وَالدَّهْمَاءُ

يَا إِمَاماً مِنْ دُونِ عَرْشٍ وَقَصْرٍ وَأَمِيراً دَانَتْ لَهُ الْأُمَرَاءُ

وَحَبِيباً هَامَتْ بِحُبِّهِ وُرْقٌ سَنَحَتْ وَازْدَانَتْ بِهَا الْأَجْوَاءُ
مَا بُكَاءُ الْأَحْرَارِ فِي يَوْمِ هَمٍّ قَدْ بَكَاهُ الْعَبِيدُ ثُمَّ الْإِمَاءُ؟
هَلْ قَضَى خَيْرُ النَّاسِ بَعْدَ عُهُودٍ زَانَهَا مِنْهُ الْبَعْثُ وَالْإِحْيَاءُ؟
لَمْ يَعُدْ بَعْدَهُ لِمِثْلِي بَقَاءٌ لَيْسَ يُجْدِينِي بَعْدَهُ اسْتِبْقَاءُ
ذَلِكَ الْمُسْجَى هَا هُنَاكَ حَبِيبِي لَيْتَنِي لَمَّا أَنْ سَجَوْهُ الرِّدَاءُ
مَوْسِمَ الْهَمِّ لَا عَلَيْكَ إِذَا مَا دَمَعَتْ فِيكَ أَعْيُنٌ هَدْبَاءُ
فِي اكْتِئَابٍ وَفِي أَسًى قَدْ تَدَاعَتْ بِالْقُلُوبِ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ
قَدْ بَكَتْهُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ لَمَّا أَوْدَعُوهُ الثَّرَى وَكَانَ الثَّوَاءُ
صَاحِ لَا تَسْتَكِنْ لِطِيبِ حَيَاةٍ هَمَلاً تَرْعَى وَالرَّعَايَا شَاءُ
إِنْ تَعِشْ دَهْراً فَلْتَعِشْ فِي صَلَاحٍ كَيْفَ يَحْلُو عَيْشٌ يَلِيهِ انْقِضَاءُ؟
مَا لَنَا وَالدُّنْيَا نُنَافِسُ فِيهَا مَنْ حَلَتْ فِي أَنْظَارِهِمْ شَمْطَاءُ
فَرَّقَتْ أَزْوَاجاً غَدَوْا فِي شَتَاتٍ وَتَعادَى الْآبَاءُ وَالْأَبْنَاءُ
إِنَّنِي فِي دُنْيَاكَ مِثْلُ غَرِيبٍ لَيْسَ لِي فِي أَكْنَافِهَا مَا أَشَاءُ
رَاوَدَتْنِي مَيٌّ تُرِيدُ انْحِلَالِي إِنَّ مَيًّا فِي نَاظِرِي خَرْقَاءُ
وَصَلَاةٌ عَلَى النَّبِيِّ خِتَاماً وَسَلَامٌ مِنِّي مَا لَهُ إِحْصَاءُ
وَعَلَى آلِ الْبَيْتِ مِنْهُمْ عَلِيٌّ حَسَنٌ وَالْحُسَيْنُ وَالزَّهْرَاءُ
ثُمَّ أَزْوَاجٌ وَالصَّحَابَةُ طُرًّا خُلَفَاءُ الْبَشِيرِ وَالْوُزَرَاءُ
رَاجِياً رُفْقَةَ النَّبِيِّ وَصَحْباً هُمْ عَلَى مَا مَدَحْتُهُ شُهَدَاءُ

فهرس مراجع كتاب المفاهيم، دون مظان الحديث الشريف التي ذكرت في نهاية الأحاديث الشريفة

01	القرآن الكريم برواية الإمام ورش دار المصحف بيروت	
02	المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم دار الجيل بيروت 1408هجرية 1988ميلادية	وضعه: محمد فؤاد عبد الباقي
03	لسان العرب المطبعة الأميرية مصر 1302هجرية 1885ميلادية	أبو الفضل، جمال الدين محمد بن مكرم بن علي بن أحمد، الأنصاري الخزرجي الإفريقي، ثم المصري، المعروف بابن منظور
04	لطائف المنن في مناقب علم المهتدين وقدوة السالكين سيدي أبي العباس أحمد بن عمر الأنصاري المرسي وشيخه قطب الأقطاب ودستور عوارف المعارف بلا ارتياب سيدي أبي الحسن الشاذلي مجلة كتاب الشعب دارالشعب 1402هجرية 1986ميلادية	أحمد ابن عطاء الله السكندري تحقيق د. عبد الحليم محمود
05	وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان دار صادر بيروت 1972ميلادية	أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان توفي سنة 681ميلادية تحقيق: إحسان عباس
06	ديوان الإمام الشافعي الناشر: دار الكتاب بيروت الطبعة الثالثة 1416هجرية 1996ميلادية	محمد بن إدريس الشافعي تحقيق: إميل بديع يعقوب
07	معالم التنزيل في تفسير القرآن المسمى تفسير البغوي دار طيبة للنشر والتوزيع الطبعة الرابعة 1417هجرية 1997ميلادية	أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي توفي سنة 510هجرية حققه وخرج أحاديثه: محمد عبد الله النمر، عثمان

		جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش دار طيبة للنشر والتوزيع
08	نهج البلاغة طبعة بيروت 1885ميلادية	علي بن أبي طالب كرم الله وجهه شرح: محمد عبده
09	حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر الناشر: دار صادر بيروت الطبعة الثانية 1413هجرية 1993ميلادية	عبد الرزاق البيطار تحقيق: محمد بهجة البيطار
10	منتخب الكلام في تفسير الأحلام مكتبة ومطبعة مصطفى البابلي الحلبي وأولاده طبعة: 1359هجرية 1940ميلادية	أبو بكر محمد بن سيرين البصري، توفي سنة: 110هجرية

فهرس مواد كتاب المفاهيم

صفحة	الموضوع
	إهداء
01	تقديم
06	المبحث الأول: في الظاهر والباطن
22	فصل في خفاء الظاهر مَتَى أَمْعَنَ في الظُّهُورِ، وَإِمْعَانِ الباطن في انْتِهَاكِ السُّفُورِ
24	فصل في قوله تعالى: "إن الساعة آتية أكاد أخفيها". طه14
26	فصل في صِلَةِ الإنسان بالظاهر والباطن، وَبِمَ يَتَّصِلُ وَيَتَوَاصَلُ، وَتَرْتِيبُ مَا يَهُمُّ الظاهر والباطن من خَوَاصٍّ أَوْدَعَهَا الله سبحانه فيهما على حَسَبِ التَّخَصُّصِ والِاخْتِصَاصِ
28	فصل في قوله تعالى في الحديث القدسي: "فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لَأُعْطِيَنَّهُ ولئن استعاذني لَأُعِيذَنَّهُ". انتهى
30	فصل في الكلام على شأن الفراغ وحضرة التَّفَرُّغِ في قوله تعالى: "سَنَفْرُغُ لكم أيها الثقلان". وما يستوجبه إخباره سبحانه به من استشعار الخشية ولزوم المراقبة
32	فصل في نِسْبَةِ الكون إلى الإنسان نِسْبَةَ تَضَمُّنِ الثاني للأول، وما يَدِينُ به الْمُتَضَمِّنُ بحر الميم، في تَتَبُّعِهِ من المعارف ما عليه عَوَّلَ
34	فصل في سِرِّ التَّرَدُّدِ في الموجودات، وَتَجَادُلِ الْمُسْتَخْلِفِ وَالْمُسْتَخْلَفِ فِيهِ في التأثر والتأثير، في الحياة قبل الممات
37	فصل في قوله ﷺ: "أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين".
	المبحث الثاني: في أحكام الروح والنفس فيما يتعلق بالماهية، وما يجري بينهما من تَخَاطُرٍ وَتَخَاطُبٍ، وكيف يعتبرهما الْمُكَلَّفُ في شريعة التكليف، وما تستوجبه النفس من حقوق عليه، فيما تَرْغَبُ وَتَأْمُرُ، وما يُخَالِفُ منه وَيَحْذَرُ

14/01/2026 15:45 تنزيل كتاب - 1-50 صفحات - MAFAHIM

	39
42	فصل في قوله تعالى: "فتوبوا الى باريكم فاقتلوا أنفسكم، ذلكم خير لكم عند باريكم، فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم". البقرة53
45	فصل في أن الروح عرشية نسبة إلى العرش، والنفس كرسية نسبة إلى الكرسي
47	فصل فيما أَوْهَمَ فيه الناس من أن الروح عَيْنُ النفس، وبيان تمييز الأولى عن الثانية بغير لَبْسٍ، وما يَتَرَتَّبُ عن هذا التمييز من وظائف هذه وتلك في أجساد الإنس
52	فصل في سِرِّ تَوَاصُلِ النفوس دَارِيَةً وَغَيْرَ دَارِيَةٍ، وتواصل الأرواح وهي سَارِيَةٌ، وما يَرْسُو من حكمة بهذا التواصل في الجارية
54	فصل في قوله تعالى: "ويسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا". الإسراء85
55	فصل في منزلة الماء في الخليقة، وَسَرَيَانِهِ في المكوّنات ظاهرةً وباطنةً خيالا وحقيقة، يَسْرِي في الظاهرة في العناصر، وَيَسْرِي في الباطنة في السرائر
59	فصل في أن ابن آدم لا يكون تحت التكليف إلا وهو حي، وما يستوجبه معنى الحياة من تَرَكُّبِهِ من روح ونفس وجسد، وما يطرأ عليه إذا انتقص هذا التركيب
61	فصل في تصنيف الولايات حسب العناصر، وترتيب الآيات في كل صنف حسب المصادر، واختلاف أهلها في المقاصد والغايات، في الباطن والظاهر
67	فصل في قوله تعالى: "إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه". النساء170
72	فصل في أن من تَلَبَّسَ بالروح تَزَامَنَ لَدَيْهِ الْمُجْرَيَاتُ بالماضيات والآتيات، وعلم من الغيب نصيبا على حسب استعداده لتلقي اللَّدُنِيَّاتِ، وتصرف في بعض عوالم الملك والملكوت بما أذن له الرحمن مما قَدَّرَ وقضى في الحاضر والماضي والآت
	المبحث الثالث:في الحياة والموت 74
78	فصل في حقيقة الموت والحياة، وبقاء الحي الذي لا يموت وزوال سائر المخلوقات، سبحانه لا إله إلا هو، واحد في الذات والأفعال والصفات
80	فصل في قوله تعالى: "وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب، وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو

https://fliphtml5.com/xdxqb/fygr/basic 209/212

14/01/2026 15:45 تنزيل كتاب - 1-50 صفحات - MAFAHIM

كانوا يعلمون". العنكبوت64	
فصل في أن تَمَاسَّ الأزواج ما تَمَاسَّتْ، لا يكون إلا بأمر الواحد الأحد	82
فصل في الفرق بين الخلد والخلود وما يجري بينهما من وصل وصدود	84
المبحث الرابع: في الرب والعبد	86
فصل في مكانة الملائكة من الواحد القهار، وَتَسْبِيحُهُمْ له بالليل والنهار، وَشِدَّةُ خوفهم منه تعالى، رغم أنه لم يَعِدْهُمْ بجنة ولم يَتَوَعَّدْهُمْ بنار	88
فَصْلٌ فِي عِظَمِ أَمْرِ هِمَّةِ الْإِنْسَانِ وَمَنَاطُ أَحْكَامِ الْعَقَائِدِ عَلَيْهَا، وَأَنَّهَا أَسَاسُ الْإِيجَادِ مِنْ عَدَمٍ	98
فصل في صِلَةِ مَا رَكَّبَهُ المولى في الإنسان من صفات وطبائع، تُعَرِّفُهُ بالرحمن إذا قاس فِعْلَهُ بِفِعْلِ مولاه، وما يحب ويكره، على حسب ما يحب ويكره في ما سَفُلَ مِنْ أكوان	100
فصل فِيمَنْ تساءل عن العلة من الخلق، وبيان أن ذلك من شأن الواحد الحق، وإنما يجب الاعتقاد بأنه تعالى ما خلق ما خلق سدى، إن في ذلك لمن آمن واهتدى	104
المبحث الخامس: في الذكر والأنثى	108
فصل في مراعاة الشارع وَهَنَ المرأة، وَعَدَمِ تكليفها بكثير مِمَّا طالب به الرجل، في شؤون الدنيا والدين على السواء	114
فصل في أمهات المؤمنين الزَّوْجَاتِ، وَغَلَبَةِ طَبْعِ النساء عليهن في مُعَاشَرَةِ رسول الله ﷺ الزَّوْجِ	119
فصل فيما يجوز فيه الكذب على الزوجة	123
فَصْلٌ في اقْتِصَارِ النبوة على الرجال، وبيان موقع النساء في الولاية	125
فصل في قوله تعالى: "ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون". الذاريات49	129
فصل في تَقَابُلِ النَّقَائِضِ، وَتَضَارُبِ الْفَرَائِضِ، في سلوك مَنْ فَطَنَ للبيع والشراء، فَوَهَبَ ولم يُقَايِضْ	132
فصل في حُضُورِ سِرِّ التَّزَاوُجِ في العناصر الأربع فيما بينها، وما تآلف منها وما اختلف، والغاية من ذلك في التكوين	133
المبحث السادس: في الإنس والجان	136

https://fliphtml5.com/xdxqb/fygr/basic 210/212

14/01/2026 15:45 MAFAHIM - تنزيل كتاب - 1-50 صفحات

فصل في قوله تعالى: "ويوم نحشرهم جميعا يا معشر الجن قد استكثرتم من الانس، وقال اولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا اجلنا الذي اجلت لنا، قال النار مثواكم خالدين فيها الا ما شاء الله، ان ربك حكيم عليم". الأنعام129	139
فصل في رؤية الجن، وهل ذلك يكون حقيقة أو وَهْماً، ومتى يكون وكيف يكون	141
فصل في قُدُرَاتِ الْإِنْسِ والجن، وما يأتيه الجن من خرق العادة، وأن حال الجن قبل بعثة النبي ﷺ ليس حاله بعد بعثته	145
المبحث السابع: فيما خَلَّفَ بعض العارفين مِنْ أسئلة يُعْجِزُونَ بها مَنِ ادَّعى أنه مِنْ أَهْلِ الفتح والْمُكَاشَفَاتِ، وما خَاضَ فيه العارفون قَبْلَنَا مِنْ كَلَامٍ حَوْلَ الْمَوَاقِفِ وَالْمُخَاطَبَاتِ 148	
فصل في ما فَتَحَ الله به علينا مِنْ فَهْمٍ لِمَا ذكرناه آنفا مِمَّا اشْتَرَطَهُ الإمام أبو الحسن الشاذلي رحمه الله تعالى، في كرامات القطب	155
السباعيات	162
السباعية الأولى	162
السباعية الثانية	164
السباعية الثالثة	166
السباعية الرابعة	168
السباعية الخامسة	171
السباعية السادسة	173
السباعية السابعة	176
فصل في المواقف والمخاطبات	181
مخاطرات أبي الفتح الجعفي	183
القصيدة الهمزية في مدح خير البرية	193
فهرس مراجع كتاب المفاهيم، دون مظان الحديث الشريف التي ذكرت في نهاية الأحاديث الشريفة	200
فهرس مواد كتاب المفاهيم	202

https://fliphtml5.com/xdxqb/fygr/basic 211/212

تم الكتاب ولله الحمد والمنة